عندما التقيتُ عمرَ بن الخطّاب

أدهم شرقاوي

«قسّ بن ساعدة»

٢٠١٧



• عندما التقيتُ عمرَ بن الخطّاب
• أدهم شرقاوي «قسّ بن ساعدة»
• دار كلمات للنشر والتوزيع
• الطبعة الأولى ٢٠١٧
دولة الكويت / محافظة العاصمة
تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤
تويتر : @Dar_kalemat
إنستجرام : Dar_kalemat
Dar_Kalemat@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف :
تويتر : @adhamsharkawi
إنستجرام : Bin.saeeda

ISBN: 978-99966-1-827-7 : **ردمك**

الإهداء

يا عمر بن الخطّاب
هذه الرّواية منكَ . . . إليكَ
أعرفُ أنّكَ أكبر من أن يحويكَ كتاب
ولكن هذا كلّ ما استطعتُ!

- «لو كانَ بعدي نبيّ لكان عُمر»

رسول الله ﷺ

- «ماذا تقولُ لربّك غداً إذا سألكَ لِمَ ولّيْتَ علينا عمر بن الخطاب»؟!
أقولُ له : ولّيتُ عليهم خير أهلك!

أبو بكر الصّديق

- «كان إسلامُ عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة»
عبد الله بن مسعود

- «إنّ إسلام عمر بن الخطاب كان نقطة تحوّل في تاريخ الإسلام»

توماس آرنولد

- «كان عمر بن الخطاب شخصاً فذّاً ، ولعب دوراً رئيساً في انتشار الإسلام»

د . مايكل هارت

- «تحوّلت الدولة الإسلاميّة في حكم عمر بن الخطاب من إمارةٍ عربيّة إلى قوة عالميّة»
الموسوعة البريطانيّة الصادرة عام ٢٠٠٩ م

متى استَعْبَدتُم النّاسَ وقدْ ولدَتْهُم أمّهَاتُهم أحرَاراً؟!

أمّا قبل:

وأتَى من بعيد . . . .

فارعُ الطُّول كأنَّما بينه وبين النَّخيلِ قرابة!

صَلبٌ كأنه قُدَّ من خاصرة جبل!

في يده اليُسرى عصًا تشعرُ إذا رأيته يغرسها في التراب أنه لا يحتاجها للاتكاء وإنما ليُثبتَ بها الأرضَ في مدارها!

كثٌّ اللحيّة ، أبيضُها ، لكأنّها ثوب إحرام!

ثيابه بالية تُخبرُ أنه من فقراء الأعراب

ولكن وجهه الوضَّاء كسراج ، وعينيه الصّاخبتين كأنهما ساحة معركة ، يُخبران أنّ هذا الرجل لا يوجد منه الكثير ، وليس من الرجال الذين بالإمكان أن نلتقي بهم كل يوم ، كلّ شيء فيه يوحي أنّ وراءه حكاية ، أو لعله حكاية بحدِّ ذاتها!

ولَّما صارَ على بعد ذراع مني أردتُ أن أسأله : من أنتَ؟!

ولكن ثمّة رجالٍ من فرًط هيبتهم يحبسون الكلام في صدرك ، وقد كان واحدًا منهم!

وقفتُ مسمرًا مدهوشًا أنظرُ إليه ، يُكبلني رهبة وفضول

ثم أعتقني من قيودي قائلاً : لكَ السَّلام!

صوته أصلب من بُنيته ، لكن فيه مسحة من حنان ، كصوت أم تدعو لولد مريض ، ومسحة من خشوع ، لكأنه أذان الفجر!

رددتُ عًليه بسرعة : ولكَ السَّلام

ثم سألني : ممن الرجل؟

فقلتُ : من العرب!

فقال : العربُ كثير ، فمن أيّهم؟

فقلتُ : من الذين زالَ ملكُهم ، وانقطع عزُّهم ، وصاروا كالأيتام على موائد اللئام ، ومن أنت؟

– عمر بن الخطاب!

– عُمر ، هازم الروم وفارس ومحطّم الإمبراطوريات؟

– عُمر صاحب رسول الله ﷺ ، ولا نسب أحبُّ إليّ من هذا!

هو عمر إذًا ، الرجل الذي ليس وراءه حكاية لأنه الحكاية ، والرجل الذي يُسأل عن التاريخ لا لأنه قرأه ، بل لأنه صنعه ، غير أني في حضرة عُمر ، لم يكن يعنيني من التّاريخ إلا عُمر ، أردت أن أسمع الحكاية من فم الحكاية ، وأطّلعَ على المعجزةِ من المعجزة نفسها!

أمّا بعد:

عمر بن الخطاب دليل حيٌّ على ما يفعله الإسلام بالناس، وكيف يحولهم من طغاة نهار إلى رهبان ليل، ومن رعاة ماشية إلى صانعي حضارة وهازمي إمبراطوريات! فالرّجلُ الذي كان يصنع صنمًا من تمر ليعبده أول النّهار ويأكله آخر الليل، هو نفسه الذي قطع شجرة بيعة الرضوان كي لا يتعلق قلبٌ بغير الله! والرجلُ الذي كان يكيل العذاب لمن قال لا إله إلا الله دون أن يرفّ له جفن، هو نفسه الذي صار يخشى أن تتعثر دابة عند شاطئ الفرات خوفًا من أن يسأله الله: لِمَ لمْ تُصلح لها الطريق يا عمر؟!

كان في السَّادسة والعشرين عندما أصابته دعوة النبيّ ﷺ في قلبه: اللهم أعزّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليكَ؛ عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام!

هكذا بدأت الحكاية، دعوةٌ جذبته من ياقة كفره إلى نور الإسلام، وانتشلته من مستنقع الرذيلة إلى قمة الفضيلة، واستلّته من دار النّدوة إلى دار الأرقم!

ولأنَّ النّاسَ معادن خِيارهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام إذا فقِهوا، كان عمر الجاهليّ مهيّأً بإتقان ليكون عمر الفاروق! كل ما كان ينقصه إعادة هيكلة وصياغة، وليس أقدر من الإسلام على هيكلة الناس وصياغتهم من جديد! فالإسلام لا يلغي الطبائع

إنما يهذبها ، ولا يهدم الصفات وإنما يصقلها ، وفي الإسلام هُذّب عمر وصُقل حتى صار واحدًا من الذين لا يأتون إلا مرة واحدة في التاريخ!

الإسلامُ قتلَ كُفر عُمر ، ولكنه لم يقتل شخصية عمر ، بل أطلق لها العنان بعقلية جديدة ، فالذي كان صلبًا في الباطل بقي صلبًا ولكن في الحق ، والذي كان يجهر بالكفر دون أن يُلقي بالاً بأَحدٍ ، جهر بالإيمانِ دون أن يُلقي بالاً بأَحدٍ!

وقد يتبادر إلى الذّهن سؤال مشروع :

ما دمنا نقول أن الإسلام يُهذب الطباع ويصقل الصفات ، وأن الناس معادن ، فإننا نتفق أن حزم عمر الخليفة هو حزم عمر الجاهلية وإن اختلفت الغايات وتنافرت البواعث ، ولكن كيف نُفسّر تلك الرقة التي كانت تتكلل حزم عمر ، أين كانت تلك الرقة في الجاهلية ، أليسَ هو نفسه الذي نكّل ببني عَديّ ، ولم يَسلمْ منه حتى أقرب المقربين منه ، ممن أعلنوا إسلامهم ، فإن لم تظهر رقته عليهم فكيف يمكن نسبة تلك الرقة إلى طبعه؟!

هذا سؤال مشروع فعلاً ، ولكنه ليس محقًا ، إذ أننا به نفترضُ أن الحزم يتنافى مع الرقة ، على العكس تمامًا ليس بين الصفتين تناقض ولا تعارض ، ولا تنافر ولا تضاد ، إن القسوة هي التي ضد الرقة ، وليس الحزم ، وعمر كان حازمًا ولم يكن قاسيًا ، ولكن لأن الحزم في كثير من مواقفه يرتدي زيّ القسوة يخلط الناس بينهما!

ثم مـا دام عـمـر هنا ، فلِمَ نتـحـدث عنه ، لماذا لا يُحـدثنا هو نفسه ، وقد أردنا منذ البداية أن نسمع منه لا أن نسمع عنه!

ألتفتُ إليه وأسأله : يا أمير المؤمنين ، تناهى إلى سمعي موقف جمعكَ وليلى بنتُ حنتمة فما خبره؟!

– يا بنيّ كـان ذلك في مكة ، وكنتُ يومـذاك على الشـرك وأم عـبـدالله بنت حنتـمـة قد هداها الله للإسـلام ، وكـان بيننا قـربى ، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بعض المسلمين بالهجرة إلى الحبشة ، وكـانت أم عبدالله ممن تأهبوا للهجرة ، فأقبلتُ عليها وقد جمعتْ متاعها ، فقلتُ : إنه الانطلاق يا أم عبدالله؟!

فـقـالت : نعم هو الانطلاق ، والله لنخـرجنّ في أرضِ الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل اللهُ لنا مخرجًا

فقلتُ : صحبكم الله!

– أتدري يا أمير المؤمنين ما قالتْ أمُّ عبدالله وهي تحدثُ عامرَ بن ربيعة عن هذا؟

– ماذا قالت؟

– قالت له : رأيتُ اليوم من عمر رقةً لم أرها من قبل قطّ!

تدمع عينا عمر إذ أعدته إلى مرحلة من عمره لو عاد إلى الحياة مـرة أخـرى لما أحبَّ أن تكون فـيـه ، ولكني قطعتُ حـبل ذاكـرته عليـه ، وقلتُ له : أتدري مـاذا قـال عـامـر بن ربيـعـة يومـذاك لأم عبدالله؟!

– ماذا قال لها؟

– قال : كأنكِ طمعتِ في إسلام عمر!

فقالت له : نعم ، فقال لها : إنه لا يُسلم حتى يُسلم حمار الخطاب!

ثم عاجلتُه بالسؤال : من أين جاءتْ تلك الرّقة فيك وقد كنتَ ما كنتَ؟

– يا بنيّ ، إن الشَّهم في الودّ هو الشهم في الخصومة ، لا خير في امرئ إذا خاصم فجر ، ولا خير في امرئ لا يرقُّ على أرحامه؟

– ففيمَ كان هذا العداء إذًا؟

– كنتُ أعادي الفكرة لا الأشخاص ، فلم أكن كأبي سفيان الذي له مال ومكانة تُهددها الدعوة ، ولم أكن كخالي أبي جهل وهو في سباق محموم مع بني عبد مناف ، إذ كان يقول : تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذا؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نُصدقه! ولم أكن كالوليد بن المغيرة إذ استعظم شأنه واستصغر شأن محمد ﷺ ، ورأى أنه أولى بهذا الأمر منه ، فقال : «لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» يعني نفسه في مكة ، أو عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف! ولم أكن كعتبة بن ربيعة إذ قال : خلوا بين محمد والعرب فإن قتلوه أراحونا منه ، وإن ظهر عليهم فهو منا وعزُّه عزُّنا! وإنما كنتُ ضد الفكرة فقط ، هذه التي فرّقتْ أمرَ قريش ، وشقّتْ عصاهم ، وشتتتْ شملهم ، حتى كان الأبُ في صعيد وابنه في صعيد ، والأخُ في فريق وأخوه في آخر .

– وكيف غاب عمن هو في مثل عقلك يا أمير المؤمنين أن يدرك الحقّ في أيّ الفريقين كان؟! وكيف لمثلك أن يصنع صنمًا من تمر يعبده أول النهار ويأكله آخر الليل؟!

– يا بنيّ ، كان فينا عقل ولكن لم تكن فينا هداية! إن العقلَ الذي لا تسدده الهداية فرس مجنونة ، تقود صاحبها ولا يقودها ، وما سُدنا الناس بعد ذلك بعقل أعملناه ، ولكن بنور ألقاه الله في الصدور ، فصارت العقول مطايا لينة ، وقد شهدتُ أناسًا أعقل من عمر لم تعصمهم عقولهم من النار ، وشهدتُ أناسًا بسطاء قذف الله في قلوبهم نور الإيمان فصاروا قناديل يضيئون للناس الطريق!

كان عمر يحدثني عن الهداية ، فيخطرُ لي رائد الفضاء الذي يعبد بقرة ، والطبيب الذي يُشرّحُ جسم الإنسان ويرى دقة الخلق ثم لا يؤمن أن وراء هذا الإتقان خالقًا! وقد صدق الفاروق أن المسألة هي مسألة قلوب لا مسألة عقول!

ولأنّ الحديث عن الهداية ما كان لي لأفوّت فرصة أن أسمع منه قصة هدايته . . .

فقلتُ له : يا أمير المؤمنين حدثني عن لحظة إسلامك!

فقال : هي لحظة كُتبت في السماء لتكون في الأرض فكانت! كنتُ في الأرض جبارًا ، أيِسَ المسلمون أن يشهدوا لحظة إسلامي ، ولكنّ النبيّ ﷺ نقل ملف قضيتي من الأرض إلى السماء داعيًا : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليكَ ، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام ، فكنتُ أنا! أوّل مرة سمعتُ بأمر هذا الدعاء من عبدالله بن مسعود قبل يوم من إسلامي ، إذ ضرب أبو جهل عبدالله بن مسعود

وطرحــه أرضـًا ، فــرقَّ قلبي له ، ومــددتُ إليــه يدي أســاعــده لينهض . . .

فـقـال لي : والله إنكَ لخيـر الرجلين ، مـا أظن دعـاء الرسـول يُخطئك!

ولكني لم ألقِ للأمر بالاً ، ثم بعد ذلك عرفتُ ما الذي تفعله دعوة قيلت في الأرض فوجدت في السماء إجابة!

أمضيتُ ليلتي تلك ، أفكر بأمر النبي ﷺ ، وما الذي أحدثه في قريش ، فقررتُ أن أقتله ، ثم أذهبُ إلى بني هاشم فأسلمهم نفسي ليقتلوني به ، رجلاً برجل ، وهكذا ترجع مكة سيرتها الأولى . . . وفي الصباح حملتُ سيفي ومضيتُ عازمًا أن أفعل ما رأيتُ ، وفي الطريق التقيتُ برجلٍ من بني زهرة يُقال له نعيم بن عبدالله العدويّ ، وكان قد أسلم وأخفى إسلامه فزعًا من قومه ، فسألني :

- إلى أين يا عمر؟

- أريدُ محمدًا الذي فرَّق أمر قريش ، وعاب دينها ، لأقتله!

- واللهِ غـرتكَ نفسكَ ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمدًا؟! أفلا ترجع إلى أهلكَ فتقيم أمرهم؟!

- وأيّ أهلي؟

- ابن عمك وأختك فاطمة ، فقد والله أسلما!

لم يجد نعيم غير هذه الوشاية يردُّ بها شَرِّي عن رسول الله ﷺ ، لقد اختار الرجل أيسر الشّرين ليسلمَ رسول اللهِ ، وما كان يعلمُ ولا أنا ، أنه دلني إلى بيتٍ لن أخرج منه على الحال الذي دخلته بها!

ذهبتُ غاضبًا قاصدًا بيت أختي فاطمة وزوجها سعيدًا ، فلما دنوتُ من الباب سمعتُ صوت خبّاب بن الأرت يُقرئهما القرآن ، فطرقتُ الباب طرقًا شديدًا ، وقلتُ : افتحوا!

فاختبأ خبّابُ من فوره ، وفتح سعيدٌ الباب ودخلتُ ، وقلتُ : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكما؟

فقالت فاطمة : ما سمعت شيئًا ، كنتُ وسعيداً نتحدث في بعض أمرنا .

ولكن هذا الكلام لم ينطلِ عليَّ فقلتُ لها : يا عدوة نفسها ، أصبوتِ؟

فسكتت ولم تُجبْ!

فقلتُ لهما : لعلكما صبوتما وتركتما دينكما الذي أنتما عليه؟!

فقال لي سعيد : يا عمر ، أرأيتَ إن كان الحق في غير دينكَ؟

فلم أحتملها منه ، فضربته ضربًا شديدًا ، فقامت فاطمة لتزيحني عنه ، فضربتها على وجهها فسال دمها!

فقالت لي وهي غضبى تمسح الدم عن وجهها : يا ابن الخطاب ، اصنع ما شئتَ ، فقد أسلمتُ!

وتركتني ، ومضت تجلس في مكانها . . .

فلما رأيتُ هذه الجرأة من فاطمة عليّ ، والدم على وجهها ، رقّ قلبي لها ، وقبل أن أتكلم ، رأيتُ الصحيفة التي كانت قد أخفتها لحظة دخولي عليهم ، فقلتُ : أهذه التي كنتما تقرآن بها؟ أعطوني إياها

فقالت : إنكَ رجس ، وإنه لا يمسه إلا المطهرون ، فقُمْ واغتسلْ!

وكانت تلك المرة الأولى التي أحسُّ فيها بذلِّ الشِّرك!

فاطمة المطيعة لي ترفع صوتها في وجهي وتقول : أسلمتُ فاصنعْ ما شئتَ! وتمنعني صحيفةً طلبتُها!

فقمتُ واغتسلتُ وأخذتُ منها الصحيفة وقرأتُ فيها . . .

– وأي سورة كانت يا أمير المؤمنين ، وبِمَ أحسستَ وأنتَ تقرأ الآيات ، وبِمَ حدثتَ نفسكَ؟

– كانت سورة طه ، وكانت كافية لتأتي بي حيث كان يجب أن أكون منذ البداية ، ولكن كلَّ شيءٍ بقدر ، كانت الآيات تصيبني في قلبي فأحسُّ أنها كالمعاول تهدم هبل واللات وتكتب اسم الإله الواحد خالق كل شيء ، ومبدع كل شيء ، كانتْ كشمس الصباح إذ تطردُ عتمة الليل وتحلُّ مكانها ، وكان السياق القرآني في مطلع سورة طه هو كل ما أحتاج ، خِطابٌ لمحمد وقصةٌ لموسى عليهما السّلام ، كان خِطاب محمد ﷺ هو كل ما أحتاج في العقيدة ، وقصة موسى عليه السلام هي كل ما أحتاج لأبدأ ، لقد تخيلتني مكانه ، قلتُ لكل شيء بداية ، فلمَ لا أبدأ؟!

– عن هذا حدثني يا أمير المؤمنين ، عمَّ فعلتْ بك الآيات ، وكيف كنتَ بين خِطابٍ لنبيٍّ وقصة لنبيٍّ آخر؟!

– «طه ، ما أنزلنا عليكَ القرآن لتشقى» خطاب طمأنة! وكنتُ صاحب بلاغة لأعرف أن ما أنزلنا عليكَ القرآن لتشقى تعني أننا أنزلناه عليك لترتاح ، فعرفتُ وقتها كيف صبر النبي ﷺ وأصحابه على كل هذا العذاب الذي كِلناه لهم ، لقد كنا نُعذب أجسادهم معتقدين أننا إذا عذبنا الأجساد أعدنا القلوب والعقول إلى دين قريش ، ولكن في الحقيقة كانت تلك القلوب والعقول تُحلق في السماء فلا يثنيها العذاب قيد أنملة ، كنا نعتقد أننا بالجسد نملك الروح ، ولكنني انتبهتُ إلى أن الذي يملك روحه وقلبه لا يمكنك

أن تجعله يركع ولو ملكتَ جسده ، وهذا بالضبط ما فعله محمد ﷺ ، لقد حرر قلوبهم وأرواحهم حتى وهم عبيد وموالي ، فصغرت آلهة قريش في أعينهم وصغر معها ساداتها ، وعن الطمأنينة كنتُ أبحث ، فإذا بي أقع على ضالتي ، تركتنا آلهتنا القديمة المنحوتة من الحجر والخشب للحياة ، تفعل بنا ما تشاء ، أو نفعل بها ما نشاء ، ولكن الأمر الآن اختلف ، ربّ يريد أن لا تشقى ، ربٌّ حقيقي لم يكن كأصنامنا التي نحتناها ، وإنما ربٌّ أوجد كل شيء ، يحفل بنا ويريد أن لا نشقى ، فمن يترك هذا ليبقى على ذاك؟!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «إلا تذكرة لمن يخشى» هنا اتضح لديّ جفاء الشرك وقسوته ، ولين الإيمان ونعومته ، نحمل عليهم بالسياط لتأكل من ظهورهم ، ونلقيهم على رمال مكة الملتهبة لتكتوي جلودهم ، ثم لا يكون الخِطابُ اجلدوهم كما جلدوكم ، ولا اطرحوهم على الرمال كما طرحوكم ، وإنما «تذكرة» ، وعظ حسن ، وكلمة رقيقة ، وهذه كانت وظيفة النبي ﷺ ، كنا نعتقد أنه طالب مال ، فأردنا أن نجعله أكثرنا مالاً ويكفّ عنا ، ونعتقد أنه طالب نساء فأردنا أن نزوجه أجملِ نسائنا ويكف عنا ، وكنا نعتقد أنه طالب ملك فأردنا أن نجعله ملكًا علينا ويكف عنا ، وكنا نعتقد أنه طالب رياسة فأردنا أن نعطيه مفاتيح الكعبة فيكف عنا ، فاكتشفتُ أننا كنا في وادٍ وهو في وادٍ آخر ، إنه يُبلّغ ما أُمر به فقط ، فلا مفاتيح القلوب بيده ، ولا هدايةً من أحب قد أُعطيت له ، إنه رسول فقط ، رسول من بيده القلوب والهداية!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى» هنا أدركتُ

فاجعة الشرك ، وعرفتُ أية آلهة عاجزة كنا نعبد ، إنه الفرق بين الصانع والمصنوع ، نشتري العبد بأموالنا ، ثم نكِلُ إليه نحتَ إلهنا الذي نعبد! إله صنعه عبد! وهذا إله آخر ، إله حقيقي ، أوجد كل شيء ، وخلق كل شيء ، خلق الأرض التي عليها نعيش ، وخلق السماء التي تعلو رؤوسنا ، إنه الفرق بين الإله العاجز والإله القادر ، بين الإله المخلوق والإله الخالق ، عندها فقط تنتبه أن كل ما حولك لا بدّ له من صانع ، وأن هذه القطع من الحجارة أعجز من أن تخلق ، فكيف يُعبد مع الخالق مخلوق ، ومع الصانع مصنوع ، ومع القادر عاجز ، ومع الأبكم إله يقول لك : ما أريدك أن تشقى!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «الرحمن على العرش استوى» يخبرك أنه خلق السموات والأرض ، ثم لا يقول الجبار على العرش استوى ، ولا القوي على العرش استوى ، إنه الرحمن! الرحمن رغم أن العقاب بيده ، الرحمن رغم أنّ المرض بيده ، الرحمن رغم أن الرزق بيده ، الرحمن رغم أن الموت بيده ، على العرش ، بعيد المسافة ، وقريب الرحمة والعناية ، يريد أن يخبرك أنه معك رغم المسافة ، يريد أن يطمئنك لا أن يُخوفك ، يريد أن يُقربك لا أن يبعدك ، يريد أن تحبه أكثر مما يريد أن تخشاه!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى» غنيّ عنكَ ولكنه يريدك أن تأتيه ، كل ملائكة سماواته تتنفسُ بتسبيحه ولكنه لا يزهدُ بك ، يريد أن يهديك لأجلكَ لا لأجله ، كفرك لن ينقص من ملكه ذرة ، وإيمانك لن يزيد في ملكه ذرةً ، إنه طلب المستغني للمحتاج ، وطلب القوي للضعيف ،

وطلب القادر للعاجز ، وطلب الخالق للمخلوق ، أي رفعة بعد هذا؟ وأي رحمة؟!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى» هنا عرفتُ كيف انتشر هذا الأمر الذي بدأ برجل هبط يومًا من غار حراء كالنار في هشيم مكة ، ثمة ربٌّ مطلع على كل شيء ، ينظرُ إلى القلوب ، وكل قلب علم فيه خيرًا جاء به إلى نبيه ، هنا رأيتُ الأنساب تسقط ، وفخر الجاهلية يذوي ، علمتُ السبب أن جاء بلال باكرًا ، وتأخر أبو جهل وعُتبة ، إنها قصة قلوب لا قصة أجساد ، وقصة أرواح لا قصة أنساب ، وأن لله موازين غير تلك الموازين التي تزنُ بها قريش الناس! ثم انتبهتُ أن الخِطاب ليس وعيدًا كما يبدو في ظاهره ، فلم يكن يريد أن يقول لنبيه احذرني فإني أعرف سرك كما أعرف جهرك ، إنه خطاب طمأنة ، وتحبب ، أراد أن يقول له أنا معك في سرك كما في جهرك ، أُسددُ خطابك ، وأُصوبُ قلبك ، فإن سمعوا منك شحذتُ همتك ، وإن أعرضوا عنكَ ، واسيتُ قلبك كي لا تفتر ، أراد أن يقول له حتى وجعك الذي لا تنطق به أعلمه وسأداويه ، وحتى ضيقتك التي لا تبوح بها أعلمها وسأبددها!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «الله لا إله إلا هو ، له الأسماء الحسنى» هنا سقطتْ آلهة قريش بالضربة القاضية! لا يجتمع صنم منحوت ورب خالق في قلب واحد ، لا يستقيم أن تؤمن بها جميعًا ، لا يستقيم أن تعبد إله أبيك الخطاب وإله الصادق محمد ، الأمر لا يحتمل الشراكة ، وهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، لا يرتضي إلا توحيدًا كاملاً ، يريدك أن تخلع عن قلبك رداء الجاهلية ، لا يجتمع ظلمة ونور في قلبٍ واحد ،

كفر وإيمان في قلبٍ واحد ، إنه التفرد ، وإنها الوحدانية ، هبل تقبل بشراكة مناة ، واللات تقبل بشراكة العزى! هذا شأن الأصنام العاجزة ، ولكن الإله القادر لا يرتضي أن يكون معه في القلب أحد!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «هل أتاك حديث موسى»؟ يأخذ منك قلبكَ وسمعكَ وروحكَ ، يعلم أن حديث موسى ما جاءك من قبل ، وما سمعت به ، ولكنه أدب الربّ ، ولو قال : اسمع حديث موسى الذي لا تعرفه ، لصدقَ! ولو قال سأقص عليكَ قصة موسى التي تجهلها لصدقَ ، ولكنه بلطف وأدب وحنو يسألك : هل أتاك؟ ولأنه ما جاءني من قبلُ وما سمعتُ به أردتُ أن أنتقل إلى ما بعدها لأعرف ما هو حديث موسى ، ثم لماذا موسى بالذات هنا؟ ما الذي يجمع بين عمر بن الخطاب وموسى بن عمران ، لماذا أحسستُ وقتذاك كأن بيننا تشابه؟

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «إذا رأى نارًا فقال لأهله : امكثوا إني آنستُ نارًا ، لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى»! هذا هو المشترك بين عمر بن الخطاب وموسى بن عمران ، كلانا كان يبحث عن أمر الدنيا فكان أمرُ الآخرة يبحثُ عنه! يسيرُ موسى في الصحراء ليلاً فيرى نارًا فيأنس ، ولما جاءها وقع ما لم يكن بالحسبان ، خرج موسى طلبًا للنار فعاد حاملاً النور! وهذا ما حدث معي ، خرجتُ أريد أن أقتل محمدًا ، أي أنني خرجتُ في طلب النار! فعدتُ بالنور كما عاد موسى!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

- ثم «فلما أتاها نودي : يا موسى إني أنا ربك ، فاخلع نعليكَ إنكَ بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى»! ما أحلاها من كلمة : أنا اخترتك! هكذا عن دون ملايين الناس يختار الله موسى ويطلب منه أن يستمع لما سيوحيه إليه ، شعرتُ أني معنيّ بالخِطاب ، وكأن الكلام موجه لي وليس لموسى ، لقد اختارني أيضًا ، اختارني دونًا عن أهل دار النّدوة جميعًا ، جاء بي من بيتي إلى بيت أختي فاطمة كما جاء بموسى من مدين إلى الوادي المقدس ليسمعني وحيه ، كانت تلك أول لذة شعرتها ولم أكن أسلمتُ بعد ، وكما لم يحمل موسى لواء النبوة بعد ، ولكنها لذة الاختيار ، إن الذي اختار ليس أحد سادة قريش ليكلفني أمرًا من أمور القبيلة ، ولكن الذي اختار هو رب العالمين ليكلفني أمرًا من أمور الآخرة ، وقررتُ أن أرى لأي شيء اختارني وإن كنتُ لا أعلم بعد لماذا اختارني تحديدًا ، ولكني علمتُ فيما بعد أن الرجل الذي خرجتُ أريد أن أقتله كان يدعو ربه ليهديني!

- ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

- ثم «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» قبل قليل صرّح بربوبيته ، هو الخالق والمالك والقادر والمحيي والمميت ، وهذا اعتقاد لا يترتب عليه عمل ، ولكن العمل لا يصح دون الاعتقاد به! وها هو الآن يُصرِّح بألوهيته ، وتوحيد الألوهية هو الجانب العملي لتوحيد الربوبية ، هذا الخالق يريد أن يُعبد وحده ، لا يرضى أن يُشرك معه ملكٌ مقرب أو نبي مرسل أو صنم منحوت! ويريد أن تقيم له الصلاة ، أن تنتصب بين يديه ترفع يديك قائلاً «الله أكبر» تلقي الدنيا كلها وراء ظهرك ، هو أكبر من كل ما يُشغلك ، أكبر من كل من تخاف ، وأكبر من كل من تحب ،

أكبر من كل مرض وهَمّ ، أكبر من كل مالٍ وعافية ، ثم يتلو قلبكَ كلامه قبل لسانك ، ثم تركع لترتفع ، وتسجد لتسمو ، العبودية لله هي الحرية الوحيدة الحقة ، وكل عبودية لغيره قيد وسجن ومذلة ، وليس شرطًا أن تكون العبودية لغيره ركوعًا وسجودًا ، طاعة الظالم عبودية له ، وطاعة الشهوة عبودية لها!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم «إن السَّاعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدّنك عنها من لا يؤمن بها واتّبع هواه فتردى» هناك آخرة وحساب حيث تُنصب الموازين ، وتُنشر الدواوين ، وتُكشف السرائر ، وتنطق الجوارح ، وما هذه الدنيا إلا امتحان ، سعي مؤقت لحياة أبدية في الجنة أو في النار ، كل عظام بليت ستقام مرة أخرى ، وكل لحم فني سيُعاد مرةً أخرى ، لم يكن حقًا يوم اعتقدنا أنه لن يهلكنا إلا الدهر ، هذا الدهر ليس إلا عنصرًا من عناصر الامتحان ، مجرد سبب لا مُسبب ، ثم عرفتُ كيف صبروا على كل هذا العذاب ، كان ربهم يثبت قلوبهم في الطريق إليه قبل أن يثبت أقدامهم ، «فلا يصدنكَ عنها» كان يحذرهم منا ، ويعزيهم به ، ولهذا انتصروا رغم ضعفهم وهُزمنا رغم قوتنا!

– وماذا قلتَ بعد هذا يا أمير المؤمنين؟

– قلتُ : أَمِنْ هذا فرّت قريش؟! دلوني على محمد

– ماذا حدث بعدها؟

– خرجَ خباب بن الأرت لما سمع كلامي هذا ، وكان قد اختبأ خوفًا مني ، وقال لي : أبْشِر يا عمر ، فإني أرجو أن تكون أصابتك دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام ، وكانت تلك

المرة الثانية التي أسمع فيها بأمر هذا الدعاء .

- ثم ماذا فعلت؟

- انطلقتُ حتى أتيتُ دار الأرقم ، وعلى الباب حمزة وطلحة ، وكان حمزة قد أسلم منذ ثلاثة أيام ، فلما رآني القوم وجلوا ، فلما رأى حمزة وجلهم ، وكان رجلاً شجاعًا صنديدًا قال لهم : نعم هذا عمر ، فإن يُرد الله به خيرًا يُسلم ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينًا!

فطرقتُ الباب ، ففتحَ النبي ﷺ لي ، وأخذ بمجامع ثوبي ، وجذبني إليه جذبًا قويًا ، وقال : اللهم اهدِ عمر بن الخطاب ، اللهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب!

- فماذا قلتَ يا أمير المؤمنين؟

- قلتُ له : أشهدُ أنك رسول الله!

- ثم سمّاك رسول الله ﷺ بالفاروق ، فما سبب ذلك يا أمير المؤمنين؟

- ذلك أني فور إسلامي قلتُ له : يا رسول الله ألسنا على الحقِّ إن متنا وإن حيينا؟! فقال : والذي نفسي بيده ، إنكم على الحقَّ إن متم وإن حييتم!

فقلتُ : ففيم الاختباء؟! والذي بعثك بالحق لتخرجنّ إليهم! فخرجنا في صفّين ، حمزة في صفّ وأنا في صفٍّ ، فلما رأتنا قريش أصابها كآبة لم تصبها مثلها من قبل! فسماني رسول الله ﷺ الفاروق!

- وما فعلتَ بعدَ ذلك يا أمير المؤمنين؟

- أول ما فعلتُ بعد هذا أتيتُ أبا جهل بن هشام ، فطرقتُ عليه بابه ، فخرج إليّ فقال : مرحبًا بابن أختي ، ما جاء بك؟

فقلتُ : جئتُ أُخبركَ أني قد أسلمتُ واتبعتُ محمدًا! فضرب الباب في وجهي بعد أن قال : قبّحك الله وقبّح ما جئتَ به!

- ولِمَ فعلتَ هذا وأنتَ تعلمُ بما كان عليه أبو جهل؟

- قلتُ في نفسي إنه لا يليق بك يا عمر إلا أن تجهر بإسلامك كما جهرتَ بكفرك ، وقد قصدتُ أبا جهل لقرابتي به ، ولمعرفتي بعداوته للإسلام ، ولأن أبا جهل أغلق الباب ودخل ، سألتُ أي أهل مكة أنشرُ للحديث ، فقيل لي : جميل بن معمر ، ذاكَ رجلٌ لا يمكث في صدره سر ، فأتيته ، فقلتُ : يا جميل هل علمتَ أني أسلمتُ؟ فو اللهِ ما ردَّ عليَّ كلمة ، ولكنه قام من فوره وأنا أتبعه حتى أتى دار الندوة فصرخ بأعلى صوته : إن ابن الخطاب قد صبأ!

فقلتُ : كذبتَ ولكني أسلمتُ .

- وماذا فعل القوم لحظتذاك؟

- قاموا إليَّ يضربونني وأضربهم ، حتى جاء خالي أبو جهل وقال : أيها الناسُ قد أجرتُ ابنَ أختي فلا يمسه أحد! فانكشفوا عني

- وهل سرّكَ أن أجاركَ؟

- لا والله ما سرَّني ، وما كنتُ أحبُّ أن يفعل ، وإنه قد ساءني أن أرى المسلمين يُضربون ولا أُضرب!

- فماذا فعلتَ؟

- أتيتُ خالي وكان جالسًا عند الكعبة ، فقلتُ له : أتسمع؟

قال : أسمعُ!

فقلتُ : جواركَ مردود عليك!

فقال لي : لا تفعل!

فقلتُ له : قد فعلتُ!

فقال لي : أنتَ وشأنك!
فما زلتُ أُضربُ وأَضرِبُ حتى أظهر الله الإسلام .

– حدثني عن هجرتك يا أمير المؤمنين ، فقد سمعتُ أنه ما جهر بالهجرة أحدٌ غيرك .

– أما غيري فربٌّ النّاس أخبر بالناس ، ولكلٍ ظرفه وطبعه ، يتصرف بحسب ظرفه ، ويروح ويجيء بحسب طبعه ، فما الذي هاجر جهرًا خيرٌ ممن هاجر سرًا ، فقدُ هاجرتُ جهرًا وهاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر سرًا ، وأين أنا منهما .

– فاقصص عليّ خبر هجرتك يا أمير المؤمنين .

– لما هممتُ بالهجرة تقلدتُ سيفي ، وتنكبتُ قوسي ، وفي يدي سهام لي ، فقدمتُ الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطفتُ بها سبعًا ، ثم أتيتُ المقام فصليتُ ركعتين ، ثم ناديتُ عليهم قائلاً : شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه ، أو يؤتِمَ ولده ، أو يُرمِّل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي فإني مهاجر!

– وهل تبعكَ منهم من أحدٍ يا أمير المؤمنين؟

– لا ، لم يتبعني منهم أحد

– وهل مضيتَ إلى المدينة وحدك أم كان لك رفقة؟

– بل كان لي رفقة

– فمن هم؟

– اتفقتُ وعياش بن ربيعة ، وهشام بن العاص على أن نلتقي في موضع على مشارف مكة ، وقلنا أيُّنا لم يصبح في هذا الموضع فقد حُبس ، فليمضِ صاحباه ، فأصبحتُ أنا وعياش بن ربيعة ، وحُبس عنّا هشام ، فتركناه ومضينا!

– فما خبر عودة عياش بن ربيعة إلى مكة بعد وصوله إلى المدينة؟

– لما وصلنا المدينة ، نزلنا في بني عمرو بن عوف عند قباء ، فخرج خالاي : أبو جهل والحارث ابنا هشام إلى عيّاش ، وكان أخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا في المدينة ورسول الله ﷺ يومذاك بمكة لم يُهاجر بعد ، فكلماه وقالا له : إنّ أمكَ قد نذرت أن لا يمسّ شعرها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرقّ قلبه لها .

– وماذا فعلتَ أنتَ؟

– قلتُ له : يا عياش ، والله إن القوم يريدونك ليفتنوكَ عن دينكَ ، وإن أمكَ لو آذى القملُ رأَسها لامتشطتْ ، ولو اشتدّ عليها حرّ مكة لاستظلتْ .

– فماذا فعل عياش؟

– قال لي : لا بأس بالرجوع معهما ، أبرُّ قسم أمي ، ولي هناك مالٌ آخذه وأرجع إليكَ .

– فما قلتَ له؟

– قلتُ له : واللهِ إنكَ لتعلم أني من أكثر قريش مالاً ، فلكَ نصف مالي ولا ترجع معهما

– وهل أجابكَ في عرضكَ هذا؟

– أبى أن يجيبني

– فماذا فعلتَ؟

– لما علمتُ أنه عازم على الرجوع معهما قلتُ له : أما إنكَ قد رأيتَ أن ترجع إلى مكة ، فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابكَ من القوم ريب ، فانجُ عليها .

– وماذا حدث بعدها؟

– خرج معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق

قال له أبو جهل : يا أخي ، لقد استغلظتُ بعيري هذا ، فهلا تركبني خلفك؟

فقال له عياش : أفعلُ!

فأناخ ناقته ليركبَ أبو جهل خلفه ، فلما استوى بالأرض ، وثبا عليه ، وأوثقاه ، ودخلا به مكة مقيدًا ، وقالا للناس : يا أهل مكة ، كما فعلنا بسفيهنا هذا فافعلوا بسفهائكم!

– فما أدراك أن أبا جهل والحارث أرادا بأخيهما لأمهما شرًا؟

– يا بُني ، من لا يرى من الأمور إلا ما تريه له عيناه فهو أعمى! وفي حياتي كلها لم أكن خبًا ولم أكن لأسمح لخبٍ أن يخدعني ، لهذا لم تنطلِ عليّ خدعة أبي جهل وهشام ، ولقد علمتُ أنه لو كان في عودة عياش لمكة خيرًا له لما خرج أبو جهل في طلبه ، ولكن الرجل خالي وأنا أعلم الناس به ، ما أراد إلا أن يفتنه عن دينه ، فأبو جهل عاش على هذا ، وعليه مات .

– وماذا لو أن أم عياش كانت قد أقسمت فعلاً على ما أخبراه به؟!

– واللهِ لئن علمتُ صدق حديثهما ما كان رأيي ليتغير ، فإن برّ الإنسانَ بربه مقدم على بره بوالديه ، ولو أنَّ أبي الخطاب أقسم على ما أقسمتْ به أم عياش ما عدتُ إلى مكة ليبرّ بقسمه! ثم إن القرآن كان قد ربَّانا من قبل على أن يكون حقّ الله فوق كل حق ، ورضاه قبل كل رضا ، ثم لم تكن هذه المرة الأولى التي يخيّر أحدنا بين أمه وربه!

- ومتى حدثت المرة الأولى ، ومع من؟!

- أما مع من ، فمع سعد بن أبي وقاص خال رسول الله ﷺ ، وأما القصة ، فقد كان سعد من أوائل من أسلم ، وكان إسلامه قبل أن تُفرض الصلاة ، أسلم وهو ابن سبعة عشرة سنة ، وكان إسلامه بعد دعوة أبي بكر رضي الله عنه له ، وكانت أم سعد مُعارضة لإسلامه ، وكان شديد البر بها ، فهددته أن لا تأكل ولا تشرب ، فبدا عليها الجهد والتعب ، فقال لها سعد : يا أماه ، واللهِ لو كانت لكِ ألف نفسٍ ، فخرجت نفسًا نفسًا ، ما تركتُ ديني! فلماَ يئست منه أَكلت وشربت ، فأنزل الله تعالى قوله : «وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لكَ به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون» .

- فلماذا عرضت على عياش نصف مالك؟ أما كان يكفي أن تنصحه؟

- إن النصح صدقة ، ولكن ما ضرني لو اشتريتُ دين أخي بنصف مالي ، المال يا بني عجلة الحياة ولكنه ليس الحياة ، وفرق كبير بين أن تملك المال وبين أن يملكك ، المال خادم جيد ولكنه سيّد سيء ، فإياك أن تجعله لكَ سيدًا وقد جعله الله بين يديكَ خادمًا!

- ونعمَ النصيحة يا أمير المؤمنين ، ولو وعاها الناسُ جميعًا لأراحوا واستراحوا .

- يا بنيّ ما كان للناس أن يكونوا في أمر واحدٍ على إيمان واحد ورأي واحد وتصرف واحد ، إنهم وإن تشابهوا في الأجسام فقد اختلفوا في العقول والقلوب

- ما أرى إلا أن الله قد وضعَ الحقّ على لسانكَ وقلبك ، فأخبرني لماذا يختلف الناس؟

- هذا راجع إلى أصل خلقتهم
- وكيف هذا يا أمير المؤمنين؟
- إن الله خلقَ آدم عليه السلام من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على هيئة تراب الأرض ، منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، ومنهم الخبيث والسهل وبين ذلك .
- ألهذا تشابهتَ أنت وأبو بكر في الإيمان واختلفتما في الطبع؟!
- أبو بكر رجل لا يشبهه في إيمانه وفي طبعه أحد ، رجل صلبٌ في إيمانه كأنه جبل ، ورقيق في قلبه كأنه أُم .
- كأنكَ تريد أن تقول أن كلاكما قد خُلق من طينة ، فلما اختلفت الطينة اختلف الطبع؟
- أجل ، وما أحسبه إلا قد خُلق من تراب حقل معطاء ، ينبت بكرم ، ويعطي بسخاء ، لا يحبسُ زرعًا ولا يمنع خيرًا ، سهل عبوره ، يسير حرثه ، وما أحسبني إلا خُلقت من تراب جبل خصيب ، يعطي بسخاء ، ويمنح بكرم ، ولكنه صلب ، وهكذا كنا أنا وهو ، فيه كرم السهول ولينها ، وفيَّ كرم السفوح وشدتها ، وهكذا الناس جميعًا حتى الأنبياء!
- حتى الأنبياء يا أمير المؤمنين؟
- سأخبرك كيف هذا ، وأضربُ لك مثلاً ، فبالأمثال تُقرب المعاني ، ويسهل الفهم .
- ليتك تفعل ، شوقتني ، وكلي آذان صاغية
- لمّا كان يوم بدر ، ومنّ اللهُ علينا بالنصر ، أسرنا من قريش رجالاً ، ولم يكن بين يدي النبي ﷺ نصٌ في الأسرى ، فجمعنا ليستشيرنا في أمرهم وقال : ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟

فـقـال أبو بـكر : يا رسـول الله ، إنـهم قـومك وأهلك ، واسـبـقـهم واستتبهم لعلّ الله أن يتوب عليهم!

وقلتُ أنا : يا رسـول الله ، إنـهم كـذبوك وأخـرجـوك فـاضـرب أعناقهم!

فقام رسول الله ﷺ ، ودخل خيـمتـه دون أن ينطق بكلمة ، فجعل بعض الناس يقولون يأخذ برأي أبي بكر ، وبعضهم يقول يأخذ برأي عمر . . . حتى خرج علينا وقال : إن الله عزّ وجل ليلين قلوب رجالٍ فيه حتى تكون ألينَ من اللين ، وإنَّ الله ليشدد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة ، وإنّ مثلكَ يا أبا بكر مثل إبراهيم إذ قال : «فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك أنت الغفور الرحيم» ومثلكَ يا أبا بكر مثل عيسى ابن مريم إذ قال : «إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنكَ أنتَ العزيز الحكيم»! وإن مـثلك يا عـمـر مـثل نوح إذ قـال : «ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا» ومثلك يا عُمر مثل موسى إذ قال : «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»!

أرأيتَ يا بنيّ كيف يجمع الإيمان الناس وتفرقهم الطباع؟!

– رأيتُ يا أمير المؤمنين ، وما أحسبُ الناس تختلف أحكامهم ومواقفهم إلا لأن طباعهم اختلفتْ وإن تشابهت معتقداتهم .

– صـدقتَ ، وليس الأمر في الدين فقط ، ولكنه في الدنيا كذلك ، جرّب أن تخبر أشخاصًا كلّ على حدة أنّ امرأتكَ رفعت صوتها في وجهك ، وانظر كيف تختلف أحكامهم ، ونظرتهم للأمور ، عندها فقط تعرف من أية طينة جُبلوا!

سيقول أحدهم : أنتَ المسؤول عن هذا ، إن كثرة الدلال تُفسد النساء ، ولو أنكَ كنتَ حازمًا معها من أول أمرك لما كان منها ما كان!

فاعرف أنّ هذا قد خُلق من تربة قاسية شديدة

وسيقول لك آخر : المرأة سريعة الغضب بطبعها ، ولو أنكَ نظرتَ إلى ما يُغضبها منكَ فتحاشيت فعله فسترى كيف يتبدل حالها ، ثم إن كل النساء كذلك ، وكل البيوت على هذا ، يوم وفاق ويوم شقاق ، فامسك عليك امرأتك ، ولا تفسد حياتك لموقف عابر قد يتغير غدًا!

فاعلم أن هذا قد خُلق من تراب كريم خصيب يعطي ولا يأخذ!

وسيقول لك آخر : لا تكن صلبًا فتُكسر ولا لينًا فتُعصر ، كُن حازمًا وامسك زمام بيتكَ ، ولا تعطها مساحة أكثر من ما يجب ، وفي المقابل لا تنسَ أنها إنسان ، ولا يوجد إنسان إلا وينفد صبره ويخرج عن طوره ، فأدبها ولا تكسرها!

فاعلم أن هذا قد خُلق من تربة بين التربتين السابقتين!

وجرب أن تخبر أشخاصًا آخرين كل على حدة أن أخاك قد حرمكَ نصيبك من الميراث ، وسله أن يرشدك ماذا تفعل . . .

ستجد أحدهم يقول لك : إن المال يعادل الروح ، فلا تنزل له عن حقك ، خُذ حقك بيدك ، فلو علم أخوك أنّ لك بأسًا ما تجرأ عليكَ ، فأره منك ما ظنه ليس فيك!

فاعلم على الفور أنّ هذا قد خُلق من تربة تأخذ ولا تعطي ، ومصلحتها فوق أي اعتبار . . .

وسيقول لك الثاني : كن كخير ابني آدم عليه السلام إذ قال لأخيه : «لئن بسطت إليّ يدكَ لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليكَ لأقتلك»!

الدنيا دار عبور لا دار قرار ، وسنذهب جميعًا بأعمالنا لا بأموالنا ، فلا يُحاسب الله فقيرًا على فقره ولا يجزي غنيًا على غناه ، واحمد الله أنك المظلوم لا الظالم!

فاعلم أن هذا قد خُلق من تربة هي أكرم تراب أهل الأرض ، تربة في الظاهر هي في الدنيا ، ولكنها في الحقيقة هي في الآخرة . . .

وستجد الثالث يقول لك : لا تنزل عن حقك ولا تخسر أخاك ، حاول أن تظفر بالأمرين معًا ، اذهب إليه وكلمه ، ذكره بحقِّ الأخوة والرحم التي بينكما ، وخوفه بالله ، فإن أجاب أخذتَ حقك ولم تخسر أخاك ، وإن أبى ، فاذهب إلى القاضي ، ولا بأس أن تأخذ حقكَ وإن خسرتَ أخاك!

فاعلم أن هذا قد خُلق من طينة بين الطينتين وأوتي فوقها بعض الحكمة وحسن الإقناع!

– واللهِ إن الأمر لا يعدو ما قلتَ ، ولكني سائلك عن أمور جمعتكَ معَ أبي بكر ، فلم أكتفِ من حديثك عنه ، وقد أحببتُ أن أراه بعينيك ، كما أني أشعرُ أنَ لهذه الأمور علاقة بالطباع ، وقد راق لي كثيرًا فهمكَ لها ، وأعجبني ربطك الأشياء ببعضها ، فاحتمل فضولي يا أمير المؤمنين .

– سل ما بدا لك يا بنيّ .

– الفارق بينك وبين أبي بكر كان فارقًا في الطبع لا فارقًا في الإيمان ، تمامًا كما كان الفارق بين نوح وموسى من جهة وعيسى وإبراهيم عليهم السّلام من جهة أخرى ، فارقًا في الطبع لا فارقًا في الإيمان ، فهل كان أبو بكر لينًا سهلاً في كل أحواله ، أكان لا يعرفُ إلى الشدة سبيلاً ، وإلى الغلظة طريقًا؟

– وإن لم تصح المقارنة بين الأنبياء في الإيمان ، إلا أنّ أبا بكر لا يعدله في إيمانه أحد ، والله كان رجلاً أعلى من الناس درجة وأقل من الأنبياء درجة ، فلا أدركته أنا ولا أدركه غيري ، أما فيما يتعلق بطبع أبي بكر اللين السهل القريب ، فقد صحبه هذا الطبع حتى وفاته فكان أرحم الناس بالناس ، ولكنه إذا احتاج الأمر لعزم وحزم وشدة ، انقلبَ ذاك العطوف إلى أسد هصور ، يحزم إذ نخور ، ويشتد إذ نلين ، ويمضي إذ نتريث ، ولقد كانت فترة خلافته كاشفة لجزء من شخصيته ما كنا نحسبها عنده .

– وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟

– سأخبرك ، وسأضرب لك الخبرُ مثلاً وموقفًا ، فالمواقف أصدق خبر . . . يوم مات رسول الله ﷺ ، هاج الناس وماجوا ، فقد كان المصاب جللاً والخطب شديدًا ، وما احتملتُ يومذاك الخبر ، فارتفع صوتي في المسجد نافيًا وفاة رسول الله ﷺ ، وأقولُ للناس أن النبي ما مات ، وأنه ذهب لميقات ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام من قبل ، وأنه سيعود ليقطع ألسنةً قالت أنه مات ، فقدم أبو بكر من منزله ، ودخل المسجد وما كلّم أحدًا حتى دخل حجرة أم المؤمنين عائشة ، فقبّل رسول الله ﷺ

وقال له : ما أطيبك حيًا وميتًا

ثم خرج إلينا وأنا على الحال التي ذكرتُ لك . . .

فقال لي : اجلس يا عمر

ثم نادى بأعلى صوته : أيها الناس من كان يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت! ثم تلا : «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين»!

فلمـا انتـهى أبو بكـر من تلاوتهـا ، فكأني لـم أسـمع بالآية من قبل ، فعلمتُ أن رسول الله ﷺ قد مات حقًا!

هنا بدت شخصية أبي بكر الحقيقية ، وظهر أن اللين لا يتنافى مع الثبـات ، وأن الرأفـة لا تتنافى مع قـوة التـحمـل ، وأنكَ لو نظرتَ إلى طبـعينا لقلتَ أنّ أبا بكـر كـان يناسـبه مـوقـفي ، ومـوقـفه كـان أقـرب لطبعي ، ولكن عمر الحازم انهار ، وأبو بكر الحنون صار عند الجزع جبلاً من صبر ، إن المواقف تكشف طباع النـاس ، فمن الناس من تعتقد فيه الشدة فيفاجئك إذ يلين ، ومن الناس من تعتقد فيه اللين فيفاجئك إذ يشتد ، وهكذا كان أبو بكر ، شخصية متكاملة ، حيث يقتضي اللين فهو ألين الناس ، وحيث يقتضي الثبات فهو أثبت الناس!

– رحم الله أبا بكر ، كان شخصية متكاملة فعلاً!

– واللهِ لقد كان كذلك .

– إني واللهِ لأكبركَ يا أمير المؤمنين ، وما حديثك بهذه الطريقة عنه إلا ويكشف معدنك النقي الأصيل .

– يا بُنيّ ، لا يحـفظ الفـضل لأهل الفـضل إلا أهل الفـضل ، وإن انتقاص قدر الكريم لا يجعل المرء كريمًا ، إن الكريم من دلّ الناس على من هو أكرم منه!

– فهل له حـادثة أخرى كـان خليـقًا لمن كـان في طبـعه اللين ، وقلبه الرؤوم ، أن يلين فإذا هو يشتد ، وأن يُحجم فإذا هو يُقدم .

– له واللهِ حوادث ما لانَ فيها ولو عُرضت على الجبال يومذاك للانتْ ، ولكنه أبو بكر ، الرجلُ الذي يقف كـمـا يجب أن يقف ، ويقضي كما يجب أن يقضي .

– حدثني يا أمير المؤمنين .

– لما توفي رسـول الله ﷺ ، وآلت الخـلافـة إلى أبي بكر ، انقسم العربُ إلى ثلاثة أقسام ، قسم بقي على إيمانه الذي كان عليه ، وقسم عاد سيرته الأولى إلى دين الآباء والأجداد ، وقسم بقي على إسلامه ولكنه رفض أن يدفع إلى أبي بكر الزكاة التي كان يؤديها إلى رسول الله ﷺ ، فجمعنا أبو بكر للشورى علّنا نرى رأيًا فيما صارت إليه الحال ، فكان أغلب الصحابة وأنا معهم يرون أن يترك أبو بكر مانعي الزكاة ، ويتألفهم ، حتى يرجع الإيمان في قلوبهم كما كان ، ثم إذا اشتد الإيمان في قلوبهم ، هانت الأموال في أعينهم ، فدفعوا الزكاة التي كانوا يدفعونها ، ولكن أبا بكر رفض هذا الرأي ، وعزم على قتالهم ، وكما ترى فإن موقف أبي بكر الحازم هذا بخلاف طبعه الرقيق ، وموقفي اللين بخلاف طبعي الحازم ، ولكننا تبادلنا الأدوار ، لانَ عمر الحازم ، واشتدَّ أبو بكر الرقيق .

– وماذا فعلتَ أنتَ؟

– ما زلتُ أراجعه ، وأطلبُ منه ألا يقاتلهم ، وقلت له : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عصم مني ماله ونفسه إلا بحق الإسلام وحسابه على الله .

– وماذا كان جوابه؟

– قال لي : واللهِ لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وواللهِ لو منعوني عقال بعيرٍ كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه .

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– ما زلتُ أراجعه وأجادله وأنا أريد أن أحقن الدماء ، حتى أخذ بثوبي وقال لي : يا ابن الخطاب ، أجبَّار في الجاهلية ، خوَّار في الإسلام؟!

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– شرح الله صدري لما شرح له صدر أبي بكر من قبل ، وعلمتُ أنه الحق ، وأن إيمان أبي بكر يومذاك رجح بإيمان الأمة جميعًا .

– إذًا كان الصواب رأي أبي بكر

– أجل كان رأيه الصواب ، وهو الرأي الذي تمليه طبيعة الموقف ، وأي موقف غيره لكان الفشل والضياع والهزيمة ، ولولا الله ثم هذا الرأي من أبي بكر لتغيّر وجه التاريخ ، وتحولت مسيرته ، ورجعت عقارب الساعة القهقرى ، ولعادت الجاهلية تعيثُ في الأرض فسادًا ، لقد تجلى فهمه الدقيق للإسلام ، وشدة غيرته على هذا الدين ، وبقاؤه على الحال الذي كان في عهد رسول الله ﷺ ، كان الموقف الذي لا هوادة فيه ولا تنازل ، موقفًا ملهمًا من الله يرجع إليه الفضل الأكبر بعد الله سبحانه في سلامة هذا الدين وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته ، وقد أقرّ الجميع وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد وقف في مواجهة الردة الطاغية ، ومحاولة نقض عرى الإسلام عروة عروة ، موقفًا اقتدى به بالأنبياء في عصورهم .

– بقي أن أسألك عن أمرِ جمعكَ مع أبي بكر يا أمير المؤمنين ، وإذ أجد أنه لا يمكن أن أقفزَ عنه قبل أن أسمعه منك ، ثم أتفرغ لأسمع منكَ عنك!

– وما هو يا بنيّ؟

– خبر السقيفة وبيعة أبي بكر ، ما الذي حدث يومها ، وكيف آلت الخلافة إلى أبي بكر؟

– عندما توفي رسول الله ﷺ ، انشغل أهل بيته بتكفينه وتجهيزه ، وكنتُ وأبو بكر في المسجد حين جاءني من يخبرني

أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليختاروا منهم خليفة للمسلمين ، ولأنه أمرٌ لا يجب أن يُقطع به دوننا ، ناديتُ على أبي بكر وأخبرته بخبر الأنصار ، وقررنا أن نذهب إليهم في السقيفة فننظر هذا الأمر الذي اجتمعوا له . . .

فقلتُ لأبي بكر : يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار ، فانطلقنا نريدهم ، ولما صرنا على مقربة منهم لقِيَنَا منهم رجلان صالحان ، فذكرا لنا ما اتفق عليه القوم ، وقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين؟

فقلنا : نريد إخواننا من الأنصار

فقالا : لا ، عليكم أن لا تقربوهم ، اقضوا أمركم

فقلتُ : واللهِ لنأتينهم

فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا رجل مزمِّل بدثار بينهم . . .

فقلتُ : من هذا؟

فقيل : أنه سعد بن عبادة

فقلتُ : ما به؟

قالوا : يوعك

فلما جلسنا قليلاً ، قام خطيبهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر المهاجرين رهط ، والأمر إلينا ، نحن أهل المدينة . فأردتُ أن أتكلم ، وكنتُ قد هيأتُ كلامًا لأقوله

فقال لي أبو بكر : على رسلك يا عمر .

فكرهتُ أن أخالفه فسكتُّ ، فقام أبو بكر فتكلم ، وواللهِ ما ترك كلمة في صدري كنتُ أريد أن أقولها إلا قالها ،

ثم أردف قائلاً : ما ذكرتُ فيكم من خير معشر الأنصار فأنتم والله أهله ، وخير منه ، ولكن هذا الأمر لقريش ، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا ، ورسول الله ﷺ مهاجر ، وخليفته مهاجر ، وإني قد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين ، فأيهما شئتم فبايعوا ، فأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا ، فلم أكره مما قال أبو بكر يومذاك غيرها!

فقلتُ : واللهِ لأن أتقدم فتضرب عنقي أحبُّ إليّ من أن أتقدم أبا بكر .

فقام قائل من الأنصار وقال : منا أمير ومنكم أمير!

فقمتُ فقلتُ : هذا واللهِ أول الوهن وأول الفرقة ، بل الأمر في رجل واحد ، وقد كنتَ حاضرًا يا سعد بن عبادة يوم قال رسول الله ﷺ : نحن قريش ولاة هذا الأمر ، منا الأمراء ومنكم الوزراء ، وواللهِ لقد كان سعد بن عبادة وقافًا عند الحق ، فما ردَّ كلمة ، وإنما انتظر ما يكون . . .

فقال لي أبو بكر : ابسط يدكَ يا عمر نبايعكَ

فقلتُ له : أنتَ أفضل مني

فقال لي : أنتَ أقوى مني!

فقلتُ : إن قوتي لكَ مع فضلكَ ، لا ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقكَ يا أبا بكر ، أنتَ صاحب الغارِ مع رسول الله وثاني اثنين ، وأمَّركَ رسول الله حين اشتكى فصليتَ بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر . ثم أخذتُ بيده فبايعته ، ثم قام إليه أهل السقيفة فبايعوه ، ولما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر ، فقمتُ بين يديه .

فـقلـتُ : أيهـا الـناس إنّ الله قـد جـمع أمـركـم على خـيـركم ، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وأولى الناس بأموركم ، فقوموا فبايعوا ، فقام الناس فبايعوه .

– هذا مـا حـدث إذاً يوم السـقـيـفـة . فلمـاذا لـم ينتظر الأنصار فراغكم من دفن رسول الله ﷺ حتى يقطعوا بأمر الخلافة؟

– ما اجـتمع الأنصار في سقـيفة بني ساعدة يريدون الإمارة للدنيـا ، ولكـنهم كـانوا يعرفـون أن هذا الأمـر لا بد له من رأس ، وإن الناس لا تسـتـقـيم إلا بأمير يقضي في أمرها ، ويفصل فيـمـا نزل فيـها ، وإن كـانوا قـد تعجلوا ، فـهذا طبع الإنسـان ، وقد قـال ربنا في كتابه : «خُلق الإنسان من عجل»! ولكن الحق فيما سألتَ عنه هو من الأهمية بمكان أن لا يُقطع فيه إلا بحضورنا ، ولكن قدّر الله وما شاء فعل .

– لماذا رأوا أنهم أحق بالأمر منكم؟

– لقـد نظروا في الأمـر من جـهـتـهـم ، هم أهل المدينة ونحن ضيوفها ، وإن كان الإسـلام قد آخى بيننا ، وأذاب أحساب الجاهلية وأنسابها ، فإنّ صاحب الدار يبقى صاحب الدار ، وإنهم ما أرادوها لأنفسهم عن نظرة منهم أنهم أفضل منا معشر المهاجرين ، ولكنهم رأوا أنـهم أحق بهـا منا لأنـهم أهل المدينة وأمـرهم يجب أن يكون بينهم ، فلمـا ذكّـرناهم قـول رسـول الله ﷺ أننا قـريش ولاة هذا الأمر ، وقفوا على الحق إذ تبين لهـم ، فرحِمَ الله الأنصار ، كانوا أول من نصر ، وأول من بايع ، ما نصروا لـدنيا ، وما بايعـوا عن ضعف ، ولكنهم في نصرتهم وبيعتهم أرادوا وجه الله .

– فلمـاذا لـم تقبل الخلافة لنفسك حين قال لكَ أبو بكر ابسط يدك نبايعك؟

– لأنّ أبا بكر أفضل مني ، وأحق بهذا الأمر منا جميعًا ، كان أول من أسلم من الرجال ، وكان صاحب رسول الله ﷺ في هجرته ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، ومستودع سرِّ رسول الله ﷺ ، وصحيح أن النبي ما أوصى بالخلافة له ، إلا أنه يوم مرض أمرَ أبا بكر أن يؤم الناس في الصلاة ، فكيف تطيب نفسي أن أتقدم أبا بكر ، واللهِ كانت لا تليق إلا به ، وكان جديرًا بها .

– فلماذا قال لك : أنتَ أقوى مني؟

– كان أبو بكر في الحادية والستين من عمره يومذاك ، وهو على سنه هذه ، كان كما أخبرتك ، هينًا لينًا سهلاً قريبًا ، وكان يعرف أن الخلافة عبء ، وأنها تكليف لا تشريف ، فخاف من ورعه أن لا يقوم بحقها وهو بهذا العمر وهذا الطبع ، هذا هو أبو بكر الزاهد بكل شيء حتى في الإمارة التي تتطاول إليها الأعناق ، كان واللهِ رجلاً لله ، عاش لله ، وماتَ لله .

– فلماذا قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير؟

– هذا يرجع برأيي إلى سببين ، الأول أخبرتكَ به ، أنهم يرون أنهم أهل الديار ، والثاني أن من عادة العرب أن لا يلي أمر القبيلة إلا رجل منها مهما بلغ الآخرُ من الفضل والسَّبق ، والناس على ما اعتادت فلما ذكرناهم أن الإسلام هدم أعراف الجاهلية وعاداتها ، كانوا أنصارًا لأبي بكر كما كانوا في عهد رسول الله ﷺ ، قاتلوا معه ، ونزلوا على أمره ، سمعوا كلمته وعملوا بها ، وما تخلف منهم أحد ، رحمهم الله كانوا قومًا إذا ذُكروا ذَكروا .

– وكيف آلت الخلافة إليكَ؟

– آلتْ الخلافة إليّ بوصية أبي بكر لي أن أخلُفَه على النّاس

– وهل تنعقد الخلافة بوصية الخليفة يا أمير المؤمنين؟

– الخلافة عقد بيعة بين الحاكم والرّعية ، يتعهد فيها الخليفة أن يقيم أمر الله وحكمه في الناس ، ويرعى شؤونهم ومصالحهم ، ويقسم أموالهم بينهم ، ويسهر على راحتهم ، ويحكم بينهم بالعدل ، ويجهز الجيوش للدفاع عنهم ، وتلتزم الرّعية بالسمع والطاعة بالمعروف في المنشط والمكره ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، لهذا فإن خلافتي لم تنعقد بوصية أبي بكر ، وإنما انعقدت برضا الناس لهذه الوصية وبيعتهم لي عن حُبّ ورضا!

– وهل فاتحك أبو بكر بعزمه على توليتكَ على الناس بعده؟

– لم يفاتحني أبو بكر بما عزم عليه بادئ الأمر ، بل إنه فكر ودبّر ، واستشار واستخار ، ثم رأى لحسن ظنه بي أن يجعلها عندي!

– فماذا فعل قبل أن يُطلعك على الأمر؟

– مرض أبو بكر قبل وفاته بخمسة عشر يومًا ، ولما أحسّ بدنوّ أجله ، دعا إليه عبدالرحمن بن عوف . . .

ثم قال له : أخبرني عن عمر بن الخطاب؟!

فقال له عبدالرحمن بن عوف : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني!

فقال أبو بكر : وإن يكن ، فإني أحبّ أن أسمع منك

فقال له عبدالرحمن : هو واللهِ أفضل من رأيكَ فيه!

ثم دعا عثمان بن عفان وقال له : أخبرني عن عمر بن الخطاب

فقال عثمان : أنتَ أخبرنا به!

فقال : وإن يكن ، فإني أحب أن أسمع منك

فقال عثمان : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته

فقال أبو بكر : يرحمك الله ، واللهِ لو تركته ما عدوتك

– ماذا قصد أبو بكر بقوله هذا؟

– يقصد أن عثمان بن عفان أهل للخلافة ، وأنه لو ترك جعل أمر الخلافة إليّ لجعلها عنده .

– وهل اكتفى أبو بكر بمشورة عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان؟

– لم يكتفِ ، وإنما أراد أن يستشير جمعًا أكبر من المهاجرين والأنصار فدعا إليه جماعة منهم ، فيهم سعيد بن زيد وأُسيد بن حُضير

وقال لهم : ما تقولون في عمر بن الخطاب؟

فقال أُسيد : خير الناس بعدك ، يرضى للرضا ، ويسخط للسخط ، وإن الذي يُسرُّ هو خير من الذي يُعلنُ ، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه .

– وماذا قال البقية؟

– ما زادوا على ما قال أُسيد

– وهل رضي الجميع برأي أبي بكر ، وكان موقفهم ورأيهم فيك كرأي عبدالرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وأُسيد بن حُضير ومن كان معه؟

– لم يكن الناس يومًا على رأي واحد في أمر ما ، فلكل وجهة نظر يقيس بها الأمور ، وقد رآني بعض المهاجرين والأنصار شديدًا في عهد رسول الله ﷺ ، وفي عهد أبي بكر ، فكأنهم قالوا : إن كان عمر شديدًا في حياة صاحبيه والأمر ليس إليه ، فكيف يكون وقد صار الأمرُ إليه؟!

– وما فعلوا؟

– دخلوا على أبي بكر قبل يومين من وفاته ، وقال له قائل منهم : ما أنتَ قائل لربك إذا سألكَ عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟

– فقال أبو بكر : أجلِسُوني . . .

وكـان من قـبل نائمًـا لما نزل به من مـرض ، ثـم قـال : أبالله تخوفوني؟ خاب من تزوّد من أمركم بظلم ، أقول : اللهم استخلفتُ عليهم خير أهلك! فأبلغ عني ما قلتُ!

– وهل وجـدتَ في صدركَ شيـئًا من هذا بعد أن وصل الخبر إليكَ؟

– يا بنيّ ما كنتُ للخلافة طالبًا حتى أغضبُ ممن لم يرني أهلاً لها ، واللهِ إنهم حاولوا أن يمنعوني أمرًا كنتُ أهرب منه ، ولو كنتُ أريدها لأخذتها يوم قال لي أبو بكر في السقيفة : ابسط يدك يا عمر نبايعك ، ثم ما كان لي أن أحقد على مسلم قال فيّ رأيًا ، وأنا القائل فيهم بعد أن وليتُ عليهم : رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي ، فإن كان هذا مني وأنا عليهم أمير أفيكون مني غيره وأنا واحد منهم؟!

– ولكنك رفضتها يوم السقيفة لأنك كنت ترى أبو بكر أحقَّ بها منك

– لئن كنتُ رفضتها يوم السقيفة لأني رأيتُ أن أبا بكر أحق بها مني ، فهذا لا يعني أني راغب بها وقد مات أبو بكر ، وإن من الورع أن يزهد الرجل في أمر له فيه حق مخافة أن لا يقوم به ، وإني واللهِ كنتُ بها زاهدًا لأني كنتُ أخاف أن لا أقوم بحقها!

– وماذا حدث بعد هذا؟

– دعا أبو بكر عثمان بن عفان مرةً أخرى فقال له اكتب

فقال عثمان : ما أكتب؟

فقـال أبـو بكر : اكتـب : بسـم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها ،

وعند أول عـهـده بالآخـرة داخـلاً فيـهـا ، حـيثُ يؤمن الكافـر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفتُ عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا ، فإن عدل فذلك ظني فيه وعلمي به ، وإن بدّل فلكل امرئ ما كسب من الإثم! والخيرُ أردتُ ، ولا أعلمُ الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب يتقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم أمر بالكتاب فختمه!

– ثم ماذا حدث بعد هذا؟

– أمر أبو بكر عثمان بن عفان أن يخرج بالكتاب ويسأل الناس أن يرضوا بما فيه ، فخرج عثمان وقال للناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟

فقالوا جميعًا : رضينا . . .

ففتح عثمان الكتاب وقرأه على الناس فبايعوني وهكذا آل الأمر إليَّ .

– إذًا لم يُحدّثك أبو بكر بأمر الخلافة من قبل الكتاب الذي أملاه على عثمان وبايعك الناس عليه ، ولا من بعده؟

– أما من قبل فلم يفعل ، وأما من بعد أن رضيَ الناس بي ، دخلتُ عليه وقلت له : ليس لي فيها حاجة يا أبا بكر!

فقال لي : ولكن لها بك حاجة يا ابن الخطاب!

– وماذا عنى بقوله هذا؟

– أراد أن يقول لي أني لم أعقد البيعة لكَ لأني علمتُ أن لكَ بها حاجة ، وإنما جعلتها عندك لأن ظني بك أنك أقدر الناس على أن تقوم بها ، عمومًا هذا هو أبو بكر ، لا يُعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ،

ولمعرفتي بهذا هان أمر الخلافة المهول عندي ، وعزمتُ أن أسير في الناس سيرة صاحبيّ ، وقد كانا لا يُجاريان ، فأما رسول الله ﷺ فلم يدركه نبي حتى يدركه عمر ، وأما أبو بكر فقد أتعب من بعده ، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك جله .

– وهل أوصاك بشيء في آخر لقاء بينكما؟

– أجل لقد فعل .

– بِمَ أوصاك؟

– قال لي : أُدنُ مني يا عمر ، فلما دنوتُ قال : إني مستخلفك ، وأوصيك بتقوى الله يا عمر! إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، واعلم أنه لا تُقبل منك نافلة حتى تُؤدي الفريضة ، وأنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق ، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً! وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الباطل ، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا . إن الله جلّ ذكره ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا ، لا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقي بيده إلى التهلكة ، فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، ولستَ بمعجزه!

– هي واللهِ وصية مودع ، وإن المرء أصدق ما يكون إذا كان في إدبار من الدنيا وإقبال من الآخرة ، وقد كان أبو بكر رضي الله عنه في حياته صدّيقًا ، فكيف لا يكون وهو في آخر عهده من الدنيا ، ولكن هل يتسع صدر أمير المؤمنين لي لأسأله عن بعضها .

- سل ما بدا لكَ يا بُني .

- لماذا بدأ وصيته بقوله : أوصيك بتقوى الله يا عمر؟

- لأنه كان يعرف أنّ السلطان فتنة لصاحبها ، لأنه يملك القوة والمال ، والناس أمامها ضعفاء ، وإنه لمن النادر أن يملك أحد القوة والمال ولا يطغى ، فأراد أن يُذكرني أن الله مطلع عليَّ ، وناظر ما أفعل في السلطان الذي صار إليّ ، وفي المال الذي صار عندي ، وفي الناس الذين صار أمرهم بيدي ، وإن السلطان أحوج الناس أن يُخوّف بالله ، لأن ليس إلا الله فوقه ، فإن العامة إنما تخاف السلطان لأن القوة بيده ، وتقرَبه لأن المال بيده ، أما السلطان فليس قوة في الأرض أكبر من قوته ليخشاها ، وليس مال أكثر مما في يده ليطلبه ، وقد أراد أن يُخوّفني بالله ، ويذكرني لأراقبه في أفعالي وأقوالي ، وسيري في الرعّية!

- وماذا قصد بقوله : إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل؟

- أراد أن يقول لي لا تقُمْ بدين النّاس وتنسَ أن تقوم بدينك! فإنما أنتَ عبد من عباد الله ، فرضَ عليك أعمالاً وعبادات ، فلا يشغلنكَ أمر الخلافة على أن تقوم بها ، أراد أن يذكرني أن أحافظ على صلاتي وصيامي ، لأن الرعية على دين الراعي ، إن زهد بالعبادة زهدوا معه ، وإن جَدّ واجتهد فيها جدّوا واجتهدوا معه ، وإن أقبل على الدنيا أقبلوا معه ، وإن أقبل على الآخرة أقبلوا معه ، فإن الحاكم للرعية كالرأس للجسد ، حيثما توجه تبعه الجسد!

- وماذا قصد بقوله : أنه لا تُقبل نافلة حتى تُؤدى الفريضة؟

- أراد أن يقول لي أنه لا شيء أحبّ إلى الله من أن يقوم العبد بما فرضه الله عليه ، وأن العبد إذا فعل النوافل وترك الفرائض

فقد أتعب نفسه في غير الذي خُلق له ، وإن قام بهما معًا فقد جمع الخير كله ، فصيام السّنة كلها تطوعًا لا يُغني عن ترك صيام نهار واحد من رمضان بغير عذر ، وصلاة الفجر في جماعة أفضل من قيام نصف الليل ثم النوم عنها ، وإخراج ألف صدقة لا تغني عن ترك الزكاة وإن كان مجموع الصدقات أكثر ما يجب عليه من الزكاة ، ذلك أن الصدقة نافلة والزكاة فريضة ، والإكثار من النوافل لا يجبره ترك الفرائض! وأراد أن يذكرني أن الله افترض على الحاكم أمورًا إن لم يعمل بها لم ينفعه أن يعمل بسواها وإن كان سواها فيه خير كثير ، فقد أُمر أن يقسم المال بالعدل بين الرعية ، فلو أخذه لنفسه ثم أنفق منه كثيرًا بعد ذلك عليهم خاب وخسر ، ذاك أنه لم يدفع إليهم حقوقهم ، وكان في مظهر من يمنح هبة وهو في الحقيقة قد منع حقًا!

– وما قصد بقوله ، إن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا ، لا يتمنى على الله غير الحقّ ولا يلقي بيده إلى التهلكة؟

– أراد أن يقول أن القرآن قرنَ بين الترغيب والترهيب ، لأنه لو خاطبهم بالترهيب دون الترغيب لتقطعت قلوبهم خوفًا ، وعبدوه عبادة العبد الذي لا يطيع سيده إلا خوفًا من السوط ، ولو خاطبهم بالترغيب دون الترهيب لعبدوه عبادة العبد الذي لا يأبه بسيده لأنه أمن عقابه ، أراد الله للناس أن يخشوه ويحبوه معًا ، أن يرهبوه ويطمعوا بما عنده ، ومن رحمته سبحانه وهو يُثبتُ قدرته على العذاب يُذكرُّ بحلمه وعفوه ، وهو يعد بالحلم والمغفرة والصفح يُذكر بقدرته وجبروته ، أراد لنا أن نعبده قارنين الحُبَّ بالخشية ، فالله يُحبُّ أن يُحبَّ ، ويُحبُّ أن يُخشى!

- هذا كان آخر عهدك بأبي بكر ، فما أول عهدك بالخلافة؟
- لّما كان أول يوم لي في الخلافة ، صعدتُ المنبر ، وحمدتُ الله وأثنيت عليه بما هو أهله ، ثم قلتُ أما بعد : بلغني أنّ الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : لقد اشتدَّ عمر علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، وأشتدّ علينا وأبو بكر رضي الله عنه والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟

ألا فأعلموا أيها الناس أنّ هذه الشدة قد تضاعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد ، فأنا ألْيُن لهم من بعضهم لبعض ، ولستُ أدعُ أحدًا يظلم أحدًا أو يتعدى عليه ، حتى أضع خدَّه على الأرض ، وأضع قدمي على خده الآخر ، حتى يُذعن بالحق ، وإني بعد شدتي تلك لأضعُ خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف!

أيها الناس :

إنّ لكم عليَّ خصالاً أذكرها لكم ، فخذونى بها :

لكم عليَّ أن لا أجتبي شيئًا من خراجكم ومما أفاء الله عليكم إلا من وجهه

ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج إلا بحقه

ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى

ولكم عليّ أن لا ألقيكم في التهلكة

ولكم عليّ أن أسُدَّ ثغوركم إن شاء الله تعالى

ولكم عليّ إن غبتم في البعوث والمعارك فأنا أبو العيال حتى ترجعوا

فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني

وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضار النصيحة فيما ولاني الله من أموركم .

– تُصدِّقني يا أمير المؤمنين لو أخبرتك أنّه قد اعتراني الذُّهول من خطبتك هذه؟

– أصدِّقكَ ، ولكن لأي شيء ذُهلتَ؟ أكنتَ تحسبني أقول غير الذي قلتُ؟

– بعض ما قلتَ ليس مستغربًا أن يصدر عنكَ ، فأنتَ الذي جعل الله الحق على لسانك وقلبك ، وإنك للمُلهمُ بشهادة رسول الله ﷺ ، وسيكون بيننا كلام عما جاء في خطبتك هذه ، ولكن لتسمح لي يا مولاي قبل هذا أن أُدلي بدلو الاستغراب .

– الاستغراب؟

– أجل الاستغراب يا أمير المؤمنين .

– الاستغراب مِمَ يا بُنيَّ؟

– من مطلع خطبتكَ ، فبعد أن حمدتَ الله وأثنيت عليه بما هو أهله ، وصليت على رسول الله كما يليق به ، توجهتَ بكلامك للناس عمومًا ، وللذين خافوا غلظتك وشدتك وحزمك خصوصًا ، مؤكدًا لهم الذي كانوا يخشونه منكَ إذا آل الأمر إليكَ ، وقد توقعت أن تنفي هذا عن نفسك فإذا بك تؤكده .

– وهل كنت تنتظر مني أن أخرج على الناس لأقول لهم : بلغني أيها الناس أن بعضكم هابوا شدتي وغلظتي وقالوا : لقد اشتدّ عمر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، واشتد وأبو بكر رضي الله عنه والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟! ألا أيها الناس اعلموا أني تركتُ شدتي وحزمي من اليوم؟

– وما المانع في هذا يا أمير المؤمنين؟

– يا بنيَّ ، إن الحاكم الضعيف ، يَظلمُ في عهده القويُّ ، ويخافُ في عهده المسكينُ ، وما كان لي وأنا في أول عهدي بالخلافة

إلا أن أُنذر القوي من أن يستعمل قوته في غير الحق ، واطمئن الضعيف على ظهره وماله إلا في الحق ، الناس سواسية ، فالقوي عندي قوي بالحق الذي معه ، والضعيف عندي ضعيف بالباطل الذي عنده ، لا مال يُنجي من حدٍّ ، ولا نسب يُسقط من عقوبة ، وإن الله قد رغّب وتوعّد ، رغّب الطائع ، وتوعد العاصي ، فكيف يُلامُ عمر إن أراد أن ينصب للعدل ميزانًا ، يضع الناس في كفته بالعدل والسوية ، شريفهم ووضيعهم؟ وما أنا الذي يُؤكل حق في خلافته ، ويُستضعف ضعيف في حضرته

– لا خلاف في هذا يا أمير المؤمنين ، ولكن الذي قصدته ، أني توقعتُ منكَ أن تُبادر لتنفي ما اتهموك به لا أن تثبته .

– وهل يترك المرء فضيلة عنده لمجرد أن كرهها الناس فيه؟ لا والله ، ما كان لعمر إلا أن يسعى في إرضاء ربه ، رضي الناس هذا منه أَم سخطوا ، فإني سأموت وحدي ، وأدفن وحدي ، وأبعثُ وحدي ، وأُسأل وحدي ، وأُحاسب وحدي ، ولن يزيد في ميزاني غير حق أقمته ، ولن ينقصه غير حق وضعته ، ولأن يخشاني الناس في الحقّ أحبُّ إليَّ من أن يحبوني في باطل .

– والله لقد جعل الله الحق على لسانك وقلبك ، وما قصدتُ أن أغضبكَ أو أراجعك في أمر رأيته ، غير أني أستفسر منك عما بدر منكَ ، وقد كنتُ أتوقع منكَ غير الذي كان .

– كأنك تعود لتقول : لو أنكَ طمأنتهم

– أجل

– ولكني قد فعلتُ

– كيف؟

– أما قلتُ لهم : إن غلظتي قد تضاعفت على أهل الظلم

والتعدي على المسلمين ، أما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين إليهم من بعضهم لبعض؟

– بلى قد قلتَ

– فأي طمأنة بعد هذا؟ يا بنيّ إني إذ توعدت فقد جعلت وعيدي مخصوصًا بالظالم والمعتدي ، فمن لم يكن منهم فهذا خطاب طمأنة ، ومن كان منهم فذاك خطاب وعيد وتهديد ، على الظالم والمعتدي أن لا يطمئن حتى يطمئن غيره ، وإن الظالم إذا اطمئن فقد فزع الناس ، وإني قد خطبت قومًا أعلم أنه ليس فيهم ظالم ولا معتد ، وأنه لا ينشب بينهم إلا ما ينشب عادة بين الناس ، فلو نظرتً للأمر من هذا المنظار لعلمتَ أني كنتُ أضع النقاط على الحروف ولم أكن أتوعد وأهدد .

– والله لقد كنتَ تضعُ النقاط على الحروف ، ولم أسمع بأجمل مما قلتَ بعد هذا الذي ناقشتك فيه .

– أي قولي تقصد؟

– قولكَ : ولستُ أدع أحدًا يظلم أحدًا أو يعتدي عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على خده الآخر ، حتى يُذعن للحق ، وإني بعد شدتي تلك لأضع خدي أنا على الأرض لأهل الكفاف وأهل العفاف!

– رغم أنه ما كان لي أن أقول غيره ، ولكن لا ضير أن أسألكَ أي شيء فيه قد أعجبك تحديدًا؟

– هذه المساواة المطلقة بين الجميع أمام الحق ، لستُ أدعُ أحدًا يظلم أحدًا ، هكذا بالتنكير ليدخل فيها الناس جميعًا ، لكل ظالم أيًا يكن نسبه وحسبه وماله وسبقه فأنت خصمه ، وكل مظلوم أيًا يكن نسبه وحسبه وماله وتأخره فأنت نصيره ، يحتاج الناس لمثل هذا

لتستقيم أمورهم ، يحتاج الظالم يدًا قوية تردعه عن ظلمه ، وتعينه على نفسه وشيطانه ، ويحتاج المظلوم يدًا حانية تربتُ على كتفه وتخبره أنه ليس وحده ، مصيبة إذا ترك السلطان الناس كالحيوانات في الغابة ، يأكل القوي فيها الضعيف بلا حسيب ولا رقيب!

- أرأيتَ ، هذا الذي كنتُ أرمي إليه حين قلتُ لك : تعمدتُ أن يهابني الظالم ويأمنني المظلوم ، لأني لم أكن أريد أن أطلق الظلمة على الضعاف كالأُسد في الغاب تنهش لحم هذا ، وتأكل عرض ذاك .

- ثم أعجبني أمر آخر .

- ما هو؟

- أعجبني ميزانك الذي عزمتَ أن تقيمه ، وسياستك التي قررتَ أن تمضيها للناس ، قدمك على خد الظالم حتى يُذعن للحق ، أما أهل الحق فأنتَ أصغر الناس أمامهم ، وتضع خدك لهم ، واللهِ لا يقول هذا إلا من كان كبيرًا!

- يا بنيّ ؛ إن الحاكم للناس كالأم لابنها المريض ، تكره أن تراه يُدخل في جوفه ما لا يستعذبه ، ولكنها تعطيه بيدها الدواء المُرَّ ، لأنها تعلم أن في هذه المرارة حلاوة العافية ، وهي بعد هذا إذا فاتت ساعة الدواء ، أكبّت عليه تمسح على رأسه وتحنو عليه ، لأنه كما يحتاج إلى الدواء ليشتد يحتاج إلى الحنان ليتعافى ، والناس هم ذاك الصبي المريض ، من اعتدى أعطيناه مرَّ الدواء ليسترد عافيته ودينه الذي فقد بعضًا منه بعدوانه ، والمظلوم هو الصبي ذاته وقد احتاج إلى الحنان!

- ما أروع هذا الوصف وهذا التشبيه ، وما أقربه للحقيقة!

– يا بنيّ ؛ نعم القول ما طابق العمل ، وبئس القول ما خالفه ، وأسأل الله أن يكون قولي قد طابق عملي فيكون لي ، وأعوذ باللهِ أن يكون قولي قد خالف عملي فيكون عليّ!

– إن كانت هذه خشيتك وأنت عمر ، فماذا نقول نحن؟!

– أصلح الله الحال

– اللهم آمين ، هل يأذن لي أمير المؤمنين أن أعود به إلى خطبته الأولى يوم وليّ الخلافة ، فما زال في خاطري أشياء أريد أن أسأل عنها .

– سل ما بدا لكَ .

– ماذا قصدت بقولك : لكم علي أن لا أجتبي شيئًا من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه؟

– قصدتُ أن أقول أن مال الناس للناس ، وأنه ليس للدولة منه إلا مقدار الزكاة وهو حق الله في المال ، ثم إن مال الزكاة من الناس للناس ، من الغني للفقير ، ومن المكتفي للمحتاج ، وإنما أنا عامل عليه أجبيه بحقه ، وأنفقه بحقه ، فلم أتولَّ على الناس لآخذ أموالهم ، وفي المقابل ما كان يستقيم أن أترك أمر الله في جبايته .

– فلماذا يدفع المرء الزكاة للدولة ، لِمَ لا يوزعها هو بنفسه على من رآه فقيرًا ومحتاجًا؟

– أنتَ تخلط بين الصدقة والزكاة .

– وما الفرق؟

– الصدقة نافلة ، يؤديها المسلم إذا رغب تقربًا إلى الله ، أما الزكاة ففريضة وعبادة ، ولما كانت الدولة هي المسؤولة أن تهتم بشؤون الرعية ، بإطعام الجائع ، وسد دين المدين ، وتزويج الشاب الفقير ، وعلاج المريض ، وكسوة اليتيم ، كان من الواجب أن تجمع المال لتوزعه ،

فلو أعطى الغني الفقير الذي يعرف ، فما مصير الفقير الذي لا يوجد غني يعرفه ، ما مصير المريض ، والمدين ، والعاجز ، والأرملة ، والمسكين ، من يقوم بحقّ هؤلاء ، للغني والموسر أن يتصدق بما شاء على من شاء ، أما الزكاة فتجبيها الدولة وتوزعها!

- فماذا لو جاء زمان على الناس لم يكن فيه دولة ، أو لسبب ما لم تستطع الدولة أن تصل إليهم لتجبي منهم الزكاة ، فهل تسقط عنهم؟

- الزكاة عبادة لا تسقط عمّن بلغ ماله نصاب الزكاة بأي حال من الأحوال ، أما عجز الدولة عن جبايتها لأي سبب فعند ذاك يسقط حق الدولة فيه ولكن حق الله لا يسقط ، وعبادته يجب أن تؤدى ، فيؤديها المسلم كما يؤدي الصدقة ، على الفقير الذي يعرف ، والمحتاج الذي يرى ، ويبدأ بالأقرب رحمًا ، ثم الأقرب دارًا!

- حسنًا ، فهمتُ ، وماذا قصدت بقولك : ولكم عليَّ إن وقع في يدي أن لا أخرجه إلا بحقه؟

- قصدتُ أن عمر إنما يجمع الزكاة كما أمر الله ، ويوزعها في الوجه الذي أمر به الله ، فليس لعمر ولا غيره إذا وليَّ على الناس أن يجمع المال لنفسه ، أو ينفقه في هواه ، فيعطي منه القريب ويحرم منه البعيد .

- وما للخليفة إذًا؟

- ليس للخليفة من مال الناس إلا راتبه الذي يكفيه وأهله بالمعروف ، فإنما هو موظف عند الأمة ، ليدير شؤونها ، ويحسن رعايتها ، وراتبه هنا نظير انشغاله بأمورها عن أمر تحصيل رزقه ، ثم إنّ له بعد ذلك ما للناس جميعًا ، فلو كان نصيب المرء من مال الدولة ألفًا على سبيل المثال ، فللخليفة مثله لأنه امرؤ من الناس ، ومسلم من المسلمين .

– ولكني سمعتُ أنك خالفت أبا بكر في الأُعطيات ، فقد كان يساوي بين الناس فيها ، ولما صار الأمر إليكَ ، فضَّلت بعضهم على بعض!

– هذا صحيح ، وهذا أمر راجعتُ فيه أبا بكر وهو خليفة على الناس ، كان أبو بكر يرى أن الناس يجب أن يكونوا سواسية في مال الدولة الذي توزعه دون أن يحسب حسابًا لأهل السبق في الإسلام ، وكان يرى أن أجر السبق في الإسلام ، والجهاد مع رسوله فعل قدموه إلى الله وهو يجزيهم به ، أما المال فالكل فيه سواء ، أما أنا فقد كنتُ أقول له : كيف تساوي فيه من قاتل مع رسول الله ﷺ وبين من قاتل رسولَ الله؟

– وجهة نظر سليمة ، ورأي يُحترم ، على إعجابي بنظرة أبي بكر للأمر فهل أخذ أبو بكر بوجهة نظرك؟

– سمع مني ولكنه لم يأخذ برأيي ، وبقي يساوي بين الناس في الأعطيات ، ولكن لمّا آل الأمر إليّ ، اجتهدتُ رأيي فيه ، ولكل رأيه واعتباراته التي يقيس فيها الأمور!

– كلامك صحيح ، ولكن ألا ترى أن المساواة أفضل ما يمكن أن نعامل به الناس؟

– هناك مبدأ أسمى من المساواة ، ألا وهو العدل ، فالمساواة المطلقة إنما تحمل ظلمًا في وجه من وجوهها ، وتبارك الله سبحانه إذ وزّع المواريث بالعدل وليس بالمساواة!

– وكيف ذلك؟

– جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين من مال الميراث ، وهذا كما ترى ليس مساواةً ، ولكنه قمة العدل ، فالذكرُ يدفع المهر للمرأة إذا أراد الزواج بها ، والذكر عليه واجب النفقة على أهله وعياله ،

وهذا ليس واجبًا على المرأة ولو كانت أغنى منه ، والرجل هو الذي يبني البيت ، ويقوم بحق الأم ، والأخت الذي تأخر عنها الزواج ، فلما كانت واجبات الرجل أكثر ونفقاته أكثر كان من العدل أن يكون حظه من الميراث أكثر!

- وعلى أي أساس وزعتَ الأعطيات أنتَ؟

- سأخبرك ، عندما فتح الله علينا العراق والشام وكثر المال ، جمعتُ الناس ، وقلتُ لهم : إني رأيتُ أن أفرض العطاء لأهله

فقالوا : نعم الرأي

فقلتُ : بمن أبدأ؟

فقالوا : بنفسك!

فقلتُ : لا ، ولكني أضع نفسي حيث وضعها الله ، وأبدأ بآل رسول الله .

- وهل توليتَ هذا بنفسك؟

- لا يستطيع الخليفة مهما أوتي من قوة أن يقوم بأمر الناس وحده ، إنما يجعل له مساعدين وعمالاً ، ويكون عليهم رقيبًا وحسيبًا ، فقد أوكلتُ هذا الأمر لعقيل ابن أبي طالب وجبير بن مطعم ، ومخرمة بن نوفل ، وأمرتهم أن يكتبوا الناس حسب منازلهم ، وأن يضعوا عمر حيث وضعه الله ، ولا يقدموه وأهله!

- وهل رضي أهلك أن يكونوا في سواد الناس؟

- جاءني بنو عديّ فقالوا لي : لو جعلتَ نفسك حيثُ جعلك القوم الذين كتبوا الناس حسب منازلهم ، فقد قدَّموا آل هاشم ، ثم آل أبي بكر ، ثم آل عمر

فقلتُ لهم : بخ بخ يا بني عدي ، أردتم الأكل على ظهري ، وإن أهب لكم حسناتيٍّ!

– وكيف كانت الأعطيات؟

– قسمتُ لعائشة بنت أبي بكر اثنتي عشر ألفًا ، ولباقي أمهات المؤمنين عشرة آلاف ، أما جويرية وصفية فقسمتُ لكل منهما ستة آلاف .

– أرى أن هذه ليست مساواة ، فأين العدل؟

– كانت عائشة أحب زوجات رسول الله ﷺ إلى قلبه ، وما زدتها إلا لمكانها في قلب النبي ، وقد ساويت في البقية ، أما جويرية وصفية فإنما صرن زوجاتٍ للنبي عن طريق الفيء ولم يتزوجهن كما تزوج غيرهن ، وهذا هو العدل . وقسمتُ لرجال بني هاشم خمسة آلاف ، ولشبانهم ثلاثة ، ولكني ألحقتُ الحسن والحسين بعطاء الرجال لمكانتهما في قلب رسول الله ﷺ ، وقسمتُ لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، فلما راجعني ابني عبدالله في هذا ، وسألني لِمَ جعلتُ نصيب أسامة أكثر من نصيبه ولم يفضله بشيء

قلتُ له : كان أبوه أحبَّ إلى رسول الله من أبيك ، وكان هو أحب إلى رسول الله منك!

وقسمتُ لأهل بدر أربعة آلاف عن دون الناس ، أما بقية الناس ألفين فهم فيه سواء!

– لماذا كان نصيب زوجات النبي ﷺ أكثر من نصيب الرجال؟

– ذاك أنهنَّ مُنعنَ الزواج بعده ، فهنّ أمهات المسلمين ، ولما لم يكن لهنّ معيل من زواج ، صار عليهن أن يعلن أنفسهنّ ومَن عندهن ، فاقتضى العدل أن يُعطين بما يليق بزوجات النبيّ أن يُعطينَ .

- سبحان الله ، واللهِ أنك لتنظر في الأمر ، فترى ما لا يراه غيرك ، فسبحان من وضع الحق على قلبك ولسانك ، وعودًا على ذي بدء ، ما قصدت بقولك : ولكم عليَّ أن لا ألقيكم في التهلكة؟

- قصدتُ أن أقول إني لن أُخاطر بحياتكم لأجل فتح أحب أن أراه ، ولا لأجل عدو أتمنى هزيمته .

- هذا يعني أنك تعهدتَ لهم أن لا تجاهد بهم؟!

- من قال هذا؟

- هذا ما فهمته أنا من كلامك ، فأي حرب تلك التي لا تكون فيها حياة المحارب في خطر ، وأي عدو ذاك الذي يُهزم دون قتال ولا يخلو قتال من خطر ، صحيح أن الواقف في صف المعركة الأولى ليس أقرب من الموت من النائم على فراشه ، ولكنها دار أسباب ، ولطالما أفنت المعاركُ الرجال!

- لم أقصد هذا يا بني ، إن المعارك المحسوبة المدروسة ، المُتأمل في طريق خوضها ، لا تخلو من مخاطر ، وهذه معارك لا سبيل للقعود عنها ، ولا سبيل لوقفها لأن احتمال الشهادة فيها كبير لمن شاء الله أن يمنّ عليه بها ، وإنما قصدتُ تلك المخاطرة القريبة من التهور التي تكون في ظاهرها أقرب إلى المقامرة .

- ولكن يا أمير المؤمنين ، بالنظر إلى أعداد جيش المسلمين في غالب معاركهم ، مقارنة بالنظر إلى أعداد جيوشِ الأعداء ، يجعلنا نجزم بوجود جانب ما من التهور ، خذ عندك مثلاً معركة القادسية ، فقد كان جيش المسلمين زهاء ستةٍ وثلاثين ألفًا بينما بلغ جيش الفرس زهاء مئة وعشرين ألفًا ، ورغم هذا خضتَ المعركة!

- يا بنيّ ، لو أننا ننتصرُ بعدد أو عدة ، لسلّمتُ لك أن في الأمر تهورًا ومخاطرة غير مدروسة ، ولكننا قوم ننتصر بطاعة ربنا وهم يُهزمون بمعصيتهم لربهم ، هذا أولاً . . .

ثانيًا ، حتى مع وجود هذا التفاوت في العدد والعتاد ، فتلك كانت معركة مكشوفة ، يقف فيها الرجال مقابل الرجال في معركة ليس فيها من الخطر أكثر ما يكون في أي معركة ، ولو تبادلنا الأعداد ، فلو كنا نحن المئة وعشرين ألفًا ، وهم الستة وثلاثين ألفًا ، لبقي يحدق بنا ذاك الخطر الذي لا مناص من مواجهته ، ولكن ما أردتُ قوله شيء آخر تمامًا ، شيء لا علاقة له بأعداد الجيوش وتجهيزاتهم .

– شيء مثل ماذا يا أمير المؤمنين؟

– سأخبرك ، وأضرب لكَ مثلاً بحادثتين ، فالحوادث أبينُ للأفكار من الكلام المجرّد! أما الأولى فكانت في عهدي ، ألحَّ عليَّ معاوية بن أبي سفيان في ركوب البحر لغزو قبرص ، ولما كنتُ لم أرَ البحر في حياتي قط ، كتبتُ إلى عمرو بن العاص أن يصف لي البحر وراكبه . . .

فكتب إليّ يقول : إني رأيتُ خلقًا كبيرًا يركبه خلقٌ صغير ، إن ركد حرق القلوب ، وإن تحرك أراع العقول ، تزدادُ فيه العقول قلةً والسيئات كثرة ، وهم فيه كدود على عود ، إن مال أغرق ، وإن نجا فرّق!

فلما قرأت كتابه ، كتبتُ إلى معاوية إني لن أحمل في البحر أحدًا من المسلمين ، فهل فهمت ما أردتُ أن أقوله لكَ يا بني؟

– أجل فهمتُ ، فما الحادثة الثانية؟

– الحادثة الثانية كانت في خلافة أبي بكر ، حيث كتبَ لخالد بن الوليد أن يترك المثنى بن حارثة على العراق ويتوجه إلى اليرموك ليلتحق بجيش المسلمين هناك ، وقد كان خالد رجل حرب عجزت النساء أن تنجبن مثله ، لكن كان لقوته وعزمه يحمل المسلمين

بحسب قوته تلك ، وهذا ما لم يكن يعجبني فيه ، فلم أشك يومًا ببأسه وحنكته ، وإنما كنتُ أخشى على المسلمين منه ، المهم أن خالد بن الوليد قد رأى أن يسلك طريقًا لا يراه الروم فيه ، ولم يكن من سبيل لذلك إلا عبر اجتياز صحراء السماوة ، وهي صحراء مهلكة مقفرة ، فاهتدى إلى طريقة عبقرية أقرُّ بها ، وهو أنه ظمّأ الإبل المُسنَّة ما يكفي ، ثم سقاها المرة بعد المرة حتى صارت بطونها كأنها برك ماء! وكان كلما سار بالجيش يومًا ذبح من تلك الإبل ، فأكل الجيش لحمها ، وسقى الخيول الماء الذي كان في بطنها ، وهكذا ظلّ يفعل أربعة أيام متواصلة ، وكتب الله له أن يصل على الموعد لينكأ الأعداءَ كعادته ، ولما رأيتُ سرور أبي بكر بما كان من خالد ، عارضته لما رأيتُ في هذا من التهور والمخاطرة . . .

وقلتُ لأبي بكر : لو أن خالد بن الوليد اجتازها بنفسه لما راجعتك فيه ، ولقلتُ لك هو مقدام وهو واللهِ كذلك ، لكن أن يجازف بالمسلمين فهذا لا يرضيني ، أفهمتَ الآن يا بني ما قصدتُ بقولي حين قلتُ للناس : ولكم عليَّ أن لا ألقيكم في التهلكة؟

– أجل فهمتُ يا أمير المؤمنين ، ولكن ألهذا السبب عزلتَ خالد بن الوليد عن قيادة الجيش في أول قرار اتخذته بعد أن آلَ الأمرُ إليكَ؟!

– أولاً : لا بد أن تعلم أني ما عزلتُ خالد بن الوليد على تهمة في دينه ، ولا عن شك في شجاعته وإقدامه ، ولكني عزلته لأسباب أخرى غير ما ذكرتُ لكَ آنفًا في حادثة اجتياز صحراء السماوة ، وعزلي له لم يكن أمرًا قد خطر لي في يوم وليلة ، بل إني أشرتُ على أبي بكر بعزله بعد أن شرحتُ له سبب رأيي هذا ،

ولكن أبا بكر رأى غير الذي رأيته ، وهو إن وافقني في بعض أسبابي وإقراره بأخطاء ارتكبها خالد ، ولا معصوم إلا نبي ، ولا يقدح في إيمان خالد ما بدر منه ، لأنّ الماء إذا كثر لم يعد يحتمل الخبث ، وخالد بحر فضلاً على أن يكون ماءً كثيرًا في قُلتين! ولكن أبا بكر لم يعزله وإنما عاتبه ، لما رأى أن ما بدر منه مجرد هفوات لها تأويل ، وكان أبو بكر يرى أن في بقاء خالد على رأس الجيش مصلحة تجبر كل كسر!

ثانيًا : بالإضافة لما ذكرتُ لكَ ، كنتُ أرى في سيف خالد رهقًا ، وقد بدرَ منه شيء من هذا حتى في حياة رسول الله ﷺ ، فقتل الأسرى ، وقال يومها رسول الله ﷺ : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد! فرسول الله قد تبرأ من الفعل ولم يتبرأ من الفاعل ، لَمَا علم من صلاح خالد وإيمانه ، وهذا ما أعلمه أنا ، ولكني كنتُ أحكم على الفعل لا الشخص ، ولو بقيت واحدة ما عزلته ، ولكنه في خلافة أبي بكر قتل مالك بن نويرة كذلك ، فاستدعاه أبو بكر ، ولما سمع منه ، دفع دية مالك!

– وهل كان غير هذا منه حتى ترى رأيك في عزله؟

– أجل كان ، فخالد كان ينفق من أموال الغنائم دون الرجوع إلى أبي بكر ، وقد أشرتُ على أبي بكر أن يكتب إليه أن لا يعطي أحدًا إلا بأمره ، فكتب إليه أبو بكر بذلك ، فأجابه خالد : إما أن تدعني وعملي وإلا شانك بعملك ، فأشرتُ على أبي بكر مرة أخرى بعزله لجوابه هذا ، فأبى ، وقد كان أبو بكر يرى مبدأ التفويض للولاة ، رغم مطاوعته لي أن يكتب لخالد ، بينما كنتُ أرى أن أكون واليًا على الولاة يرجعون لي في كل صغيرة وكبيرة ، فما أبقى أبو بكر خالد عن رضا تام ، ولا عزلته أنا عن سخط تام ، إنما نحن رجلان كان لكل منا طريقته في إدارة شؤون الدولة .

– وهل كان شيء غير هذا؟

– بقي أمر أخير لا علاقة لخالد به ، وهو افتتان الناس به! فخالد ما هُزم له جيش في الجاهلية ولا في الإسلام ، وقد جمع الله تعالى له بين الشجاعة والقوة والرأي والمكيدة في الحرب ، وحسن التخطيط والتدبير والعمل فيها ، فصار الناس يقولون إنما النصر نصر خالد ، فخشيتُ على عقيدة الناس ، وإني يوم عزلته قلتُ : لأنزعنَّ خالدًا حتى يعلم الناس أن الله تعالى هو من ينصر دينه ، كل هذه الأمور اجتمعت فرأيتُ رأيي واجتهدتُ فيه ، لما رأيتُ في هذا مصلحة الإسلام والمسلمين ، وقد بقيتُ أحفظ لخالد بأسه وجهاده وإقدامه ، ويوم عزلته كتبتُ لأبي عبيدة أن يستشير خالدًا فيما يعزم فيه من أمر ، وقد رأيتُ أني بهذا أجمع المسلمين على بأس خالد وأمين هذه الأمة بشهادة نبيها أبو عبيدة بن الجراح .

– ولكني أرى أيضًا بالإضافة لما تفضلت به يا أمير المؤمنين أن هناك سببًا لم تنتبه له ، وهو الذي جعل أبو بكر يبقيه وأنتَ تعزله ، فهل يسمح لي أمير المؤمنين أن أقوله؟

– قل يا بُني

– أرى أن شيئًا في كل ما حدث ، يرجع إلى مسألة الفرق في الطبع بينك وبين أبي بكر ، فأبو بكر كما سبق الحديث : أسيف رقيق ، سهل قريب ، وأنتَ حازم شديد ، صلبٌ لا تلين ، وقد وجد أبو بكر في شدة خالد وبأسه هذا ترميمًا للينه ورقته ، لهذا تمسك به حتى الرمق الأخير ، فقد كانا شخصيتان متضادتان دون أن يكونا متنافرين ، فأكمل أحدهما الآخر! بينما أنتَ وخالد من طينة واحدة ، شخصيتان متشابهتان ، فتنافرتما . وقد عزَّز هذا التنافر المآخذ التي أخذتها أنتَ عليه! وأزيدك ، أنكَ عزلتَ خالدًا ،

ووليت أبا عبيدة ، وأبو عبيدة رجل أمين رقيق عذب ، لقد أكمل أبو عبيدة شخصيتك ، تمامًا كما أكمل خالد شخصية أبي بكر ، فأبو بكر على حبه لأبي عبيدة لم يكن ليعهد له بالأمر ، لأنه مثله ، رقيق عذب ، وأنتَ على حبك لخالد لم تكن لتبقيه ، لأنه مثلك ، حازم وذو بأس ، كلاكما -أنت وأبو بكر- بحث في قائد جيشه عما ينقصه!

– لم أنظر للأمر هكذا من قبل ، وإن كانت لوجهة نظر جديرة بالتأمل ، إلا أنه ما كان لي أن أعزل خالدًا لأنه يشبهني ، ولو أن أبا عبيدة قام بما قام به خالد لعزلته أيضًا!

– لنطوِ هذه الصفحة يا أمير المؤمنين ، فقد سمعتُ منك ما يكفي لأفهم بأي منظور كنت تنظر للأمور ، وخلصتُ بما لا يدع مجالاً لشيطان أن يوسوس لي أن بعض ما كان نابع من شيء شخصي .

– انتهينا إذًا من الحديث عن خطبتي بالناس في أول يوم لي في الخلافة؟

– بقي أمر أخير ، أرجو أن يتسع له صدر أمير المؤمنين ، فيشرح لي ما عنى به .

– سل ما بدا لكَ يا بنيَّ ، لا تثريب عليكَ .

– أردتُ أن أسألك ؛ ماذا عنيتَ بقولك : ولكم عليَّ إن غبتم في البعوث والمعارك فأنا أبو العيال حتى ترجعوا؟

– لعلَّ هذا من أوضح ما سألتني عنه ، فهو قول صريح لا حظَّ للكناية فيه أبداً ، لهذا أجيبك وأُوجز؟

– كُلِّي آذان صاغية

– يا بنيَّ ، إن الله جلَّ جــلاله حين حضَّ على الجــهــاد ، ومناجزة الكفار لنشر دينه في الأرض ، جعل للجهاد أجرًا عظيمًا ، لا يدركه الصائم بصومه ، ولا القائم بقيامه ، على شرف الصيام والقيام وأجرهما العظيم ، نفرَ إليه من المسلمين أقوامًا يبتغون وجه الله الكريم وما أعدَّ للمجاهدين والشهداء من الأجر ، ولكن هؤلاء المجاهدين نهاية المطاف طائفة من الناس ، لهم زوجات وأولاد ، وأمهات وأخوات ، وهم لهم المعيل من بعد الله ، ولما كانوا بينهم أعالوهم وأنفقوا عليهم ، ولمّا غيبهم الجهاد ، وأبعدتهم الفتوح ، لم يبقَ عند الأهل منفق ولا معيل ، ومن العقوق أن يمضي الرجل مقبلاً على الموت ، يجالد الكفار ، ويقتحم الأخطار ، ونترك نحن أهله عالة يتكففون الناس ، لا والله ، أنا المعيل إذا غاب المعيل ، وأنا الأب إذا غاب الأب ، وأنا الأخ إذا غاب الأخ ، لا أشبع حتى يشبعوا ، ولا أنام حتى يناموا ، ولا أطمئن حتى يطمئنوا ، وما كان لي أن أجمع عليهم فقد الزوج والأب والأخ والابن مع ذل الحاجة وتكفف الناس ، ثم هذا ليس منةً من عمر عليهم ، هذا واجبي تجاههم ، وحقهم عليَّ .

– أيُّ نبل هذا يا أمير المؤمنين ، أي نبل؟!

– هذا دين الله يا بنيَّ ، وشرعه الحنيف ، ما بال أقوام ندفع إليهم حقوقهم فيحسبون أننا نتفضل عليهم؟! والآن أخبرني ما عندك بعد حديثنا عن خطبتي الأولى في الناس؟

– ما زال عندي الكثير يا أمير المؤمنين ، مثلك لا يُشبع منه ، ولا يُكتفى ببعض حديثه ، ووالله لو بقيت أحدثك حتى ينفد أجلي ما شعرتُ أني اكتفيتُ ، لهذا سأمضي في حديثي معك ، وسؤالي عما كان منك ومعك ، يحرضني على هذا محبتي لك ،

ويقـيني بحلمك وصـبـرك ، ولستُ ممن يعـتـقـد أن الشـدة والحـزم يتعارضان مع الحلم والصبر ، وإنما يكملانهما ، فسبحان من جمع لك الشـدة مع الحلم ، والحزم مع الصبـر ، حتى لو كـان بعـد النبيّ ﷺ نبيًا لكان أنتَ!

– هذا من حسن ظنك يا بني .

– وأنت واللهِ أهل لهذا الظنّ

– دعكَ من هذا ، وأخبرني عما أنت سائلي عنه بعد

– سمعتُ من غير شخص ، وقرأتُ في أكثر من كتاب ، أن القرآن الكريم وافقكَ في مواضع كثيرة ، وأنه ما أدلى الناسُ برأي لم ينزل فيـه قـرآن ، وأدليتَ أنتَ فيـه برأيكَ ، إلا ونزل القـرآن موافـقًا لرأيك ، فهلا حدثتني عن هذا؟

– يا بُنيَّ ، إنما أنا واحـد من الناس ، أصـيب وأخطئ ، ولا معـصوم إلا نبيّ ، ولكن الله يشـرح صـدور بعض الناس ، وينيـر قلوبهم ، فـيـوافق حكمـهم حكمـه ، وقـد منَّ الله عليَّ أن وافق حكمي حكمه في بعض المواضع فعلاً .

– فهلا أخبرتني

– سأخبرك ، رغم أنه حديث يطول

– لا أمـتع من حـديثك حين يطول ، فـأدلِ بدلوكَ ، وارو ظمـأ فضولٍ قد اعتراني كما ترى .

– اسمع إذًا ، وافقتُ ربي في مواضع كثيرة ، فأما الأولى ، فإننا لم نكن نُصلي خلف مقام إبراهيم عليه السلام ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ لو صليتَ خلف المقام؟ فما لبثنا يسيرًا حتى أنزل الله قوله : «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»!

– سبحان الله ، ولكن ما الذي دفعكَ لتقترح هذا على رسول الله ﷺ ؟

– وما لي ألا أفعل؟ من عرفَ إبراهيم عليه السلام حقَّ المعرفة ، واستمع لسيرته بقلبه قبل أذنيه ، أحبَّ ملته وكل ما يمتُ إليه بصِلة ، رجل اتخذه الله خليلاً ، واصطفاه لنفسه ، كلَّفه بالرسالة فكان نعم النبيّ ، وامتحنه في إيمانه فكان نعم العبد الصالح ، اضجعَ ابنه للذبح امتثالاً لأمر ربه ، وقف في وجه النمرود ، وثبت عند الفرعون ، ثم أمره أن يبني الكعبة المشرفة ففعل ، كان ابنه إسماعيل عليه السلام يأتيه بالحجارة وهو يبني ، ولما ارتفع البناء ، أحضر حجرًا كبيرًا ليقف عليه حتى يتمَّ البناء ، فحُفرت قدماه في ذاك الحجر ، رجل ألانَ قلبَه لله ، فألانَ اللهُ الحجر تحت قدميه ، وموضع ذلك الحجر صار مقام إبراهيم ، وقد رأيتُ أنه موضع شريف جدير أن يُصلى عنده ، وكل الكعبة موضع شريف ، فنزل القرآن مؤيدًا لما رأيتُ ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء!

– سبحان الله ، وصدق رسوله إذ قال : «جُعل الحقُّ على قلب عمر ولسانه» فإذا كانت هذه هي الموافقة الأولى لكَ ، فما الثانية يا أمير المؤمنين؟

– الثانية سبقَ أن تحدثنا بها عندما تحدثنا عن مسألة الطباع ، وما اختلفتُ أنا وأبو بكر فيه!

– أسبقَ وتحدثنا بها فعلاً؟

– أجل يا بنيَّ ، ولعلك نسيتَ إذ ضربتها لك مثلاً في اختلاف الطباع ، فلم تلتفت أنها أيضًا في موافقتي للوحي .

– أية قصة تقصد؟

– أقصد أسرى بدر

– تذكرتُ أننا تحدثنا بهذا فعلاً ، فهل يأذن أمير المؤمنين أن يذكرها هذه المرة في معرض الحديث عن الموافقة؟

– لكَ هذا يا بنيَّ ، إنَّه لما كـــان يوم بدر ، ومنَّ الله علينا بالنصر ، وقُتل من قريش من قُتل ، وأُسر منهم من أُسر ، استشارنا رسول الله ﷺ في شأن هؤلاء الأسرى لأنه لم يكن بين يديه قرآن بهذا الشأن

فـقـال أبو بكر : يا رسـول الله ، هؤلاء بنو العم والعـشـيـرة والإخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا!

ولّما ســألني ، قلت له : لا واللهِ لا أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تُمكننا فنضـرب أعناقـهم ، فـإنَّ هؤلاء أئمـة الكفـر وصناديدها ، وطلبتُ من رسـول الله ﷺ أن يُسلم إليَّ قـريبًـا لي فأضرب عنقه ، وأن يُسلم عقيل بن أبي طالب لأخيه عليًا فيضرب عنقــه ، حـتى يعلم أعـداء الله هؤلاء أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، وأشار عليه عبدالله بن رواحة أن يحرقهم!

فدخل رسول الله ﷺ خيمته ثم خرج علينا وقال : إنّ الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وأنَّ الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذ قال : «فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم» ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى إذ قال : «إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا» ، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى إذ قال : «ربنا اطمس على أمـوالهم ، واشـدد على قلوبهم فـلا يؤمنوا حـتى يروا العـذاب الأليم» ، أنتم عـالة فـلا يبـقين أحـد إلا بفـداء أو ضـربة عنــق!

فلما كان من الغد ، أقبلتُ فإذا رسول الله ﷺ وصاحبه يبكيان . . .

فقلتُ : يا رسول الله ، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائكما!

فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عرضَ عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، وأنزل الله : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض»

– إذًا كان الرأي رأيك ونزل القرآن مؤيدًا له؟

– الأمرُ كما رأيتَ

– فما الذي حملكَ أن تدلي به بعد رأي أبي بكر

– لم أقل رأيي مخالفة لأبي بكر ، فذاك رجل واللهِ مُسدد ، لا يعدله بعد الأنبياء في الناس أحد ، ولكن جُعلت الشورى لنضرب الرأي بالرأي ، ونقارع الحجة بالحجة ، ثم يُقلِّبُ صاحب الأمر الآراء ، ويأخذ بما رآه أقرب للحق بإذن الله ، فصاحب الرأي يقول في الأمر بوجهة نظره ، وما استقرَّ عليه فهمه في موازنة الأمور وقياسها ، وصاحب الأمر كذلك ، وإني قلتُ ما قلتُ آنفًا لأني علمتُ أن الله وضع أنساب الجاهلية وقراباتها ، وإن عائلة المرء وقبيلته هي عقيدته ، وإني خشيتُ أن يحسبوا المنَّ والفداء على نبله منا ضعفًا ووهنًا ، وأردتُ أن يعرفوا أننا قوم لا نراعي قربى في جنب الله ، وجنب عقيدتنا ، وإني لم أقترح قتل هؤلاء إلا أن أكون أنا البادئ بقتل قريب لي ، ومن ساوى الناس في نفسه ما ظلمهم .

– حسنًا ، هذه كانت الموافقة الثانية ، فهل ثمة شيء بعد؟

– أجل هناك شيء بعد

- فقل ، فَكُلّي آذان صاغية

- الموافقة الثالثة كانت في آية الحجاب ، فلم يكن الحجاب قد فُرض بعد ، وكنتُ أحبُّ لو أمر به رسول الله ﷺ نساءه ونساء المؤمنين ، وقد قلتُ لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لو أمرتَ نساءك بالحجاب فإنه يكلمهن البرُّ والفاجر ، ومررتُ يومًا على أمهات المؤمنين فقلتُ لهن : واللهِ لو أُطاع فيكنَّ ما رأتكن عين ، لئن احتجبتنَّ ، فإنَّ لكنَّ فضلاً على النساء كما أنَّ لزوجكنَّ على الرجال الفضل!

فقالت زينب بنت جحش : يا ابن الخطاب ، إنك لتغار علينا والوحيُ ينزل في بيوتنا!

فلم نلبث يسيرًا حتى نزلت آية الحجاب ، وفرضه الله على أمهات المؤمنين ، ونساء المسلمين .

- موافقة جديدة إذًا ، فما الذي حملكَ أن تراجع رسول الله ﷺ فيه ، وأن تُكلم أمهات المؤمنين حتى؟

- يا بنيّ ، إن للحجاب مصالح جمة رأيتها قبل أن يكون على الناس عبادة مفروضة ، فهو حراسة شرعية لحفظ الأعراض ، ودفع أسباب الريبة والفتنة والفساد ، فالمرأة محط شهوة الرجل ، وموضع فتنته ، فطرة الله التي فطر عليها الناس ، وهو ليس تهمة للمرأة وتقييداً لحريتها بقدر ما هو حارسها الأمين وحافظها ، فإذا كان الناس يضعون على قِدر طعامهم غطاءً كي لا يقع فيه ذباب ، أفلا تُغطى المرأة لتُصان ، والأمثال لتقريب المعاني ، وإلا فإن المرأة أرفع شأنًا من هذا ، ولكن ألا ترى أن غطاء القدر لمصلحة ما فيه ودوامه ، أكثر مما هو لانتقاص قدره؟

- بلى هو واللهِ كذلك

– ثم إن الحجاب داعية إلى طهارة قلوب المؤمنين والمؤمنات ، وعمارتها بالتقوى ، وهذا معنى ذكره الله تعالى في محكم تنزيله قائلاً : «ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن» ثم هو فوق ذلك من مكارم الأخلاق ، فأي مكارم الأخلاق أرفع من الحفاظ على العرض ، والحجاب حصن منيع ، وسد شاهق ، وهو بعد ذلك إغلاق لطريق الشيطان فلا يُمنّي الإنسانَ بما يرى ولا يحلُّ له ، وهو حافظ للحياء الذي فُطرت عليه المرأة ، وإن كانت تحبُّ أن تكون ذات حظوة في قلب الرجل ، إلا أنها فُطرت على الواحد من الرجال ، والحرة لا ترتضي لنفسها أن تكون محط شهوة رجل غير زوجها ، أضف هو حافظ للرجال أيضًا ، وحاقن للدماء ، فالرجل مفطور كذلك أن يغار على عرضه ، وهو إنما يثور إن رأى عرضه قد ضربه خطر ، أو شابته شائبة ، وما دامت المرأة سافرة مكشوفة فسيبقى هذا الباب مفتوحًا .

– ما دام الأمر كذلك فلمَ لمْ يفرضه الله بدايةً؟

– إن الله رحيم بالناس ، يأخذهم إلى هذا الدين بالتدرج والأناة ، فلم تنزل شرائع الإسلام دفعة واحدة ، فما فُرض الصيام والصلاة والحج والزكاة في يوم وليلة على الناس ، فقد كنا على الإسلام ثلاثة عشر سنة وما فُرض علينا الصيام ، وإن تأخر أمر الله في عبادة ارتضاها سبحانه فهذا نابع من رحمته عزَّ وجل ، وليس لأنها أقل أهمية من غيرها ، له الأمر سبحانه ، الدين دينه ، والخلق عبيده ، يفرض ما يشاء وقتما شاء!

– حسنًا ، هذه الموافقة الرَّابعة ، فهل من شيء بعد أيها المسدد في قلبه ولسانه؟

– أجل ، هناك شيء بعد

– هاتِ ما عندك ، فإن حديثك ماتع لا يملُّ منه ، كلما زدتني تضورت جوعًا له أكثر ، قلة يا أمير المؤمنين هم الذين لا تريدُ منهم أن يسكتوا وأنت والله من هذه القلة .

– الموافقة الخامسة كانت في زوجات رسول الله ﷺ .

– وما شأنهنَّ؟

– كنَّ يغرن عليه ، وإنَّ مثله والله ليُغار عليه ، وإن غيرة المرأة على زوجها ، والزوج على امرأته حلوة ماتعة ، ولكنها كالملح في الطعام ، قليله يصلحه ، وكثيره يفسده ، وكُنَّ طلبن منه أن يزيدهن في النفقة ، ولقد كان أكرم الناس ، وأجود الناس ، ولكن الدنيا لا تبقى على حال لأحد ، ولا تستقيم لإنسان أبدَ الدهر ، هذا شأنها دومًا ، مرةً تُقبل ، ومرةً تُدبر ، فلما جمعن عليه الغيرة وطلب الزيادة في النفقة ، أقسم أن يعتزلهنَّ شهرًا ، وشاع في الناس أن رسول الله ﷺ قد طلق زوجاته .

– وهل طلقهنَّ فعلاً؟

– لا يا بنيَّ ، ولا تكن عجولاً فإني سأروي لكَ ما حدث

– على أمر أمير المؤمنين

– لمّا تناهى إليّ خبر اعتزال رسول الله ﷺ لزوجاته للسببين اللذين ذكرتهما لكَ ، أقبلتُ على زوجات النبي ﷺ وهنّ معًا ، فقلتُ لهن : عسى ربه إن طلقكنَّ أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن! ثم مضيتُ في سبيلي ، ولكني لم أسترح وقد نال رسول الله ﷺ منهن غم وأذى ، فدخلتُ على عائشة

وقلتُ لها : يا ابنة أبي بكر ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ ؟!

فقالت لي : ما لي وما لكَ يا ابن الخطاب! عليكَ بابنتك!

فدخلتُ على حفصة بنت عمر ، فقلتُ لها : يا حفصة ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ ؟!

فبكت بكاءً شديدًا . . .

فقلتُ لها : أين رسول الله ﷺ ؟!

فقالت : هناك حيث اعتزلنا

فذهبتُ أريد أن أكلمه وأخفف عنه بعض الذي نزل به ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعدًا عند الباب

فقلتُ له : يا رباح ، استأذن لي على رسول الله

فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليَّ ولم يقل شيئًا

فقلتُ ثانية : يا رباح ، استأذن لي على رسول الله

فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليّ ولم يقل شيئًا ، فعلمتُ أنه لم يأذن لي ، فرفعتُ صوتي في الثالثة

وقلتُ له : يا رباح ، استأذن لي على رسول الله ، فإني أظنُ أن رسول الله ظنَّ أني جئتُ من أجل حفصة ، واللهِ لئن أمرني رسول الله بضرب عنقها لأضربنّه!

فأشار إليَّ رباح أن أدخل ، فعلمتُ أنه أذن لي ، فدخلتُ على رسول الله ﷺ ، فإذا هو مضطجع على حصير ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، فبكيتُ!

فقال لي : ما يبكيكَ يا ابن الخطاب؟

فقلتُ : يا نبيَّ الله ، وما ليَ لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار؟!

فقال لي : يا ابن الخطاب ، ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!

فقلتُ : بلى!

وما زلتُ أحدثه حتى تحسَّر الغضب عن وجهه ، وحتى تبسم ، وكان من أحسن الناس تبسمًا!

ثم سألته : يا رسول الله إني دخلتُ المسجد فسمعتُ الناس يقولون لقد طلّق رسول الله ﷺ زوجاته ، فهل طلقتهن؟!

فقال : لا ، وإنما اعتزلتهن شهرًا!

فقلتُ له : أتأذن لي أن أخبر الناس أنكَ ما طلقتهن؟

فقال لي : إن شئتَ .

فخرجتُ من عنده وناديتُ في الناس أن رسول الله لم يطلق زوجاته ، ثم أنزل الله قوله : «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكنَّ»

- وهذا قد كان قولك آنفًا

- أجل ، قد كان

- إني لأستغرب أمرًا يا أمير المؤمنين

- وما هو؟

- كيف بدرَ من زوجاته ﷺ ما بدر منهن ، وهنَّ أمهات المؤمنين ، ومن أحسن الناس دينًا وخلقًا؟!

- إن المرأة هي المرأة يا بنيَّ ، والرجل هو الرجل ، مهما بلغتْ درجة إيمان كل منهما ، وإن الإيمان يُهذب الطباع ، ويُرقق الغرائز ، ولكنه لا يلغيها! المرأة مهما بلغت من الإيمان مرتبة فستجد في صدرها شيئًا حين ترى رجلاً مع زوجته الأخرى ، وما من إنسان ، رجلاً كان أم امرأة ، إلا ويحبُّ أن يكون في رغد من العيش والسِّعة

- ولكنه رسول الله!

- هو رسول الله صدقًا وحقًا ، ووالله ما كذبتُ يوم قلتُ أنه لو أمرني أن أضرب عنق ابنتي ليرضى لضربته ، ولكن انظرْ للأمر من زاوية أخرى .

- كيف؟

- لقد كان لنا في رسول الله أسوة حسنة ، وما حدث معه ﷺ درس للناس جميعًا ، الرجال والنساء على السواء ، يريد الله سبحانه أن يخبر كل رجل أن المرأة تغار ، وأنه لو سلم أحد من غيرة نسائه لسلم منها رسول الله ﷺ ، فيتفهم ما يصدر من زوجته قياسًا على ما كان من زوجاته ﷺ ، فأين زوجته منهنَّ ، وأين أمهات المؤمنين ، فإن كان صدر هذا من صفوة النساء ، فليس مستغربًا أن يصدر عمن هي دونهن! وأراد الله أن يخبر كل امرأة أن لا تستسلم لطبعها في الغيرة ، فتصبح كالفرس الجامحة لا يمكن الإمساك بها ، وأن الغيرة المفرطة قد آذتْ من هو خير من ملء الأرض من زوجها ، فكيف لا تؤذي من هو دونه ، وكلنا واللهِ دونه! وأراد سبحانه أن يخبرنا أن البيوت يحصل فيها الوفاق ويحصل فيها الشقاق ، هذا حال الناس مُذ وجدوا على الأرض ، وهذا حالهم إلى أن تقوم الساعة ، هذا جزء من الحياة الزوجيّة ، التي لا تخلو من كدر ، ولا تصفو من شحناء ، وهذا مؤشر طبيعيٍّ ، ما دامت هذه الأمور في سياقها الطبيعي .

- فعلاً نحتاج أن ننظر للأمر من زاوية أخرى! والآن أخبرني يا أمير المؤمنين ؛ أما زال هناك موافقات أخرى؟

- أجل ، ما زال .

- فقل إذًا ، تلقَ سامعًا شغوفًا

- حسنًا ، اسمعْ ، كانت لي أرض بأعلى المدينة ، وكنتُ آتيها ، وكان في طريقي إليها مدارس اليهود ، فكنتُ أجلسُ إليهم ، وأسمع كلامهم

فقالوا لي يومًا : يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك

فقلتُ : والله ما أجيئكم لحبكم ، ولا أسألكم لأني شاك في ديني ، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ ، وأرى آثاره في كتابكم!

ثم سألتهم مرة عن جبريل

فقالوا : ذاك عدوَّنا! يُطلع محمد على أسرارنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب!

ثم سألتهم عن ميكائيل ، فقالوا : يجيء بالخصب والسّلام

فقلتُ لهم : وما منزلتهما من الله تعالى

قالوا : أقرب منزلة ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره! وميكائيل عدو لجبريل!

فقلتُ : لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير! ومن كان عدوًا لأحدهما كان عدوًا للآخر ، ومن كان عدوًا لهما كان عدوًا لله ، ثم قلتُ : واللهِ من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو لَلكافرين!

ثم رجعتُ إلى رسول الله ﷺ ، فقال لي : لقد وافقكَ ربكَ يا عمر وأنزل قوله : «من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌ للكافرين»!

فما وجدتني بعد ذلك إلا أصلب في ديني من الجمر!

- سبحان الله ، ولكن ألا ترى معي يا أمير المؤمنين أنهم من حمقهم عادوا جبريل لأنه يخسف ، وينتقم ، إذ أنه لا يفعل إلا بأمر الله؟!

- بلى واللهِ هذا غاية الحمق وأوجّه ، ثم من قال أن جبريل موكل بالخسف فقط ، جبريل الملك الجليل ورئيس الملائكة ، وظيفته الأولى أنه ملك الوحي ، يأتي الأنبياء بأمر الله ووحيه ،

ورسـالتـه وشـرعـه ، وإن رسـالة الله وشـرعـه نور وهدى للناس ، يخرجهم بها من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وما كان منه من خسف وعقاب ، كان بأمر الله ، فإنه يلزم وإخوته من الملائكة أمر ربهم ، لا يعصونه فيما أمر ، ويفعلون ما يؤمرون ، يُؤمر جبريل بإنزال الوحي فينزل به ، ويُؤمر بإنزال العقوبة فينزل بها ، ولا يزيد في الوحي ولا يُنقص منه ، ولا يزيد في العقوبة ولا يُنقص منها ، وإنه لمّا أُمر أن يهلك قرى لوطٍ عليه السلام ، وكانت سبع قرى ، حملها جميعًا بطرف جناحه وطار بها حتى كاد أن يُلصقها بالسماء ، لدرجة أن الملائكة سمعت نباح الكلاب في القرى ، ثم قلبها رأسًا على عقب ، وكل هذا بأمر الله ، وإن ميكائيل الموكل بالمطر ، فإنه كذلك ينزل بأمر الله ، وإنه يكون رحمة ويكون عذابًا ، وإنه لا يصبُّ من المطر قطرة إلا بأمر الله ، ولا يمنع قطرة إلا بأمر الله ، لكل ملكٍ وظيفة ، فملك الموت موكل بقبض الأرواح ، هذه وظيفته التي أوكلها الله له ، ومالك موكل بالنار وهذه وظيفته التي أوكلها الله له ، ورضوان موكل بالجنة ليكون خازنها وهذه وظيفته التي أوكلها الله له ، وكلّهم ملك كريم يعملُ بأمر الله ، فمالك يُعذب بأمر الله ، ورضوان ينعّم بأمر الله ، وملك الموت يقبض بأمر الله ، ولكن اليهود جمعوا عليهم قلة الأدب مع الله ، وفساد التفكير ، ولا قلة أدب مع الله أبعد من أن يعتقد أحد أن ملكًا يفعلُ شيئًا من تلقاء نفسه!

– رحمكَ الله ، قلتَ فأشجيتَ ، وتكلمتَ فأفهمتَ ، فهل لابن الخطاب المسدد في قلبه ولسانه من موافقاتٍ بعد؟!

– أجل هناك بعد!

– فقل يا من لا يُملُّ من كلامه ، ولا يُزهدُ في حديثه

- هذه المرة كانت في الخمر! فقد قدمتُ أنا ومعاذ بن جبل على رسول الله ﷺ ، وقلنا له : يا رسول الله ، افتنا في الخمر ، فإنها مذهبة للعقل ، مسلبة للمال

فأنزل الله تعالى قوله : «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس» فلم أسترح أن الله ذمها دون أن يحرمها

فقلتُ : اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا!

فما لبثنا قليلاً حتى أنزل الله قوله : «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»!

فقلتُ داعيًا : اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فما لبثنا بعدها حتى أنزل الله قوله : «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون»! فحمدتُ الله على ما أنزل!

- فلماذا لم يُحرم الخمر دفعة واحدة؟

- لمّا حرّم الله الخمر انتهاءً فهذا يعني أنه أبغضها ابتداءً ، ولكنه سبحانه أعلم بخلقه ، والله رحيم بالناس ، أخذهم بالتدرج ، فقد جاء الإسلام والناس يدمنون الخمر ، ويشربونها صبحًا وعشيًا ، فتجلت حكمته سبحانه في اختيار الأولويات ، وتحديد نقطة البدء ، ورسم خطة العلاج!

- وكيف ذلك؟

- إن العلاج يبدأ من داخل النفس ، فلم يتكلم ربنا أول الأمر عن تحريم الخمر ، ولم يجعلها قضية تستحق البحث في بداية الدعوة ، وإنما كانت عنايته سبحانه متجهة نحو تصحيح العقيدة ، والدعوة إلى توحيد الله تعالى وتعظيمه ، فلما صار حب الله تعالى من أعظم الأمور ، صغر أمر الخمر وتضاءل ، فلما أمر الناس بالتحريم

شيئًا فشيئًا كانت الاستجابة للأمر ، وانتهى الناس عن شربها بل صاروا يكرهونها ، ويكرهون شربها وشاربها وبائعها ، وصنعها وصانعها ، وربحها وكل ما يتصل بها!

- إذاً التدرج سنة إلهية؟

- هي كذلك فعلاً ، وينبغي أن تُتّبع في سياسة الناس ، وعندما يُراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة ، واستئناف حياة إسلامية كاملة ، فيجب أن نعرف أن هذا لا يتحقق بجرة قلم ، أو بقرار يصدر من رئيس أو ملك ، وإنما يتحقق هذا بالتدرج ، أي بالاعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية ، فإذا أردنا أن نأخذ بأيدي الناس إلى الله ، نبدأ معهم بالتوحيد أولاً وإصلاح العقيدة ، فإذا استقر الإيمان بالنفوس ، تبدأ المرحلة الثانية وهي إعداد النفوس لتقبل الأحكام والشريعة ، ونبدأ خطوة خطوة ، ونقبل منهم اليسير أولاً ، ثم نتدرّج بهم شيئًا فشيئًا إلى درجات الكمال ، والأخذ بتعاليم الإسلام كلها ، لا بأخذ ما يعجبنا ويوافق هوانا ، ونترك غيره ، فالإسلام كلٌ لا يتجزأ ، ولكن هي مراحل وخطوات وأوليات!

- كلام جميل ، ولكن أخبرني لِمَ كنتَ منذ البداية مع تحريم الخمر؟

- وكيف عساي ألا أكون مع تحريمه ، ولكن على أية حال كنتُ مع تحريمه للعلة التي أعتقد أنَّ الله حرمه لأجلها

- وما هي؟

- أولاً : الخمر مذهبة للعقل ، والعقل مناط التكليف ، وهو ما ميّز الله به الإنسان عن الحيوان ، وأي إنسان غاب عقله بقدَرِ الله ، كأن يصيبه جنون مثلاً يسقط عنه التكليف ، فليس على المجنون حرج ،

ولا عبادات ، ولا طاعات ، لأن مناط التكليف في كل هذا العقل ، فإذا كان الإنسان بالعقل قد سما على الحيوان ، فإن شرب الخمر هو سعي الإنسان بيديه لينزع عن نفسه ما فضله الله به على الحيوان ، إنه تخلٍ عن الإنسانية التي لا تكتمل إلا بالعقل!

- هل أفهم من هذا أنّ من شرب الخمر فذهب عقله في ساعات سكر يُرفع عنه التكليف حتى يعود إليه وعيه؟

- أبدًا ، من قال هذا؟

- ألم تقل أن العقل مناط التكليف ، وحين يذهب العقل يسقط التكليف؟

- صحيح ، ولكن إنما جعلتُ قولي مقيدًا بأن يكون ذهاب العقل حلّ بالإنسان على غير رضا منه ، كما تحل الآفات ، وتنزل الأمراض ، أما من أذهب عقله بيديه فإنه يحاسب حساب العاقل ، ولو ارتكب الخطيئة حال غياب عقله ، فلو قتل قُتلَ حدًا بمن قتله ، ولو سرق حدَّ القطع قطعت يده ، بالإضافة لحد شرب الخمر .

- حسنًا فهمتُ ، قلتَ أولاً ، فهل هناك علة غير ذهاب العقل؟

- إن لم يكن غيرها فكفى ، ولكن لا شك يوجد ، فشرب الخمر فوق أنه مذهبة للعقل ، فإنه مفسدة للمال ، ولقد جاءت الشريعة لحفظ النفس والمال بالإضافة إلى مقاصدها الأخرى ، وشرب الخمر هتك للنفس وإتلاف للمال .

- ماذا لو كان المرء غنيًا؟

- حتى لو ، وإتلاف المال ليس المقصود به ما يقود إلى الافتقار ، وإنما أن يوضع في غير موضعه ، ولا أسوأ من موضع يوضع فيه المال من حرام! ثم إن كان الغنى يمنع الافتقار ، فهل يمنع الغِنَى من السُّكْر وغياب العقل ، وهي العلة الأولى التي حدثتك عنها .

– ماذا لو شرب الإنسان مقدار ما لا يُذهب العقل؟

– ما أسكر كثيره ، فقليله حرام ، وحرمة الخمر ليست مقيدة بذهاب العقل ، وإنما هي من علة تحريمه ، فإن انتفت العلة التي نعتقد نحن أنه لأجلها كان التحريم ، يبقى الحرام حرامًا ، فهذا حكم شرعي لا يرفعه إلا من وضعه ، ألا وإن الشرع تم ، والرسالة خُتمتْ .

– فهل من علة ثالثة؟

– لو بقيتُ أعدُّ لك ما أراه من علل ما انتهينا يومنا هذا ، ولكني أكتفي بعلة أخيرة ، وهي حفظ البيوت ، وسلامتها ، ودوام استقرارها ، فالرجل راعٍ في أهله ، والمرأة راعية في بيت زوجها ،هذه مسؤولية ملقاة على الرَّجل وعلى المرأة ، والتخلي عن العقل إنما هو تخلٍ عن المسؤولية المنوطة بالإنسان ذكرًا كان أم أنثى! فالرجل المطالَب بالإحسان إلى زوجته ، ورعاية أولاده ، وبر أمه وأبيه ، كيف سيفعل هذا وقد رفع عنه العقل ، بل إن السُّكر قد يدفعه إلى إزهاق حياة إنسان كان من واجبه أن يحميه ، وقد يصيب دمًا أو مالاً أو عرضًا حرامًا!

– أما زال هناك شيء بعد؟

– تقصد في الخمر؟

– لا ، أقصد في مسألة الموافقات

– أجل ما زال هناك .

– فحدثني إذًا

– كانت الموافقة هذه المرة في شأن المنافقين

– وما خبرهم؟

– لما مـات عبـدالله بن سلول رأس المنافـقين في المدينة ، جاء ابنه عبدالله بن عبدالله بن سلول وكان صحابيًا حسن الإسلام ، إلى رسـول الله ﷺ وسـأله أن يعطيه قـميـصـه ليكفن به أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسـول الله ﷺ ليـصلي عليـه ، فقمتُ إلى رسول الله ﷺ ، وأخذتُ بثوبه ، وقلتُ له : يا رسول الله ، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟

فقال لي : ما نهاني ، ولكنه خيّرني . . . فقال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وسأزيد على سبعين!

فقلتُ له : أتصلي عليه وقد قال يومًا كذا وكذا وكذا ، وجعلتُ أعدد أقواله وما كان منه .

فقال لي : أخّرْ عني يا عمر!

ثم ذهب رسول الله ﷺ ، فصلى عليه ، فلم يلبث يسيرًا حتى أنزل الله قوله : «ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدًا ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا باللهِ ورسوله وماتوا وهم فاسقون»!

– إذًا ، هذا كان نص تحريم الصلاة على المنافقين

– أجل

– إذًا فلِمَ قلت لرسـول الله ﷺ : أتُصلِّ وقـد نهـاك الله أن تصلي عليه؟

– هذا ما فـهـمته أنا من الآية التي راجعتُ فيـها رسـول الله ﷺ : «استـغفر لهم أو لا تستـغفر لهم . .» فقـد ظننتُ أنها في التحريم ، فقال لي رسول الله ﷺ أنها في التخيير ، وقد اختار عليه الصلاة والسلام الأرحم بالناس ، وهكذا كان شأنه دومًا!

– فهل من موافقات بعد؟

– هذا كل شيء .

– حين تأملتُ في قصة إسلامك التي سبق أن قصصتها عليَّ استوقفني موقف أختكَ فاطمة بنت الخطاب ، كما استوقفني قبلها في قصتك مع أمّ عبدالله بنت حثمة حين كانت تهمُّ بالهجرة ، فأجابتكَ كما أجابتك فاطمة بلهجة القوة والمواجهة دون تردد أو خوف ، مع أننا لو تأملنا حال الإسلام حينها ، حيث كانت الدعوة سرًا ، وحال النساء عمومًا حيث أنهن في الغالب أضعف جانبًا من الرجال ، فهل ترى يا أمير المؤمنين أن لتلك القوة علاقة بالإيمان وما يفعله بالقلب ، أم أنها تتعلق بالطبع الذي حدثتني عنه سابقًا؟

– لا شكّ أن الإيمان مصدر قوة حين يبلغ من اليقين في القلب مبلغه ، ولا شك أن الطبع يغلب على تصرف المرء وبهذا يتفاوت الناس في أحوالهم وأفعالهم ، ولكننا إذ نتحدث هنا عن النساء خصوصًا ، فالمرأة ولا شك أقوى من الرجل عاطفة ، وهذه وإن كانت تبدو في أحايين كثيرة كنقطة ضعف ، إلا أنها في هذا الموضع بالذات نقطة قوة ، ذلك أن الإيمان مصدره القلب ، والإيمان بالله من أقوى العواطف حين يتجلى في كيان المرء ، رجلاً كان أو امرأة ، ولكن النساء أحيانًا يتفوقن على الرجال في هذا ، وقد أعاد كلامك عن قوة ثبات النساء إلى ذاكرتي جارية بني المؤمل ، ذلك أني في جاهليتي قبل أن يدلَّ الله خطاي إلى درب الحقِّ ، كنتُ أعذِّب تلك المرأة المؤمنة الصابرة وأبرحها ضربًا ، فما كانت تحيد عن إيمانها مقدار ذرة ، حتى إذا تعبتُ أنا من ضربها قلت لها : إني أعتذر إليكِ ، إني لم أتركك إلا ملالة ، وما كانت هي لتمل من ما تمسكت به وأيقن به قلبها ، كنتُ أظن في موقفي ذاك أني صاحب القوة والغلبة ، ووالله أني أرى الآن مقدار ما كنتُ عليه من الضعف ، ومقدار ما كانت عليه تلك المرأة من القوة والشجاعة ،

ولولا أن الله فتح إلى قلبي طريق النور لما كانت هزيمتي تلك أمامها لتتجلى لي ، ولبقيتُ على ظني الجاهل بأني المنتصر ، كما هلك أبو جهل على ظنه الجاهل بأنه غلب أم عامر سمية بنت خياط ، حين قتلها فخرجت من الدنيا فائزة ، تُلقب بأول شهيدة في الإسلام ، وخرج منها خاسرًا ، يُلقب بأبي جهل ، فالذي يؤمن بلقاء الله يدرك أن الموت في معركته ضد الكفر ليس هزيمة ، بل هو الفوز ، ولكن ذلك الذي يقاتل النور بالظلام ، سيغرق في عتمته دون أن يدرك أن النور لا يُهزم ، ولا يموت ، وكل من مات في سبيله قد ارتقى إلى منزلة أعلى من الحياة الدنيا بدرجات ، كانت فاطمة بنت الخطاب قادرة على مواجهتي ، أنا الذي عُرف عني شدة البأس وقوة البطش ، ولكنها كانت تعرف أنها على الحق ، وحين يصل المرء مثل هذه الدرجة من اليقين يؤمن بقدرته على الانتصار لا على المواجهة فحسب ، ويطمع أن يأخذ بيد أولئك الغرقى في بحار الكفر إلى شاطئ الإيمان ، إن قوة النساء يا بنيّ في قلوبهن ، وذلك موطن الإيمان ومنبعه .

– إذًا فقد كان للنساء في الإسلام دور لا يقل أهمية عن دور الرجال فيه ، إذ كن يوازين الرجال في الثبات وقد يتفوقن أحيانًا!

– يكفي دلالة على ذلك أن أول من آمن برسول الله ﷺ امرأة ، لم تقف بين شك ويقين حين جاء إليها بما أنزل عليه ربه ، ولم تتردد بين ما اعتاد عليه قومها وبين النبأ الغريب الذي جاء به زوجها ، كان القلب هو الحكم في هذه المسألة ، وحين قال القلب كلمته ، ووقف شاهدًا على أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، اختارت السيدة خديجة رضي الله عنها صفها دون حياد ، وقاتلت بمالها وقلبها وعقلها لنصرة دين الله ونبي الله دون أن تحاول أن تثنيه أو تراجعه ،

أو تُثبط من عزمه ، آمنت به من قبل أن يقول أوحي إليّ ، آمنت به زوجًا وحبيبًا ورفيقًا ، ثم حين قال إني أوحي إليّ ، لم تزد على أن قالت : أبشر يا ابن العم واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة! أبعد هذا الموقف شك في أن المرأة جزء لا يتجزأ من أعمدة الدعوة؟ لم تنتظر أن يقول لها أنا نبي هذه الأمة ، لقد آمنت بأنه كذلك قبل أن يأتي إليها بالأدلة ، ويدعوها للتفكر في ما أنزل إليه ، كان قلبها مهيّأً منذ البداية ليكون وطنًا للإيمان ، ووطنًا لنبي ، لذا أعود وأقول لك إن القلوب أول منازل الإيمان ، وفيها تكون أوثق عراه وأصدقها ، ولهذا جاء الخطاب الإلهي موجهًا للقلوب قبل العقول ، ألا ترى أن الله عز وجل خاطب الكفار بقوله : «لهم قلوب لا يعقلون بها» ، «لهم قلوب لا يفقهون بها» ، «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» ، إنما يعقل الإنسان ويفقه ويرى بقلبه ، وهو يحتاج للرؤية ليفقه ويعقل ، ويحتاج للنور ليرى ، وحيثُ وُجد الإيمان وُجد النور ، ولم تكن خديجة رضي الله عنها إلا أمًا لنساء المؤمنين ، الذين كان منهن كثيرات قدّمن أرواحهن وحياتهن ولم يؤلين جهدًا لاتباع نور الله الذي أضاء في صدورهن ، بل إن منهن من كانت سبّاقة للإسلام ، والهجرة ، حريصة على ألا يفوتها أن تتبوأ أعلى مراتب الإيمان والسبق فيه ، ومنهن أسماء بنت عميس إذ كانت يومًا عند ابنتي حفصة فدخلتُ عليهما فتساءلتُ : من هذه؟

فقالت لي حفصة : هذه أسماء بنت عميس .

فقلتُ : هذه الحبشية البحرية؟

فأجابتني أسماء : نعم .

فقلتُ موجهًا خطابي لأسماء : سبقناكم بالهجرة ، نحن أحق برسول الله ﷺ منكم!

فغضبتْ ، وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله ، يطعم جائعكم ، وكنا في دار البعداء والبغضاء في الحبشة ، وذلك في الله ورسوله . وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً ، حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، فنحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، وأسأله والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

فلما جاء النبي ﷺ قالت أسماء : يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ليس بأحق بي منكم ، ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان!

فما أكثر ما أدهشني من قوة حجتها إلا حرصها على أن تكون أولى برسول الله ، وأن تتبوأ أعلى مراتب العزة في الإسلام ، تلك الهمة العالية والروح السامية التي لم يكن حرصها على منزلة في الحياة الدنيا ، ولم يكن جدالها على مال أو جاه ، بل كان همها الأكبر أن تكون في أقرب منزلة لله ورسوله .

– وهل ولّدت هذه الحدة في الحوار بينك وبين أسماء بنت عميس جفاءً بعد ذلك؟

– لا يا بُنيّ ، أسماء صحابية جليلة ذات دين وعلم ، وقد احتدّتْ في ذلك حبًا منها وغيرة على دينها ، وما كنتُ لأجفو امرءاً أرى منه حرصه على أن يكون من ذوي المراتب العليا في الإسلام ، لا سيما وقد شهد لها رسول الله بالسبق والفضل .

– لقد أثار حديثك هذا الرغبة في نفسي لمعرفة المزيد عن مواقف النساء ودورهن في مضمار الدعوة ، فهلا حدثتني عن النساء اللاتي كان لهن دور بارز في فترة خلافتك ، وكيف كان موقفك أنت من كل ذلك؟

- كنتُ خارجاً من المسجد برفقة الجارود العبدي ، فمررنا بامرأةٍ عجوز ، فسلمتُ عليها ، وردت السلام عليَّ

ثم قالت : هيهات يا عمر ، عهدتكَ وأنتَ تُسمى عميرًا في سوق عكاظ ترعى الضأن بعصاك ، فلم تذهب الأيام حتى سميتَ عمرًا ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميتَ أمير المؤمنين ، فاتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشي عليه الفوت .

- ألم يُغضبك قولها وجرأتها يا أمير المؤمنين؟

- لم يُغضبني ، فحين قال الجارود لها : قد أكثرتِ أيتها المرأة على أمير المؤمنين

قلتُ له : دعها ، أما تعرفها ، فهذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت ، التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، فعمر والله أحق أن يسمع لها ، وإنها ما قالت شيئًا غير الحق ، وما يغضب من سماع الحق إلا ظالم أو جاهل ، وما كنتُ أحب أن أكون ظالمًا ولا أرضى أن أكون جاهلاً ، فلا خير في قوم ليسوا بناصحين ، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين ، وما كانت خولة إلا امرأة عرفت الحقّ وجادلت فيه من قبل ، وجهرت به أمام الله ورسوله ، فسمعاها ، وأنزل الله فيها سورة من القرآن ، وإني بعد هذا لأولى بسماع قولها والوقوف عنده .

- لا أدري والله هل أعجب من موقفك أم من موقفها يا أمير المؤمنين ، غير أني توّاق لسماع المزيد من تلك المواقف فهلّا أذن أمير المؤمنين بهذا؟

- سأحدثك عن المرأة التي أعادتني عن خطئي على المنبر ، فقد أردتُ يومًا تحديد مهور النساء بعد أن رأيتُ مغالاة الناس فيها ،

فصعدتُ المنبر وخطبتُ فيهم قائلاً : ألا لا تغالوا في صدقات النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية .

فقامت إليّ امرأة وقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا! أليس سبحانه وتعالى يقول : «وإن آتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا»

– فما كان جوابك يا أمير المؤمنين؟

– قلتُ : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

– وهل كان من الصواب مراجعتك أمام الناس على المنبر ، ألم يكن أحفظ لمقامك أن تراجعك بينك وبينها؟

– ما كان الإقرار بالخطأ منقصة يا بنيّ ، إنما هو تطهير للنفس وإنزالها منزلها البشري ، وما كان لي وأنا القائل : نعم الجرأة جرأة الرعية في الحق ، أن أرضى أن أكون ممن يمنع الناس الحديث في حقها جهرة ، والنساء في الحق كالرجال ، وإن أحبَّ الناس إليّ من رفع إليّ عيوبي ، وربَّ جرأة أدت إلى صواب خير من صمت أدى لاستمرار خطأ ، فتمادى ليجرَّ أخطاءً ، وإن مثل هذه الجرأة في الحق لا يملكها إلا قلة من الناس ، وكانت الشفاء بنت عبدالله من أولئك القلة .

– أليست هي ذات المرأة التي كانت أول من تولى وظيفة الحسبة في الإسلام؟

– نعم ، هي ذاتها الشفاء بنت عبدالله العدويّة القرشية وقد كانت من عقلاء النساء وفضلائهن ، لها صحبة مع الرسول ﷺ ، وقد أسلمت قبل الهجرة فهي من المهاجرات الأُول ، وكان الرسول ﷺ يزورها ويقيل عندها في بيتها وكانت قد اتخذت له

فراشاً وإزاراً ينام فيه ، وقد أقطعها ﷺ داراً سكنتها مع ابنها سليمان . وكانت تعرف الكتابة في الجاهلية وهو أمر نادر في ذاته ، حتى أنها علّمت ابنتي حفصة الكتابة بناءً على طلب الرسول ﷺ . روت عنه الحديث ، وفي خلافة أبو بكر الصّديق كانت حاضرة فيما يُقرر ويحدث كذلك الحال في خلافتي كانت تحضر مجلسي ، وحين كنت أستشير القوم في القضايا وتتعدد الآراء في المسألة الواحدة أقدّم رأيها وآخذ به ، وكان للشفاء مقر عمل في السوق فهو يمثِّل عصب المدينة ، فإذا ذهبتُ للسوق في أمر لا بدّ لي من المرور عليها ، كانت الشفاء تمثل نموذج المرأة الفاضلة العاقلة التي وددتُ لو أن لنساء المسلمين جميعًا مثل عقلها وهمتها ، فنحن أمة أراد الله لها العزة ، وقد كنتُ حريصاً على أن أرى عزة الإسلام وقوته على المسلمين والمسلمات ، لذلك كان يغضبني أن أرى منهن من تضع من شأن نفسها ، أو تنشغل بصغائر الأمور عن عظيمها ، وكان مما أغضبني أني مررت يومًا ببعض الجواري وهن يضربن بالدف ويقلن :

تغنّين تغنّين فللهو خُلقتنّ

فنهرتهن بالسوط وقلتُ لهن : كذبتنَّ كذبتن فأخزى الله شيطاناً رمى هذا إليكن ، إنما خُلق الناس لأمر عظيم ، رجالهم ونساؤهم ، ومن أجل هذا أيضًا قد منعتُ النياحة والنائحات ، ووالله ما رأيتُ منهن من نائحة إلا كان سوطي إليها أسبق من لساني ، فالنياحة قبل أن تكون عملاً قد حرمه الإسلام ، هي خلق يزري بفاعلته ، وينقص من قدرها .

– إذن لم يقتصر دور النساء على الدين والدعوة فقط بل كان لهن دور في الدولة أيضًا يا أمير المؤمنين؟

– بالطبع كان لهن دور كبير ، إن الدولة لا تقوم على فئة من الناس دون أخرى ، ولكلٍ دوره الذي لا غنى عنه ، فإن كان الرجال هم من يصنع الدول ، فالنساء هنّ من يصنعن الرجال ، ليس بالولادة وحسب ، إنما بالتنشئة والتربية ، حتى وإن بدا هذا الدور غائبًا غير ملموس على أهميته ، إلا أن دور المرأة لم يكن حكرًا على هذا ، بل كان لها وظائفها ومهامها الأخرى ، فالنساء كنّ يرافقن الرجال إلى المعارك والغزوات ، وإن كان الرجال للسيف والقتال ، فالنساء للتضميد والتطبيب ، وكلٌ بحسب قدرته وقوته ، فحين كانت قوة النساء في قلوبهن كان مكانهن خلف الجيش ، يضمّدن الجرحى ويسعفن المصابين ، وحين كانت قوة الرجال في سواعدهم ، حملوا السيوف وخاضوا المعارك .

– رؤية ثاقبة ، وفهم عميق ، والآن هل يأذن أمير المؤمنين أن نوجه قافلة الحديث وجهة أخرى ، أستريح أنا وهو قليلاً من حديث الحكم والناس ، والسياسة والدول ، والرعية والراعي؟

– لكَ من الحديث ما شئت ، فعن أي شيء أنتَ سائلي الآن؟

– عن موضوع شيِّق ، بلغني أن لكَ فيه باعًا ودراية ، وفي المقابل سمعتُ عن هذا أقوالاً يشد بعضها بعضًا أحيانًا ، ويعارض بعضها بعضًا أحيانًا أخرى .

– وما هو؟

– عن الشِّعر!

– إن الحديث عنه لذو شجون ، ولكن أي تعارضٍ تقصد؟

– سأستفسر منك حينها ، ولكن أخبرني بخبركَ مع ابنة هرم بن سنان؟

– وَفدتْ ابنة هرم بن سنان عليَّ يومًا فسألتها : ما الذي أعطى أبوك زهيرًا حتى قال فيه مديحًا ما زالت تحفظه العرب؟

فقالت لي : نسينا ما أعطينا زهيرًا!

فقلتُ لها : ولكن ما أعطاكم زهيرُ لا يُنسى!

– أهذه الحادثة تقصد؟

– أجل

– ما بها؟

– أخبرني من هو هرم بن سنان؟ وما قصدت من قولك لابنته؟

– هرم بن سنان هو سيد غطفان الذي أوقف حرب داحس والغبراء التي دارت رحاها أربعين عامًا بين عبس وذبيان ، فدفع الدِّيات ، وعقد الصلح ، فمدحه زهير بن أبي سلمى على فعله هذا ، فأجزل له هرم بن سنان العطاء! وإني أردتُ أن أعرف خبر هذا العطاء ، ولكنها أخبرتني أنها قد نسيت ما أعطوا زهيرًا نظير مديحه ذاك ، فقلتُ ما تعرف : ما أعطاكم زهير لا يُنسى!

وعنيتُ بهذا أن للأدب سطوة على التاريخ ، فما أملاه الأدب على التاريخ تخلّد إلا قليلاً! فلم يكن هرم بن سنان هو الوحيد الذي عقد صُلحاً بين متحاربين ، ولكن الشهامات تلك اندثرت إذ لم يوثقها الأدب! وما أخذه زهير منهم أنفقَه ، دون أن يدري أحد ما أخذ ، وكيف أنفقه ، أما ما أعطاه فباق بقاء الشعر في صدور الرجال ، تمامًا كما لم يكن صخرٌ هو القتيلَ الوحيد الذي تفجع به أخته ، فلا بد لكل موت من فاجعة ، ولكن أخت صخر كانت الخنساء ، فرثته ، وحمل الناس ذكره جيلاً بعد جيل ، بينما اندثر آلاف القتلى ، وطويت آلاف الفجائع!

– كلام جميل ، يدفعني لأسألك عما يحوك في صدري

– وما هو؟

– لطالما قرأتُ أن موقف الإسلام من الشعر كان مثار جدل ، وقضية ذات أخذٍ وردٍ ، يتجاذب الناسُ أطراف الحديث عنها ، ومردُّ هذا الجدال إلى فهم خواتيم سورة الشعراء فهمًا ظاهريًا ، فاعتبرها كثيرون في معرض الذم للشعر والشعراء ، فهل عندك في هذا خبرًا شافيًا؟

– على الخبير وقعتَ! يا بُنيَّ ، إن الشعر كلام ، والكلام الأصل فيه الإباحة ما لم يحمل معنًى محرمًا! فالقصيدة كأس ومحتواها شراب ، فإن حوى الكأس خمرًا ، فبئس الكأس وبئس الشراب ، وإن حوى ماءً عذبًا ، فنعم الكأس ونعم الشراب ، وأخذ نصٍ على إطلاقه من القرآن وفي السّنة ما يقيده ليس من فهم القرآنٌ في شيء

– فما الذي يقيّده من السنَّة؟

– كان النبي عليه الصلاة والسلام ذواقًا ، يعجبه جزيل العبارة ، ويستوقفه جميل المعنى ، ولما دافع الزبرقان بن بدر عن نفسه في حضرته بأعذب العبارات قال عليه الصلاة والسلام قولته الشهيرة : إن من البيان لسحرًا!

ولم يكن موقفه من الشعر موقف الاستعذاب والاستحسان فقط ، بل إنه قد حضَّ عليه في مواقف كثيرة ، وكان يقول لحسان بن ثابت يُشجعه على الذَّبِّ عن الإسلام : اهجهم وروح القدس معك!

ولما رأى أثر شعر حسان عليهم قال له : إن شعرك عليهم أشدُّ من نضح النَّبل!

وكان عليه الصلاة والسلام لتواضعه ، قد نهانا أن نقف له إجلالاً كما يقف الروم لقيصر ، وكما يقف الفرس لكسرى ، فدخل علينا مرة فما شعرنا بأنفسنا إلا وقد وقفنا له! فغضبَ! وكان عليه الصلاة والسلام إذا غضب عُرف ذلك في وجهه ، فوقف حسان وأنشده :

وقوفي للعزيز عليّ فرض
وتركُ الفرض ما هو مستقيمُ
عجبتُ لمن له عقلٌ وفهم
يرى هذا الجمال ولا يقومُ!

فرضيَ عليه الصلاة والسلام ، وكان بعيد الغضب سريع الرضا!

ولما أهدر دم كعب بن زهير ، جاءه كعب معتذرًا ، وأنشد قصيدته التي يقول في مطلعها :

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ
متَيَّمٌ إِثرها لم يُفد مكبولُ

وأخذ يُنشد حتى بلغ :

نُبِّئتُ أَنَّ رسول الله أَوعدني
وَالعَفُوُ عِندَ رَسول اللَهِ مَأمولُ
إِنَّ الرَسولَ لَنورٌ يُستَضاءُ بِهِ
مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللَهِ مَسلولُ

فخلع بردته وكساها كعبًا!

ولما جاءت الخنساء تُعلن إسلامها بين يديه ، قال لها : إيه يا خُنيس ، أنشديني من حديث صخر!

بل وأكثر من هذا ، كان عليه الصلاة والسلام له آراء نقدية ، يُعطي رأيه بما سمع ، فيذمُّ ويمدح ، وقد قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل ما خلا الله باطل!

ولما سمع عجز البيت :

وألا إن كل نعيم زائل

قال : كذب لبيد ، فإن نعيم الجنة لا يزول

وكان عليه الصلاة والسلام يستعذب شعر أمية بن أبي الصلت ، وكان أمية ردحًا من الزمن من الأحناف ، كورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة ، ولكنه أدرك الإسلام ولم يسلم ، فحفظ له النبي ﷺ عذب شعره ، وصدق مضمونه ، وقال : كاد ابن أبي الصلت أن يُسلم .

وقال مرة لما سمع شعره : آمن شعره وكفر قلبه!

- إذاً ، يا أمير المؤمنين ، الشعر كلام ، ما حسن مضمونه حسُنَ ثوابه ، وما ساء مضمونه ساء جزاؤه ، وأنه ما كان لدين كتابه ينبض بالبلاغة أن يُحارب الشّعر ويجافي الشعراء!

- هو كذلك فعلاً!

- أما إنه واللهِ لقد صدق قولك ، فإني على الخبير وقعتُ ، والآن بعد أن سمعتُ منك خبر الشعر والشعراء مع سيد الناس ﷺ ،

فهل يأذن أمير المؤمنين أن أسمع منه وعنه بعض ما كان منه مع الشِّعر والشعراء؟

- لكَ هذا يا بنيَّ ، فعن أي شيءٍ تريدُ أن أحدثك؟

- في جعبتي الكثير لأسألك عنه ، وإني لأطمع فيك أن تأذن لي أن أفرغ كل ما فيها

- قل يا بنيَّ

- حدثني عن خبرك مع حسان بن ثابت يوم مررتَ به زمن خلافتك وهو ينشد شعرًا في المسجد فنهيته!

- الأمر على ما ذكرتَ ، فإني مررتُ يومًا بالمسجد وحسَّان يُنشد شعرًا فيه ، فقلتُ له : أفي المسجد يا حسَّان؟

فقال لي : كنتُ أنشدُ فيه ، وفيه من هو خير منك!

ثم التفتَ إلى أبي هريرة وقال له : أنشدتكَ الله ، أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول لي : أجب عني! اللهم أيده بروح القدس!

فقال أبو هريرة : نعم

- وماذا فعلت حينها؟

- تركته ومضيتُ

- ما دام رسول الله ﷺ قد أذنَ له أن ينشد الشعر في المسجد ، وما أظن أن هذا الأمر قد غاب عنك ، فلمَ أردتَ أن تنهاه؟!

- ما أردت أن أنهاه تحريمًا للشعر ، ولا تحريمًا لقرضه في المسجد ، ولكني كنتُ أعرفُ تلك الحقبة التي جرى فيها الشعر في المسجد ، وكان الشعر سجالاً بيننا وبين قريش يوم كانت على دينها ، فرأيتُ ذلك من ضرورات تلك الحقبة ، ورغم علمي أن الشيء يبقى على حلته ، رغم تغير الأحوال والظروف ، إلا أنني أردتُ أن يكون المسجد للقرآن والحديث ، وحسبتُ أني بذلك أغلق بابًا إن تركته مفتوحًا على مصراعيه ، أن تصبح المساجد ميدانًا للشعر .

– رأي سديد ، ونظرة ثاقبة على عادتك ، ولكن يا أمير المؤمنين أما كان يجب أن يكون هناك بديل عن هذا المنع؟

– أما إنه كان!

– وكيف ذلك؟

– اتخذتُ مكانًا جانب المسجد يُقال له البطحاء ، ثم قلتُ : من أراد أن يلغط ، أو ينشد الشعر ، أو يرفع صوتًا فليخرج إلى هذه الرحبة

– إذًا لم يكن الأمر موجهًا ضد حسَّان؟

– وما لي ولحسَّان حتى أنهاه عما أبيحه لغيره ، أو آمره بما أنهى غيره عنه ، ذاك رجل ذبَّ عن الإسلام ورسوله ، وكان عندنا مقربًا محظيًا ، نحفظ له ما كان منه ، ولكن هذا ما رأيتُ ، وبقي حسَّان على توقيرنا هذا له ما كنتُ في القوم ، ولم يكن هكذا عندي وحدي ، وكانت عائشة تكره أن يُؤذى حسان ، وتقول عنه :

أليس هو الذي قال :

إن أبي ووالدتي وعرضي
لعرض محمدٍ منكم وقاءُ

– وما خبر أنكَ نهيتَ إنشاد أي شعر عن معارك الإسلام مع قريش حتى في البطحاء التي خصصتها للشعر؟

– أجل فعلتُ ، وقد فعلتُ هذا إكرامًا للطلقاء ، الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، ولم أرَ في ذلك الشعر إلا شتمًا للحي والميت ، وتجديدًا للضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بالإسلام!

- إذًا نهيتَ عن المباح الذي هو الشعر ، تحقيقًا للواجب الذي هو إزكاء المودة وقتل الضغائن بين المسلمين؟

- الأمر على ما قلتَ .

- فأيَّ الشعراء كان يُعجبكَ شعره؟

- كان يعجبني شعر زهير بن أبي سلمى ، وشعر النابغة ، وشعر الخنساء .

- فهل من خبر تحدثني عنه مع كل منهم؟

- أجل هناك من خبر

- فحدثني يا أمير المؤمنين

- حسنًا سأفعل ، فأما النابغة ، فقد خرجتُ ذات يوم وإذا بالباب وفدُ غطفان ، فقلتُ لهم : أي شعرائكم الذي يقول :

ولستَ بمستبقٍ أخاً ، لا تلمهُ
على شَعَثٍ ، أيُّ الّرجال المُهَذَّبُ؟

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين
قلتُ : فمن القائل :

فإنّكَ كاللّيلِ الذي هو مُدْركي
وإنْ خلْتُ أنّ المُنتأَى عنك واسعُ
خطاطيفُ حجنٌ في جبال متينة
تمدّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين

قلتُ : فمن القائل :

إلى ابنِ مُحَرِّق أعمَلْتُ نَفسي
و راحلتي ، وقد هدتِ العيونُ
أتيتك عارياً خلقاً ثيابي
على خوف ، تظنّ بيَ الظنونُ
فألْفَيْتُ الأمانَة لم تَخُنْهَا
كذلك كانَ نُوحٌ لا يخونُ

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين
قلتُ : فمن القائل :

إلاّ سُليمانَ إذ قال المليك لهُ
قُمْ في البريَةِ فاحْدُدْها عنِ الفَنَدِ

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين
قلتُ : هو أشعر شعرائكم!

– ذوَّاق أنت يا أمير المؤمنين! هذا مع النابغة فما خبر زهير بن أبي سُلمى؟

– ذاك واللهِ رجلٌ كان يعجبني شعره ، وما أرى في الجاهلية أشعر منه ، وقد بلغ من إعجابي بشعره أننا كنا يومًا في سفر ، فبينما نحن نسير . . .

– قلتُ للركب الذين معي : ألا تتزاملون؟ أنتَ يا فلان زميل فلان ، وأنتَ يا فلان زميل فلان ، وأنتَ يا عبدالله بن عباس زميلي

وكـان محببًا لي مقربًا مني على حداثة سنه ، لعلمه وورعه ، وقرابته من رسول الله ﷺ ، فتحادثنا ساعة ، ثم أنشدتُ قول حسان :

وما حملتْ ناقة فوق رحلها
أبرُّ وأوفى ذمةً من محمد

ثم قلتُ : يا ابن عبّاس ، ألا تنشدني لشاعر الشعراء؟
فقال : يا أمير المؤمنين ، ومن شاعر الشعراء؟
قلتُ : زُهير بن أبي سلمى
فقال : يا أمير المؤمنين لِمَ صيَّرته شاعر الشعراء؟
فقلتُ : لأنه لم يُعاظل بين الكلامين ، ولا يتتبع حوشي الكلام ، ولا يمدح أحدًا بغير ما فيه!
فأنشدني يومذاك ما شاء الله له أن ينشدني
ثم دارتْ الأيام ، وكنتُ في جماعةٍ من أصحابي ، فتذاكرنا الشعر
ثم سألتهم : من أشعر الناس؟
فاختلفوا أيهم أشعر
فدخل علينا ابن عباس ، فقلتُ لهم : قد جاءكم ابن بجدتها ، وأعلم الناس!
ثم قلتُ له : من أشعر الناس يا ابن عباس؟
فقال : زهير بن أبي سلمى
قلتُ : فأنشدني من شعره

فقال منشدًا :

لو كـان يقـعـد فـوق الشـمـس من كـرم
قــوم بأوّلهـم أو مــجــدهـم ، قــعــدوا
قـــوم أبوهم سنان حين تنســـبـــهـم
طابـوا وطاب مـن الأولاد مــــا ولـدوا
جـنّ إذا فـــــزعــــوا إنـس إذا أمنـوا
مُـــرزّؤون بـهـــاليـل إذا قـــصــــدوا
مـحـسّـدون على مـا كـان من نعم
لا ينزع الله منهم مــاله حُــســـدوا!

– سـابقٌ عـصـركَ أنت يا أمـيـر المؤمنين ، ليس في السـيـاسـة والحكم فقط ، وإنما في الشّعر أيضًا!

– وبِمَ ذلك؟

– ذلك أنَّ النقـاد الذين جـاؤوا بعـدكَ ، وأعـملوا عـقـولهـم في الشِّعر ومقوماته ، وفي القصيدة وبنائها ، أيَّدوا قولك!

– وكيف ذلك؟

– لَمَّا قـرأ أبو عـبـيـدة –وهو لغويٌّ فـذٌّ– قـولك في السـبب الذي صيَّـرت فيـه زهيـرًا أشعـر الشعـراء ، قال : صـدق أميـر المؤمنين ، إن لشعر زهير بن أبس سلمى ديباجة إن شئتَ قلتَ شهدٌ إن مسسته ذاب ، وإن شئتَ قلتَ صخرٌ لو رَدَيْتَ به الجبال لأزالها!

وقـال ابن سـلام –وهو لغوي لا يقل عن أبي عـبـيدة حـصـافـة وتمكنًا– صـدق عـمـر بن الخطاب ، كـان زهيـرُ أحـصـفـهم شـعـرًا ، وأبعـدهم من سـخف ، وأجـمـعـهم لكثـيـر من المعـاني في قليل من المنطق ، وأشدهم بالغةً في المدح!

– ذلك فضل اللهِ يؤتيه من يشاء

– سبحانه عزَّ في علاه ، ولكن أخبرني ما عنيتَ بقولك : لا يُعاظل بين الكلامين ، ولا يتتبع حوشي الكلام ، ولا يمدح أحدًا بغير ما فيه؟

– المعاظلة هي كون الكلام خفيَّ الدلالة عن المعنى المراد به ، بحيث تكون الألفاظ غير مرتبة وفق ترتيب المعاني ، وينشأ ذلك التعقيد من تقديم أو تأخير أو فصل بغريب لفظ بين الكلمات ، التي يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض ، وهو مذموم لأنه يُوجب اختلال المعنى واضطرابه ، من وضع ألفاظه في غير المواضع اللائقة بها ، فالمعاظلة مداخلة الشيء بالشيء ، سواءً كان من جنسه ، أو لم يكن من جنسه وهو غير لائق به ، كفاحش الاستعارة في قول أوس بن حجر :

وذاتُ هدم عــــــار نواشـــــــرها
تصــــمت بالماء تولبًـــا جــــدعًـــا

فسمى الصبيَّ : تولبًا وهو ابن الحمار!

وما يختلُ به المعنى ويكون من المعاظلة تقارب مخارج الحروف في كلمات البيت الوحد ، كقول القائل :

وقَــــبــــرُ حَـــرب بمكان قَـــفـــر
ولَيسَ قُـــربَ قَــبــرِ حَـــربٍ قَـــبـــرُ!

– هذه هي المعاظلة إذًا ، فما حوشيَّ الكلام؟

- الحوشي في الأصل هو المظلم الهائل من الليالي ، وصيَّرها العرب إلى الكلام ، فصار وعر اللفظ وغريبه وإن كان فصيحًا قالته العرب!

- حسنًا فهمتُ ، فما خبرك مع الخنساء؟

- تلك امرأة في الشعر كما قالت في أخيها صخرًا ، علمٌ على رأسه نارُ ، كنتُ أجلّها لعفتها ورفعتها في الجاهلية ، ولأولادها الأربعة الذين قدمتهم شهداءً في القادسية فاحتسبتهم عند الله تعالى ، أما خبري معها ، فقد أقبلتْ تطلب الحج في نفرٍ من قومها ، فجاء من يقول لي : هذه الخنساء ، فلو وعظتها ، فقد طال بكاؤها في الجاهلية والإسلام

فقمتُ إليها وقلتُ : يا خنساء

فقالتْ : ما تشاء وما الذي تريد؟

فقلتُ : ما الذي أقرح مآقي عينيكِ؟

قالت : البكاء على سادات مُضر

قلتُ : إنهم هلكوا في الجاهلية ، وهم أعضاد اللهب ، وحشو جهنّم!

فقالت : فداكَ أبي وأمي يا أمير المؤمنين ، فذلك الذي زادني وجعًا على وجعي!

قلتُ : فأنشديني ما قلتِ

قالت : أما أني لا أنشدكَ ما قلتُ قبل اليوم ، ولكني أنشدك ما قلته السَّاعة!

قلتُ : إذًا قولي

فقالت :

سـقى جـدثاً اكنافَ غـمـرة دونهُ
منَ الغَـيث ديماتُ الـرّبيعِ ووابِلُـهْ
أُعـيـرُهُمُ سـمـعي إذا ذُكَـرَ الأسَى
وفي القلبِ منهُ زفـرة مـا تـزايلهْ
وكنتُ أُعـيـرُ الدّمعَ قـبلَكَ مَن بَكى
فـأنْتَ على مَنْ مـاتَ بَعـدَكَ شـاغِلُهْ

فقلتُ : دعوها فإنها ما تزالُ حزينة أبدًا!

– ألا تلاحظ معي يا أمير المؤمنين أمرًا يجدر أن نتوقف عنده؟

– وما هو يا بُنيَّ؟

– كل هذا الجزع والرثاء لصخر ، كل هذا البكاء والعويل دمعًا وشعرًا ، ولم نجد مثله في أولادها الأربعة ، وأنتَ تعرف مكانة الولد من الأم!

– صدقتَ ، ولعلَّ مرد هذا أنه ليس في موت الجاهلية إلا الموت ، أما موت الإسلام حياة ، كل فقيد عزيز ، ولكن شتان بين أن تفقد فقيدك صريعًا في الجاهلية ، وبين أن تفقده شهيدًا في الإسلام!

– ذكرني كلامك هذا بقصتك مع متمم بن نويرة!

– أجل واللهِ إنَّ فيها ضربًا منها

– فحدثني عن خبرها ، فإني أحبُّ أن أسمع منك ، وإن في الأمر شعرًا فلا نخرج عما نحن فيه

– حسنًا ، فإني محدثك

– وإني لمصغٍ

- رحم الله أخي زيد بن الخطاب ، أسلم قبلي ، وسبقني إلى الله ، أسلم في مكة وكتم إسلامه عني ، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكانت راية المسلمين معه يوم اليمامة ، فلم يزل وهو يحملها نحارًا في رقاب العدو ، مثخنًا فيه ، حتى أكرمه الله بالشهادة ، أذكر وأنا على الشرك كنتُ ذاهبًا إلى دار الندوة لنرى ما نصنع في أمر محمدٍ ﷺ ، فلقيتُ زيدًا في الطريق وكان قد أسلم يومها

فقلتُ له : يا زيد أتصحبني إلى دار الندوة نرى ما نصنع في أمر محمد؟

فقال لي : إن كان الذي تجتمعون له خيرًا فحسب آل الخطاب أن ينال الخير منهم رجلٌ واحد ، وإن كان الذي تجتمعون إليه شرًا فحسب آل الخطاب أن ينال الشر منهم رجل واحد!

كيف لم أفهم مقولته تلك في ذلك اليوم ، رحمه الله ما أبلغه!

- رحم الله أخاك يا أمير المؤمنين ، ما أرى إلا أني هيجتُ حزنك ، وسألتك عن متمم بن نويرة فإذا بك تذكر لي زيدًا!

- لا يُذكر متمم أمامي إلا ذكرتُ زيدًا

- ولمَ يا أمير المؤمنين؟

- ذاك أن متمم بن نويرة قد أتى إلى أبي بكر يشكو إليه قتل خالد بن الوليد لأخيه مالكًا ، وقد دخل علينا المسجد ونحن في صلاة الفجر ، فلما التفتُ فإذا أنا برجلٍ قصير أعور منتكبًا قوسه ، فسألتُ من هذا؟

فقالوا : متمم بن نويرة

فقلتُ له : أنشدني من رثائك أخاك!

فقال منشدًا :

وكنَّا كَنَدْمَــانَيْ جُــذَيمةَ بُرْهةً
من الدهرِ حتى قيل : لن يتَصدَّعا
فلمَّا تفــرَّقْنَا كَــأني ومــالكًا
لطولِ افــتــراق لم نَبِتْ ليلةً مــعًــا

فقلتُ له : هذا والله التأبين ، يرحمُ الله زيدَ بن الخطاب ، إني لأحسب أني لو كنتُ أقدر على قول الشعر لبكيته كما بكيتَ أخاك!

ثم سألته : ما أشدَّ ما لقيتَ على أخيكَ من الحزن؟

فقال : كانت عيني هذه قد ذهبت ، فبكيتُ بالصحيحة فأكثرتُ البكاء حتى أسعفتها العين الذاهبة وجرتْ بالدمع!

فقلتُ : إنَّ هذا لحزن شديد ، ما يحزنُ هكذا أحدٌ على هالك!

فقال : لو قتل أخي يوم اليمامة كما قُتل أخوك ما بكيتُ أبــدًا!

فقلتُ : يرحمك الله ، ما عزَّاني أحد بمثل ما عزّيتني به

– مذهل أنتَ يا أمير المؤمنين ، والله مذهل ، إن المرء ليرى شدتكَ حتى يظن أنكَ لا تلين أبدًا ، ويرى حنانك ولينك حتى يظن أنك لا تشتد أبدًا!

– يا بُنيَّ إنَّ الحزم لا يتنافى مع اللين ، وإن بين الحزم والقسوة شعرة لا يدركها الناس ، وبين اللين والضعف مساحة قلما يستطيع من لانَ أن لا يدخلها فيغدو ضعيفًا ، وأما إني والله كنتُ حازمًا من غير قسوة ، ولينًا من غير ضعف!

– واللهِ لقد كنتَ كذلك! وإني لأعتذر إليكَ عن حزن جددته فيكَ عن غيرِ قصد مني ، فتعالَ نطوي هذه الصفحة ، دون أن نطوي صفحة الشعر

– فلنفعل

– حدثني عن أعرابي سمعتُ أنه سألك الصدقة شعرًا ، فما كان من خبره معك؟

– ذاك أعرابي جاء من البادية يشكو الفاقة ويطلب الصدقة ، فوقف بين يديَّ وقال منشدًا :

يا عـمـر الخـيـر لكَ الجنة
اُكسُ بنيــاتي وأُمَهُـنَّ
أقسمتُ عليكَ لتفعلنَّ

فأردتُ أن أداعبه ، فقلتُ له : فإن لم أفعل؟
قال :إذًا أبا حفص لأذهبنَّ!
فقلتُ : وإذا ذهبتً ماذا ستفعل؟
فقال : والله لأشكونّه
قلتُ : لمن؟
قال : ليوم تكون الأعطيات فيه هُنَّ
إما إلى نار وإما إلى جنّة!
فقلتُ : : أعطوه ما طلب لحر ذلك اليوم لا لشعره!

– حديثكَ عذب ، وخبرك حلو ، لا يملُّ منك المرء أبدًا ، فأسأل الله أن لا تملَّ مني!

– أما زال في الشعر شيء أنت سائلي عنه؟!

- ما زال هناك أشياء يا أمير المؤمنين ، فلا يُعثر عليك كل يوم
- فقل إذًا
- حدثني عن خبر النجاشي مع الحارثي بن العجلان!
- النجاشيِ هذا لقبٌ لرجل يقال له قيس بن عمر ، هجا بني العجلان ، فجاء الحارثي إليَّ شاكيًا إياه

فقلتُ له : ماذا قال فيكم؟

فقال :

إذا الله عــــــادى أهـل لـؤم وذلـةٍ
فعادى بني العجـلان رهطً ابن مقبل

فخلعتُ عني رداء درايتي بالشعر ، ولبستُ عباءة القضاء ، وأردتُ أن أدرأ الحدود بالشبهات!

فقلتُ له : هذا دعاء ، والله لا يعادي مسلمًا!

فقال لي : يا أمير المؤمنين إنه يقول :

قـــبـــيلة لا يغـــدرون بذمـــةٍ
ولا يظلمــون الناس حــبـًــة خــردلِ

فقلتُ له : ليتَ آل الخطاب كلهم كذلك ، وإني والله لأعرف ما الذي أراد أن يقوله فيهم ، فإن العرب تُكني عن عدم الظلم بالجُبن ، وقد أراد أن يقول أنهم قوم جبناء ، ولكن للبيت معنيان ، معنى قريب يُفهم من ظاهره وهو ليس المراد ، ومعنى بعيد يُفهم من ثنايا الكلام ، وما كان لي وفي الأمر حدٌّ وتعزير أن أدع المعنى الظاهر وآخذ الرجل بالمعنى البعيد الخفيَّ ، فقلتُ له دارئًا الحد بالشبهة : ليت آل الخطاب كلهم كذلك!

فقال : يا أمير المؤمنين إنه يقول فينا :

تعــاف الكلاب الضــاريات لحـومــهم
وتأكـل من كـعـب بن عـوف ونهـشلِ

فقلتُ له : أجنَّ القوم موتاهم ، كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه! وإني والله لأفهم الذي أراد من قوله هذا ، أراد أن يهجوهم فيقول إن الكلاب إذا عثرت على جيفة أحدهم أنفتْ أن تأكله لنتنه وخبثه ، بينما إذا عثرت على كريم من بني نهشل أكلته! وقولي له أجنَّ القوم موتاهم أي حفروا لهم عميقًا في التراب كي لا تستخرجهم الكلاب والضواري ، فأخذتُ المعنى القريب هذه المرة كما أخذته في المرّة السابقة ، ودرأتُ الحدَّ بالشبهةِ مجددًا!

فقال : يا أمير المؤمنين إنه يقول فينا :

ولا يـردون الماء إلا عـــــشـــــيـــــة
إذا صـــــــدر الـورَّادُ عـن كـل مـنـهـل

فقلتُ له : ذلك أصفى للماء وأقل للزحام!

وإني لأفهم أيضًا ما الذي أراد من قوله هذا ، أراد أن يقول أنهم قوم ضعفاء ، لا يستطيعون أن يسقوا خرافهم عندما يسقي الناس ، فينتظروا أن يفرغ القوم من سقيا قطعانهم ، حتى إذا كان الماء وفرغ الناس ، جاؤوا هم فسقوا ، فأخذتُ بالمعنى القريب وتركتُ المعنى البعيد ، دارئًا الحدَّ بالشبهةِ!

فقال : يا أمير المؤمنين إنه يقول فينا :

ومـا سـمي العـجـلان إلا لقـولهم
خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقلتُ له : كلنا عبد ، وخير الناس أنفعهم للناس ، وإني والله أفهم أيضًا ما الذي أراد من قوله هذا ، أراد أن يقول أنهم ذيلٌ في الناس ، خدم لهم ، صنعتهم حلب الشياه ، وجلب الماء ، وجمع الحطب ، وكل ما يفعله العبيد لساداتهم! ولكني مرةً أخرى أردتُ أن أدرأ الحد بالشبهة ، فأخذتُ المعنى القريب وتركتُ البعيد ، وهذا رأس القضاء!

قال : يا أمير المؤمنين ، إنه يقول فينا :

أولئك أولاد الهـجين وأسـرةُ الـ
لئـيم ورهط العـاجـز المتـذللِ

فقلتُ : أما هذا فلا أجد له صرفةً ولا عذرًا

– فماذا فعلتَ حينها؟

– حبسته ، وضربته ، ثم أطلقته وأنذرته لئن عاد لمثلها لأضاعفن له العقاب!

– هل يأذن لي أمير المؤمنين أن أعيده حيث قال : الحزم لا يتنافى مع اللين؟

– أما انتهينا منها؟

– بلى ، بلى ، ولكن ما قصدته قصة تجمع بين الحزم واللين؟

- وما هي؟
- ما دار بينك وبين الحطيئة
- أما إني أذكر ما جرى كما لو أنه حدث الساعة
- فهلا حدثتني بما كان منكما؟
- أحسب من سؤالك أنك تعرفُ عما جرى
- حين كنتَ غائبًا ، كنت أرضى أن أسمع عنك ، أما الآن فلا أرضى إلا أن أسمع منك ، إن للقصة منك طعمًا خاصًا
- حسنًا إذن ، فإني محدثك بالذي كان
- كلي آذان صاغية
- دعني أولاً أعرّفك بشخصيتين لا بد أن تعرفهما عن قرب ، لتدرك أبعاد ما حدث ، فالقصة لم تبدأ بيني وبين الحطيئة ، وإنما انتهت بيني وبينه!

أما بدايتها فكانت بين الحطيئة والزبرقان بن بدر .

فأما الحطيئة فهو جرول بن مالك ، والحطيئة لقبه ، ولقب به لقصر قامته ، أدرك الجاهلية ، وتأخر إسلامه إلى زمن أبي بكر ، وكان ذا لسان لاذع ، له في الهجاء باع طويل ، وقلما ينجو من هجائه شخصٌ عرفه! هجا أباه وأمه وخاله وعمه ، ثم يوم لم يجد من يهجوه هجا نفسه! وكان هذا قبل إسلامه ، فقد قال هاجيًا أمه :

تنحي فاقعدي عني بعيدًا
أراح الله منك العالمينا
أغربالاً إذا استودعت سرًا
وكانونًا على المتحدثينا
جزاك الله شرًا من عجوز
ولقاك العقوق من البنينا

وهجا أباه وعمه وخاله قائلاً :

لحـــاك الله ثم لحـــاك حـــقًـــا
أبًا ولحــــــاك من عم وخــــــالِ
فنعم الشــــيخ أنتَ لدى المخـــازيً
وبئس الشـــيخ أنتَ لدي المعـــالي

وهجا نفسه قائلاً :

أبت شـفـتـاي اليـوم إلا أن تتكلمـا
بشـــرٍّ فـــمـــا أدري لمن أنا قـــائله؟
أرى لي وجـــهـــا شـــوَّه الله خلقـــه
فـــقـــبح من وجـــه وقـــبح حـــامله

هذا هو الحطيئة ، أما الزبرقان بن بدر ، فهذا لقبه ، ولُقب به لشدة جماله ، كان سيدًا في الجاهلية ، رفيع القدر في الإسلام ، وفد على رسول الله ﷺ ، فأسلم وحسن إسلامه ، وولاه رسول الله ﷺ على صدقات قومه ، وحين ارتد الناس بعد وفاة النبي ﷺ ثبت مع قومه على الإسلام ، وجاء بصدقات قومه إلى أبي بكر ، فأقره على صدقات قومه كما كان في عهد رسول الله ﷺ ، وكذلك فعلتُ أنا في خلافتي .

هذان هما بطلا قصتنا ، أما القصة فبدأت في زمن القحط الذي أصاب المدينة زمن خلافتي ، فخرج الزّبرقان بن بدر بصدقات قومه آتياً المدينة ليدفعها إليَّ ، فالتقى الحطيئةَ وهو في الطريق ،

وكان يصحبُ أهله يريد العراق ، فعرف الزبرقان الحطيئة ، ولكن الحطيئة لم يعرفه .

فسأل الزبرقان الحطيئة : أين تريد؟

فقال : أريد العراق

فقال الزبرقان : ما تصنع هناك؟

فأجاب : أصابنا الجدب ، وأردتُ العراق لعلّي أصادف هناك رجلاً يكفيني مؤونة عيالي ، فأصبُّ عليه مديحي!

فقال الزبرقان : فهل لكَ في رجلٍ يوسعك تمرًا ، ولبنًا ، ويحسن جوارك ويكرمك؟

فقال الحطيئة : ومن هو؟

فقال الزبرقان : أنا .

سأله الحطيئة : ومن أنت؟

قال : الزبرقان بن بدر

فسأله الحطيئة : فأين دارك؟

فقال : اركب هذه الإبل ، واستقبل الشمس ، واسأل من تُصادف حتى تبلغ منزلي ريثما أعودُ مما خرجتُ لأجله .

وسار الحطيئة على الدرب التي وصفها له الزبرقان حتى وصل ، فأكرمتهم زوجته ، وأحسنت جوارهم ، فعلم بذلك آل شماس وكانوا ينافسون الزبرقان على الشرف ، وعلموا أن مدح الحطيئة للزبرقان قد طار خبره بين العرب ، فأرسلوا إلى الحطيئة كي يأتيهم ، فأبى أول الأمر أن يتحول عن جوار الزبرقان ، فدبروا مكيدة ، وذلك أن أرسلوا من يخبر زوجة الزبرقان أنه ينوي أن يتزوج بابنة الحطيئة مُليكة التي كان يُكنى بها ، فظهر منها ما يظهر من النساء في هذه المواقف ، فكان منها جفوة للحطيئة وأهله .

ثم أرسل آل شماس إلى الحطيئة يمنونه ويعدونه أن يكرموه إذا جاء إليهم

فقال لهم الحطيئة : إنَّ من عادة النساء التقصير والغفلة ، ولستُ بالذي يحملُ على زوجها ذنبها .

فألحوا عليه ، ومع ما ظهر من جفوة زوجة الزبرقان ، انصاع الحطيئة إليهم ، وانتقل إلى جوارهم ، فنصب آل شماس له قبة عظيمة ، وأكثروا له من التمر واللبن ، وأعطوه ناقة حلوبًا ، وكسوة .

فلما عاد الزبرقان ، سأل عنه ، فأُخبر بالقصة ، فركب فرسه ، وأخذ رمحه ، حتى نزل بباب آل شماس نادى عليهم وقال : ردوا عليَّ جاري

فقال له بغيض بن عامر بن شماس : هو ليس بجار لك وقد ضيّعته!

فكادت تكون بينهم حربٌ لولا تدخل أهل العقل من القومين

فقالوا لبغيض : ردَّ على الزبرقان جاره

فقال : لا أخرجه وقد آويته ، ثم إنه رجل حر فخيروه

فسُئل الحطيئة عن رغبته فاختار بغيضًا

فجاء الزبرقان حتى وقف عند الحطيئة وقال له : يا أبا مليكة ، أتحولت عن جواري لذمٍّ وسخط

فقال الحطيئة : لا

فتركه الزبرقان ورجع

فمدح الحطيئة آل شماس ولكنه رفض أن يهجو الزبرقان ، وكان آل شمس يُلحون عليه أن يفعل ، وهو يقول لهم : لا ذنب للرجل عندي ، فما زالوا به حتى قال فيه :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فجاءني الزبرقان يشكو هجاء الحطيئة له
فقلتُ له : ما أرى في الأمر هجاءً
فقال : يا أمير المؤمنين أيكفيني من المروءة أن أُطعم وأُكسى؟
فأردتُ أن أتثبت ، ولأن الأمر شعر ، أرسلتُ بمن كان به خبيرًا .
– لمن أرسلت؟
– أرسلتُ في طلب حسّان بن ثابت ، فأخبرته ما قال الحطيئة في الزبرقان
ثم سألته : أهجاه يا حسان؟
فقال : لم يهجه فقط ، وإنما سلح عليه ، أي بال!
– فماذا فعلتَ؟
– سجنت الحطيئة ، وتوعدته أن أقطع لسانه
– وماذا كان بعد ذلك؟
– أنشد الحطيئة يستعطفني بأولاده الجياع الذين لا كاسب لهم سواه
– فما قال في شعره يومذاك؟
– قال :

مَاذَا تقول لأِفْراخ بذي مَرَخٍ
حمرِ الحواصِل لا ماءٌ ولا شجرُ
غَيَّبْتَ كَاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلاَمُ اللّه يا عُمَرُ
أنتَ الأمِينُ الذي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِه
أَلْقَتْ إلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهَى البَشَرُ
لم يؤثروك بها إذْ قدَّموك لها
لَكِنْ لأنفُسِهِم كانت بها الإِثَرُ

– فما كان منك بعدها؟

– رقّ قلبي له ، وأدمعت والله عيناي ، فأمرتُ بإخراجه ، فجاء معتذرًا أن الهجاء طبع فيه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إني هجوت من قبل أمي وأبي وعمي وخالي ونفسي!

فقلتُ له : وما قلتَ يوم ذاك . فأنشدني ما ذكرتُ لك من أبياته أول القصة .

– فما فعلت بعد ذلك؟

– قلت له : إياك وهجاء الناس

فقال : إذًا يموت عيالي جوعًا ، فهذا كسبي ومنه معاشي!

فقلتُ : فإياك والمقذع من القول

قال : وما المقذع؟

قلتُ : أن تُخاير بين الناس ، فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان .

فقال : أنت والله أشعر مني!

– ثم ما كان بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– اشتريتُ منه أعراض المسلمين!

– وكيف ذلك؟

– أعطيته ثلاثة آلاف درهم ، وأخذتُ عليه عهدًا أن لا يهجو مسلمًا .

– يا لهذا النبل يا أمير المؤمنين ، ما سمعتُ من قبل أحدًا يشتري أعراض الناس

– يا بنيّ ، إن الناس أمانة عندي ، وضعهم الله بين يدي ، وهو ناظر ما أنا فاعل بما استأمنني عليه ، أفأدفع الجوع عن بطونهم ، ولا أدفع الألسنة عن أعراضهم؟

– بلى واللهِ تفعل ، أتذكر يا أمير المؤمنين قولي لكَ حين طلبتُ أن تخبرني بهذه القصة ، فقلتُ جمعتَ فيها الحزم واللين

– أجل أذكر

– فهذا والله الحزم واللين ، فإنك لم ترضَ أن يُهجى مسلم ، وانتصرتَ له ، ولكنك بالمقابل اكتفيت من العقاب بما يؤدب لا بما يُهلك ، رققت لحاله وحال عياله ، فأطلقته بعد أن رسمت له الطريق الذي يسير عليه في شعره ، ولما عرفت أنه لا يُحسن غير هذا ، اشتريتَ منه أعراض المسلمين ليكف عنهم .

– ذلكَ فضل الله يؤتيه من يشاء ، فأخبرني الآن ، أما ترى أننا أطلنا في حديثنا عن الشعر والشعراء؟

– بلى والله قد فعلنا

– فهل ما زال عندك شيء أم اكتفيتَ؟

– اكتفيتُ من الشعر ولم أكتفِ منك ، وما إن نطوي هذه الصفحة حتى نفتح غيرها ، فهل يأذن أمير المؤمنين؟

– قد أذنتُ ، فقلْ!

– ائذن لي إذن يا أمير المؤمنين وقد خرجنا من باب الشعر أن نطرق بابًا قريبًا منه ، وهو باب العاطفة ، ومن خلال هذا أريد أن أسألك عن مقولة قلتها لأحد رعاياك حين جاء يستأذنك في طلاق امرأته . .

– عن أي مقولة أنت سائلي؟

– قولك : وهل كل البيوت بنيت على الحب؟! فأين المروءة والذمة؟!

– نعم . . هذا ما قلته آنذاك . . إذ جاء الرجل يستأذن في طلاق زوجته ، فسألته : فيمَ ذلك؟ فكان جوابه أنه لا يحبها

فـقلتُ لـه : أوكل البـيـوت بنيت على الحب؟! فـأين الرعـاية والتذمم؟!

– إذن فـالحب ليس شـرطًا في استـمرار الزواج ، وليس أسـاسًـا في علاقات الزواج؟!

– ليس شرطًا ، إن قوام البيوت الأمانة والذمة وحسن المعاشرة وفهم المسؤوليات والقيام بها ، وإنما كان الزواج سكنًا ورحمة ، فإن لم يأتِ بذلك السكن وتلك الرحـمـة الحب فلتـأتِ بهـا الإنسـانـيـة ، والخـوف من الله ، فكلكم راعٍ وكلكم مـسـؤول عن رعـيـتـه ، ومن الرعاية أن لا يُخرج رجل امرأتَه من بيته فقط لأنه لا يحبها ، ومن المسؤولية أن لا يهدم الرجل بيته لأن عاطفته قاصرة عن الشعور بامرأة صارت تحت جناحه ، والحب بين الأزواج ليس غاية في ذاته ، إنه إن كان فمرحبًا وخير ، وإن لم يكن فلا تنهار بغيابه العلاقة التي قامت حين قامت لمآرب أخرى ، وإن فرضنا جدلاً أن غياب الحب يهدم البيوت ، فهل كان سيظل بيت واحد من بيوت المسلمين قائم وعامر بأهله؟ إن الرجل ليتزوج المرأة ولا يعرف عنها إلا ما ظهر له منها أو سمعه عنها ، وإن المرأة كذلك ، وقد يبدو هذا الفضول لمعرفة الآخر في البداية حبًا ، ولكن المعرفة التي تأتي بها العشرة ، وتعاقب الأيام عليـهـما معًا ، والمواقف بمرارتها وحلاوتها ، هي التي تكشف للمرء ما هو عليه زوجه ، وبذلك قد يرى منه ما ينفره أو يدرك من طباعه ما يجعله عازفًا عنه ، أو لا يعود يجد في قلبه ما كان يجده أول الأمر ، وهذا ما يصير إليه معظم الأزواج ، فهل يكون الطلاق أم يكون غض الطرف عن المساوئ والإبقاء على الباعث الأول للزواج ، وهو تهذيب الغرائز ، وإنجاب الأولاد ، وتربية النشء ، وقيام الرجل بأهل بيته ، وقيام المرأة كذلك بما هي عنه مسؤولة ، ومخافة الله من قبل الطرفين قبل هذا في أداء ما عليه أمام الله .

– ولكن الله أباح الطلاق يا أمير المؤمنين ولم يخص به أسبابًا عن أخرى ، فهو للرجل إن لم يرغب بالمرأة ، وللمرأة كذلك الخلع إن لم تُطق الرجل ، كما حدث مع امرأة ثابت بن قيس حين أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام

فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته

قالت : نعم

فقال رسول الله ﷺ : أقبل الحديقة وطلقها تطليقة

أليس معنى هذا أن عدم الحب وحده يكفي للفراق بين الزوجين؟

– الطلاق مباح نعم ، والدين أحله ، ولم أقل ذلك للرجل مفتيًا بل ناصحًا ومنبهًا ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ، إن الدين إن سكت عن أمور فذلك لأنه يترك للإنسان مساحة من الحرية في أن يختار على أي درجة من درجات التقى يريد أن يكون ، لهذا جُعلت الجنة درجات ، وكان عبور الصراط درجات ، وكانت النار كذلك درجات ، وإن بين الحلال والحرام مساحة كافية لنحدد في أي درجة نريد أن نكون ، وقد يسكت الدين عن أشياء ، ليترك المروءة تتحدث ، ويترك حسن الخلق يتحدث ، ويترك العفو يتحدث ، ألا ترى أن الدين أباح لذوي المقتول القصاص من القاتل ، ثم رغّب في العفو بعد ذلك ، دون أن يأمر به ، «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» ، أما ترى أنه وضّح حقوق الناس بعضهم على بعض ، وجعل لها أحكامًا وفرائض ولكنه قال إثر ذلك : «فمن عُفيَ له من أخيه شيءٌ فاتباع بمعروف» ، إن لبَّ الأمر وجوهره ليس في حرمته

وحلّــه بل في موقف المرء حين يُترك له الخيار ، فإما أن يختار أن يكون نبيلاً فينظر في حاجة الآخرين ، فإن رأى في نفسه سموًا ترك ما له لأن فيه ضررًا لغيره ، وإلا تصرف بما يحل له دون أن ينظر في ما قد يلحق بغيره من أذى ، فلم ينقص ذلك من دينه شيئًا ، غير أنه نقص من مروءته ، ثم إن عدم الحب لا يعني الكراهية ، إن لم يكن ثمة كراهية فالتعايش سهل وممكن ، وإن لم يكن ثمة كراهية ولم يكن ثمة حب أيضًا فليكن التحبب .

- التحبب!

- أجل يا بُنيَّ ، تحبب المرأة لزوجها من حسن التبعل الذي أُمرت به ، كما أمر الرجل بحسن العشرة والإمساك بالمعروف ، وهو مما يُحقق المودة والرحمة في البيوت ، فالمرأة التي لا تجد في قلبها شيئًا لزوجها يحق له عليها أن تتظاهر كأن قلبها راضٍ ومحب له ، فلا تُظهر النفور منه والسخط عليه لأن ذلك أدعى للفُرقة ونشر الشحناء في البيت ، ولا يحقق الغاية التي من أجلها كان الزواج ، فلا يجد الرجل في المرأة إن هي أظهرت منه نفورًا غير شعوره بالعداوة إزاء تصرفها ذاك ، فتخرج من كونها رفيقة له إلى كونها عدوة ، وتتبدد بذلك الألفة ، والسكينة ، ولا يعود في قلب أيّ منهما رحمة ولا توقير للآخر ، ومن ذلك خبر ابن أبي عزرة الدؤلي ، وكان في خلافتي قد أكثر من طلاق النساء اللاتي يتزوجهن ، فطار له في الناس من ذلك أحدوثة فكرهها ، فلما علم بذلك ، قام بعبد الله بن الأرقم حتى أدخله بيته ، فقال لامرأته ، وابن الأرقم يسمع : أنشدك بالله ، هل تبغضينني؟

فقالت امرأته : لا تناشدني

قال : بلى

فقالت : اللهم نعم

فقال ابن أبي عزرة لعبد الله : أتسمع؟

ثم انطلق حتى أتى إليَّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، يحدثون أني أظلم النساء ، وأخلعهن ، فاسأل عبدالله بن الأرقم عمّا سمع من امرأتي

فسألتُ عبدالله ، فأخبرني

فأرسلتُ إلى امرأته ، فجاءت ، فقلتُ لها : أنتِ التي تحدثين زوجك أنك تبغضينه؟

فقالت لي : يا أمير المؤمنين ، إني أول من تاب ، وراجع أمر الله ، إنه يا أمير المؤمنين أنشدني بالله فتحرجتُ أن أكذب ، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟

فقلتُ : نعم ، فاكذبي ، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدًا ، فلا تحدثه بذلك ، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب ، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام ، والإحسان!

– إذن فكذبُ المرأة على زوجها يباح!

– لا يباح الكذب إلا في موضع إصلاح ، كالموضع الذي ذكرتُ ، إذ أن الصدق هنا يجلب خرابًا ، فإن كان من حسن الصحبة إظهار الجميل وستر القبيح ، فستر ما هو مستور أولى ، مثل أن تخفي امرأة عن زوجها ما إن أبدته لولّد الشقاق والبغضاء بينهما ، وإن كانت المرأة مأمورة بالتجمل لزوجها فالكلام الحسن شطر من التجمل ، وحتى أنه قد يكون من أفضل التجمل ، ذلك أن اللسان البذئ الذي لا يتورع عن قول ما يسوء سامعه من الكلام ، يُزري بصاحبه ، وقد جُبل الإنسان على الانقياد للقول اللين ، وسماع الجميل منه ، وهو مفتاح القلوب إن عرف صاحبه

متى يقوله وبأي نبرة يوصله ، فإن لم تكن ممن وُهب فصاحة القول وحسن الخطاب فأمسك عليك لسانك ، وهذا من الآداب العامة بين الناس ، الذين قد يلقى أحدهم الآخر مرة في العمر ، فكيف بالرجل مع أهل بيته الذين قد يقضي معهم كل العمر!

- صدقتَ وأحسنت القول يا أمير المؤمنين ، فهل لي أن أسألك عن بعض حال البيوت حين كنت خليفة المسلمين ، وبعض الأخبار التي رأيت منها ما يصلح أن يكون درسًا فإني أرى في رأيك رشدًا وصلاحًا .

- إن البيوت مختلفة عن بعضها اختلاف الناس عن بعضهم ، فهي تصلح بصلاح أصحابها وتفسد بفسادهم ، وقد يختلط فيها الصلاح بالفساد ، اختلاط الناس ببعضهم ، صالحهم وفاسدهم ، ولكنها ستر لأهلها ، لا تُظهر منهم إلا ما أظهروه هم من أنفسهم ، ولا تكشف عنهم إلا ما كشفوه هم عن أنفسهم ، ولا تفضح إلا من سعى للفضيحة ، ولا تشرع أبوابها إلا حين يُشرعها أصحابها ، وإني كنتُ في خلافتي قد جعلتُ لي من الليل سترًا لأخرج للعسس ، فأتفقد حال الناس ، وأنظر في شؤونهم ، وأقف على ما يجب عليَّ الوقوف عليه من مشكلاتهم ، فالليل الذي يستر صور الناس بظلمته ، يكشف أحاديثهم وأصواتهم بهدوئه ، فكان لي في ذلك وسيلة لمعرفة بعض ما خفي عليَّ من أحوالهم ، وإني ذات ليلة بينما كنتُ بمحاذاة بعض البيوت في طريقي أثناء العسس ، إذ تناهى إليَّ صوت امرأتين ، ففهمتُ من خطابهما لبعضهما أنهما أمٌّ وابنتها ، وقد كانت الأم تأمر ابنتها قائلة : اخلطي اللبن بالماء يكثر ، فيكثر بيعه ، فاستوقفني الحديث ، فبقيتُ لأعرف إلى ماذا قد يؤول ، فجاء جواب البنت لأمها أنها لن تفعل ،

وأضافت قائلة : لقد نهى أمير المؤمنين عن خلط اللبن بالماء! فقالت الأمُّ محاولة إقناع ابنتها : ولكن عمر لا يرانا! حينها أجابت البنت : ولكن الله يرانا!

– ما أروع هذا الجواب يا أمير المؤمنين! فماذا صنعتَ في أمرهما؟

– رأيتُ أن أمثال هذه البنت قلة ، أولئك الذين يراقبون الله في أفعالهم قبل مراقبة الناس ، فأعجبني هذا منها ، وقررتُ أن أجعلها زوجة لأحد أبنائي ، فلمثل هذا تُخطب النساء! فما كان مني إلا أن جعلتُ على بيتها علامة كما أفعل لأقتفي أثر البيوت التي أنوي العودة إليها نهارًا ، لحل مشكلة أو تفقد حال ، ولكني أردتُ العودة هذه المرة لأني رأيتُ فيها ما يستحق أن تكون زوجة وأمًا ، فجمعتُ أبنائي وأخبرتهم بخبر هذه الفتاة ، وسألتهم أيهم يريدها زوجة ، وإن لم يكن بها منهم من راغب تزوجتها أنا! فتزوجها عاصم ، وكانت نِعم المرأة ونعم الزوجة!

– فنعمَ ما فعلتَ يا أمير المؤمنين ، فهل ما زال في جعبتك من أخبار العسس ما تخبرني به؟

– أجل ، هناك المزيد من الأخبار . . فالناس في الليل يُظهرون ما كان خافيًا منهم في النهار ، يُشجعهم ستره ، وتدفعهم وحدتهم ، ويشعرون بقربهم من خالقهم ، فيبثونه شكواهم ، ومن ذلك أني مررتُ ليلة فإذا بصوت امرأة تُنشد في هدأة الليل :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه
وأرّقني أن لا حبيب ألاعبه
فوالله لولا الله أني أراقبه
لحُرِّك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يصدني
وإكرام بعلي أن تُنال مراتبه

فسألت ابنتي حفصة : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟

فقالت : ستة أشهر ، فأمرتُ ألا يُحبس الجيش أكثر من هذا .

– إن حرصك هذا على رعيتك يا أمير المؤمنين لا يقل دهشة عن ورع هؤلاء النسوة ومراقبتهن الله ، وإن هكذا خليفة لخليق بأن يكون له هكذا رعية ، ولكن خطر لي سؤال أرجو أن يكون محل قبول لديك!

– عن أي شيء سؤالك؟

– بالعودة إلى حديث الأم وابنتها ، ونحن في معرض الحديث عن البيوت ، أليس من الغريب أن تأتي النصيحة بالمراقبة ومخافة الله من البنت لأمها ، بينما كان الأولى أن تكون الأم هي الناصحة والمقوّمة ، فهي المربية وهي القدوة ، فهل ترى أن الصلاح في الأبناء لا يرتبط بصلاح والديهم ، وإن تبادل الأدوار هنا لا يستدعي منا وقفة تأمل وتساؤل؟

– يا بنيَّ ، إنما الآباء والأمهات بشر ، لا يبلغون العصمة ببلوغهم مقام الأبوّة ، ولا ينالون القداسة بنيلهم البنين والبنات ، والصلاح حين يهتدي لقلب امرئ فإنه لا يسأل عن عمره ، والحكمة حين تستدل إلى عقل لا تنتظر أن يغزو الشيب رأسه ، وإنها الهداية التي حدثتك عنها من قبل ، نعم للتربية دور لا يُستهان به في استقامة الأبناء ، أو إعوجاجهم ، ولكن مفعول التربية إلى قدر معين ، ثمة شيء يولد مع الإنسان هو طبعه ، وقابليته للخير والشر ، ولا بد من ميل مسبق إلى الطريق الذي يختاره الإنسان في حياته ، ميل ينبع من الروح ، مهما غيرت التربية والتنشئة مجراه ، إلا أنه يعود إلى طريقه في آخر الأمر ،

وما كان صلاح الأبناء منوطًا بصلاح آبائهم ، وإلا ما كان إبراهيم عليه السلام نبيًا وأبوه آزر من المشركين ، ولا كان صلاح الآباء حصنًا للأبناء من الضلال ، وإلا ما نجى نوح بقومه من الطوفان بينما كان ابنه من المغرقين ، هذه نماذج من بيوت الأنبياء فكيف بمن دونه ، ونحن بهذا لا ننفي أثر الآباء والأبناء بعضهم على بعض ، ولكن يد الله هي اليد الأعلى في هذا ، وقلب الإنسان بوصلته ، وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن أدارت يد الله هذه البوصلة إلى درب النجاة فلا يمكن لرياح التربية وحتى عواصفها أن تُحيد بوجهة هذا القلب إلى طريق الضلالة .

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، ولهذا نرى في الأمر الإلهي بالطاعة للوالدين استثناءً وحيدًا «وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لكَ به علم فلا تطعهما» وهو بهذا يوضح لنا كيف أن حق الوالدين العظيم في البر لا ينفي عنهما كونهما قد يدفعان الأبناء لطريق غير سوي ، وأنهما قد يكونا من أهل الضلال!

– صحيح ذلك ، وقد وضع الله لذلك حقوقًا وواجبات للآباء تجاه الأبناء والعكس ، ليحفظ لكل فئة منهم حقها ، ولا يترك كفة لترجح على الأخرى ، فتختلط الضلالة بالهدى ، ويطغى ذو الحق الأكبر على من أُهمل حقه!

– إننا قد عرفنا حق الآباء على الأبناء ، فما حق الأبناء على الآباء؟

– سأذكر لك في هذا المضمار خبرًا ، فهو أدعى لتقريب المعنى ، فمن ذلك أن رجلاً جاءني يومًا يشكو عقوق ابنه ، فدعوت بالابن ، فأتى

فسألته : لِمَ عققت أباكَ؟

فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه؟

فقلتُ : بلى

فقال : فما هي يا أمير المؤمنين؟

فقلتُ له : أن ينتقي أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلّمه الكتاب ، أي «القرآن « .

قال الولد : يا أمير المؤمنين إنّ أبي لم يفعل شيئًا من ذلك ، أما أمي فإنها زنجيّة كانت أمة لمجوسي ، وقد سمّاني جُعْلاً أي «خنفساء» ، ولم يعلّمني من الكتاب حرفاً واحداً!

فالتفتُ إلى الرجل وقلتُ له : جئت إليّ تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقّك ، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك!

- فكيف يكون اختيار الرجل لزوجته حقًا من حقوق أبنائه؟

- هذا حق الابن قبل أن يكون له في الوجود أثر ، أن يهيء له أبوه منبتًا صالحًا ، كما يهتم أحدنا بالتربة التي يضع فيها غرسه ، فيتخير له امرأة حرة ، شريفة ، لا يخجل بها ابنه ، فتكون أهلاً لتربية هذا الابن التربية الحسنة ، ولأجل هذا تحتاج أن تكون هي من منبت طيب ، ومما قاله عليه الصلاة والسلام : «تخيروا لنطفكم ، فانكحوا الأكفاء ، وأنكحوا إليه» ، والمسألة هنا لا تتعلق بعراقة النسب والقبلية التي قام الإسلام بإبطالها ، إنها تتعلق بعفة الإنسان وأخلاقه ، وميزان ذلك هو التقوى كما وضعه الله لنا لتقدير الناس ، والبيت العامر بالقيم الإسلامية والأخلاق العليا لا يتشابه من يخرج منه بمن يخرج من بيت سوء ونشأة فاسدة ، إلا من أراد الله به الهداية فأخرجه من تلك الظلمات بقلبٍ سليم .

– هذا عن اختيار أم الابن ، فماذا عن اختيار الاسم ، وكيف يدخل في كونه حقًا من حقوق الأبناء بينما هو اختيار مُسبق من قبل الوالدين قبل أن يعقل الابن من الحياة شيئًا؟

– لهذا بالذات كان حقًا من حقوق الابن على الأب ، فالاسم هو أول ما يعرف الناس به بعضهم البعض ، وهو ما يُدعى به المرء منذ ولادته حتى مماته ، ويُذكر به في المجالس وبين خاصة القوم وعامتهم ، فهو لصيق بالإنسان التصاق الروح بالجسد ، ملازم له ملازمة دائمة ، لا فكاك له منه ، ولا خلاص ، وإن لم يكن للاسم من أهمية سوى ما يتركه من أثر في نفس حامله لكفاه ، فلا يأتِ الرجل ويسمي ابنه جُعلاً ثم ينتظر أن يكون له بين الناس كرامة ، حتى ولو كان من خيارهم ، فمثل هذا الاسم يورث المهانة في روح الرجل ، ويجعله محل سخرية الآخرين وهمزهم ولمزهم ، إنه باختياره هذا الاسم قد حكم على هذا الابن بالعيش مع عار لا يد له فيه ، وقد أورثه دنوًا في نفسه وكسره منذ الصغر ، إذ جعله يحمل اسمه كما يحمل أحدنا عارًا أو خطيئة ، وإنه من جهل الرجل أن يتخير لأبنائه أقبح الأسماء بينما لديه الخيار بأن يتخير أفضلها ، وهذا مما كان في الجاهلية ، فقد كانت العرب تعمد إلى القبيح من الأسماء ظنًا منهم أنهم بذلك يجنبوهم الحسد أو الموت ، وقد كانوا يدعون أبناءهم بأبشع الأسماء بينما يدعون مواليهم بأجملها ، مبررين ذلك بأنهم إنما يسمون أبناءهم لأعدائهم ، ويسمون مواليهم لأنفسهم! ولكن بعد أن جاء الإسلام تلاشت تلك الجاهلية ، فقد أمرنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه أن نحسن أسماءنا فبها نُدعى يوم القيامة ، وكان يقول : خير الأسماء ما عُبّد وحُمّد ، ومن خيرها عبدالرحمن وعبد الله ،

فكان يدعو من لا يعرفه بعبد الله ، لأننا جميعًا عباد الله ، وهذا مما يُستدل به على أن الاسم مقترن بالمعنى وليس مجرد أداة للنداء أو كلمة يُعرف بها المرء ، كما كان ﷺ يغير من الأسماء القبيح ويُبدله بما يناقضه من جميل المعنى ، ومن هذا قول سعيد ابن المسيب أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فسأله النبي : ما اسمك؟

قال : حزن!

فقال له : أنت سهل .

فقال : لا أغير اسمًا سمانيه أبي

قال ابن المسيب : فما زالت الحزونة فينا بعد!

وقد غيّر النبي ﷺ أسماء كثيرة لقبحها ؛ منها اسم العاص ، وعزيز ، وعتلة ، وشيطان ، والحكم ، وغراب ، وشهاب ، وحباب ، فسماه هاشماً ، وسمى حرباً سلماً ، وسمى المضطجع المنبعث ، وسمى أرضاً يقال لها : عفرة خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزينة سماهم بني الرشدة ، وسمي بني مغوية بني رشدة

وجاءت إليه يومًا امرأةٌ اسمها عاصية فسألها : ما اسمكِ؟

قالت : أنا عاصية

فقال لها : بل أنتِ جميلة!

وقد روت عائشة أَن عجوزًا جاءت إلى النبي ﷺ ، فقال لها رسول الله ﷺ : من أنت؟

قالت : أنا جثامة المزنية

فقال : بل أنت حسانة المزنية ، كيف أنتم؟ كيف حالكم ، كيف كنتم بعدنا؟

قالت : بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله .

فلما خرجت ، قالت عائشة : يا رسول الله ، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟

فقال :إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان!

– هذا عن حقّ الابن في اختيار الاسم ، فحدثني عن حقه في العلم؟

– يا بنيّ ، إن تعليم الأبناء جزء من تربيتهم ، وإنه لحقّ على الأب أن يُشبع عقل ابنه كما يُشبع بطنه ، وإن تزويده بالطعام والكسوة رعاية ، أما تزويده بالعلم فتربية ، والأبوّة إنما تتحق بالرعاية والتربية ، ومن منع أبناءه هذا الحق تسقط عنه صفة الأبوّة ، فإنما هو والد ، أتى بهم لهذه الحياة ثم تركهم يتخبطون دون هدى ، فعلموهم الكتاب ، وعلموهم الرماية والسباحة وركوب الخيل ، قوموا لهم بحقِّ البنوة تعينوهم على برِّكم ، فرحم الله والدًا أعان ولده على بره!

– رحمك الله يا أمير المؤمنين ، جئت بالأمر من كل نواحيه ، نعم القائل أنتَ ، فهل ما زال لديك من خبر تسمعنيه في هذا المضمار؟

– ما زال أمر أخير ، وهو مما يتعلق بالآباء والأبناء ، جاءني رجلٌ فقال : إن ابنة لي وَلَدَتْ في الجاهلية وأسْلَمَتْ فأصَابَتْ حَدّاً ، وعَمِدَتْ إلى الشفرة فَذَبَحَتْ نَفْسَها ، فأدركتها وقد قطعت بعض أوداجها بزاويتها فبرئت ثم مسكت ، وأقبلت على القرآن وهي تُخطب إليّ فأخبر من شأنها بالذي كان؟

فقلتُ له : أتعمد إلى ستر ستره الله فتكشفه؟ لئن بلغني أنك ذكرت شيئًا من أمرها لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار ، بل أنْكِحْهَا نكاح العفيفة المسلمة!

– ألا يتعارض هذا مع قوله تعالى : ﴿الزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾!

– لا يتعارض ، إنما ذلك لمن لم تتب وتُقلع عن بغيها ، أما من تابت فهي بحكم من لم يقترف ذنبًا في الأصل ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ثم الستر مُقدم على الهتكَ ، وفضح امرئ مسلم ، لا سيما في عرضه أشد سوءاً من أن تكتم خبرًا لا يجر مصلحة بل هو يجر فساداً عظيمًا ، فالمرأة التي طهّرت قلبها ، وندمت على ذنب وقعت فيه ساعة غفلة ، كيف سيكون حالها إن هُتك سترها ، وشاع اسمها بين الناس بعدم العفة ، ماذا ستفعل هذه الوصمة بحياتها؟ إن ذكر هذا الأمر للخاطب لا يجعلها تخسر فرصة الزواج ، بل يجعلها تخسر فرصتها في حياة نظيفة لا أثر فيها لذنبها السابق .

– صدقت يا أمير المؤمنين فالتوبة تجبُّ ما قبلها

– أيأذن لي أمير المؤمنين الآن أن أسأله عن أمر يختلج في صدري

– قل يا بنيّ

– ما الفراسة يا أمير المؤمنين؟

– الفراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية ، وهي أيضًا ما يقع في القلب بغير نظر ولا حُجة

– كالذي حدثتني عنه في موافقات القرآن لك؟

– شيء من هذا القبيل

– كأني فهمتُ من كلامك أنها تُقسم إلى قسمين ، فقد قلت الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية ، وهذا يلزمه حنكة وقياس وتأمل ، وقلت ما يقع في القلب بغير نظر ولا حجة فكأنه لا شأن للمرء فيه؟

– بالضبط ، هي قسمان ، قسم يمكن تعلمه واكتسابه بالمران والخبرة ، ومعرفة طبائع النفوس ، وعادات الناس ، وقسم يلهمه الله من يشاء من عباده

– دعنا من القسم الأول فعلى ما يبدو هو موضوع شائك ، ولتحدثني عن القسم الثاني ، فهل تجد له مثلاً؟

– الأمثلة على هذا كثيرة يا بنيَّ ، وهو ضربٌ مما قاله رسول الله ﷺ : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله! هو إذا يحدثنا عن النوع الثاني الذي هو توفيق وإلهام لا ما يتأتى عن علم واكتساب ، والقرآن زاخر بهذا

– مثل ماذا؟

– خُذ عندك مثلاً ، فراسة آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون

– وأين تجلت فراستها؟

– رأى فرعون في منامه أن نارًا عظيمة تلاحقه في ردهات قصره ، فاستفاق فزعًا ، وجمع إليه المعبرين وقصَّ عليهم رؤياه تلك ، فأخبره المعبرون أن تأويل رؤياه غلام يولد لبني إسرائيل يكون زوال ملكه على يديه ، فأمر فرعون أن يُذبح كل مولود ذكر لبني إسرائيل ، واستمر على هذا ردحًا من الزمن ، يرسل عماله لإحصاء النساء الحوامل من بني إسرائيل ، فكانوا يدوّنون أسماءهن ، فإذا حضرت ولادتها جاؤوا إليها ، فإن كان المولود ذكرًا ذبحوه ، وإن كانت أنثى أبقوا عليها ، ثم إن أهل مصر جاؤوا إليه وطلبوا منه أن يجد طريقة أخرى ، فبنو إسرائيل كانوا عبيدًا لأهل مصر ، يعملون في الزراعة والخدمة ، فقلّت اليد العاملة ، لأن المواليد الذكور تُذبح ، فقضى فرعون بأن يذبحوا الذكور عامًا ، ويتركوهم عامًا ، فولد هارون عليه السلام في العام الذي لا ذبح فيه ، فأبقته أمه عندها ،

أما موسى عليه السلام فقد وُلد في عام الذبح ، فأوحى الله إلى أم موسى أن ترضعه ، ثم تجعله في صندوق وتُغلق عليه ، وتلقيه في النهر ، وقد تعهد لها أن يرده إليها سالمًا ، فامتثلت لأمر الله وفعلت ، وجرى الصندوق بأمر الله تحمله المياه إلى قصر فرعون ، وكان فرعون وآسيا في حديقة القصر المشرفة على النهر ، فرأت آسيا الصندوق وطلبت من خادماتها أن يأتين به ، فلما فتحته وجدت موسى عليه السلام بداخله ، وألقى الله تعالى محبته في قلبها ، ولما علم فرعون بالأمر أراد أن يأخذه ليذبحه ، ولكنها حالت بينه وبين موسى عليه السلام ، وقالت له : «قرّة عينٍ لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا» ، فانصاع فرعون لها ، وأذن لها أن تبقيه عندها ، فتربى في قصر فرعون ، وشبَّ ، ثم صار نبيًا ، فآمنت به ، فصلبها فرعون ليردها عن دينها ، فأبتْ ، وماتت على الحق ، فتلك كانت فراستها يوم قالت : «عسى أن ينفعنا» وليس بعد الجنة منفعة!

– سبحان الله ، ذبح فرعون آلاف الأطفال بحثًا عن موسى عليه السلام ، ولما جاء رباه في قصره!

– قدر الله نافذٌ يا بنيّ لا محالة ، إن الله إذا دبَّر أدهش ، أمره بين الكاف والنون ، إذا قال للشيء كن يكون ، وإن للحق جنودًا يخدمونه منهم الباطل! أراد أن يذبحه فأكل من طعامه رغمًا عنه وعاش ، وأراد أن يسلبه أمه فرده الله إلى أمه ، وأعطاه أمًا أخرى هي زوجة فرعون رغمًا عن فرعون!

– فهل من فراسة أخرى في القرآن؟

– أجل ، هي فراسة امرأة أيضًا ، وفي موسى عليه السلام كذلك ، وذلك أن موسى عليه السلام لما قتل المصري بغير قصد دفاعًا عن رجل من قومه ، ثم في اليوم التالي وشى عليه ،

فرَّ هاربًا لَّما جاء من يخبره أن الملأ أجمعوا أمرهم أن يقتلوه بالرجل الذي قتله ، فتوجه إلى مدين ، ولما ورد ماءها ، وجد الناس يسقون ماشيتهم ، وكان من بين الرعاة امرأتين ، انتظرتا حتى يفرغ القوم لتسقيا ، ولما فرغ القوم وتقدمت المرأتان ، رأى موسى ضعفهما ، فقام وسقى الماشية لهما ، ثم ذهب ليستظل في فيء شجرة ، وعادت المرأتان ، وأخبرتا أباهما ، وكان أبوهما شعيب عليه السلام ، فطلب من إحدى بناته أن تذهب وتدعو موسى عليه السلام إليه ، ليجزيه أجر ما سقى لهما ، فأتت تدعوه ، وسارت أمامه ، فأخذت الريح تكشفُ شيئًا من ساقها ، فطلب منها موسى عليه السلام أن تمشي وراءه ويمشي أمامها ، ولما أخبر شعيب عليه السلام بقصته ، طمأنه وواساه ، ثم قالت هذه البنت لأبيها ، «يا أبتِ استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين»

– فأين موضع الفراسة هنا؟

– الفراسة أنها عرفت قوته لإزاحته الحجر الضخم الذي يحجز الماء ، وعرفت أمانته لأنه طلب منها أن تمشي خلفه كي لا ينكشف شيء من ساقها له!

– إذًا هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية

– أجل هي كذلك ، وقد صدقت فراستها ، فكان موسى عليه السلام قويًا وأمينًا!

– فهل من فراسة في القرآن بعد يا أمير المؤمنين؟

– أجل ، هناك فراسة عزيز مصر في يوسف عليه السلام

– وكيف كانت؟

– ذلك أن إخوة يوسف عليه السلام لما تآمروا ، وأجمعوا أمرهم على قتله ، أو إبعاده عن أبيه ، جاؤوا إلى أبيهم يعقوب عليه السلام ،

وطلبوا منه أن يأذن ليوسف عليه السلام أن يرافقهم إلى البراري حيث يرعون ماشيتهم علّه يُروّح عن نفسه باللعب والتنزه ، فرفض أول الأمر لخوفه من أن يأكله الذئب ، ولكنهم ألحوا عليه في الطلب ، وأخبروه أنه لا سبيل للذئب عليه وهو معهم ، فهم الرجال الأشداء ، وكيف سيتمكن ذئب من صبي يحرسه رجال خبروا البراري وألفوها حتى حفظوها عن ظهر قلب .

فما كان من يعقوب عليه السلام إلا أن أذن لهم أن يصحبوه ، فذهبوا به إلى البرية ، وخلعوا عنه قميصه أول الأمر ، ليلطخوه بدم شاه يذبحونها ثم يخبرون أباهم أن الذئب قد أكله ، وهم يحسبون أن في القميص دليل صدقهم ، وقد كان في الحقيقة دليل كذبهم!

– اعذرني على المقاطعة يا أمير المؤمنين ، ولكنك قلتَ شيئًا لا بُدَّ لي أن أستوضحه!

– وما هو؟

– قلت أن ما حسبوه دليل صدقهم كان في الحقيقة دليل كذبهم ، فكيف ذلك؟

– أجل ، لقد أرادوا تلطيخ القميص بالدم ليكون دليلاً على فتك الذئب بيوسف عليه السلام ، وبالفعل عادوا بالقميص ملطخًا بالدم ، ولكن فاتهم أن ينتبهوا أن الذئب إذا افترس صبيًا فمحال أن يُبقى على قميصه سالمًا ، وهكذا جعل الله تدبيرهم تدميرهم ، فعرف يعقوب عليه السلام أنها المكيدة والغدر .

– حسنًا فهمت يا أمير المؤمنين ، فهلا تأذن وتكمل حيث وصلتَ بي ، عند خلعهم عن يوسف عليه السلام قميصه .

– نكمل بأمر الله ، لما خلعوا عنه قميصه ، بدأوا به ركلاً ، وانهالوا عليه ضربًا ، وأرادوا قتله أول الأمر ، ولكن أحد إخوته

رفض هذا رفضًا قاطعًا ، وقال : إنما أردنا أن نحول بين يوسف وأبيه ، فلِمَ نقتله إن كان بإمكاننا أن نلقيه في البئر ، فيأتي السيارة ، وينتشلوه ، ويذهبوا به بعيدًا ، فنزلوا على أمره ، وفعلوا ما أشار عليهم .

ثم إنهم ألقوه في الجبِّ وعادوا أدراجهم ، وبالفعل جاءت سيارة فأرسلوا خادمًا لهم في طلب الماء ، ولما أدلى دلوه تمسك يوسف عليه السلام به ، فانتشله الرجل ، وفرح به فرحًا شديدًا ، فأول ما خطر له ، أنه مال سهل دون عناء ولا تعب ، إذ بإمكانهم أن يبيعوه في سوق النخاسة!

وهكذا كان ، ولما وصلوا أرض مصر ، عمدوا إلى سوق النخاسة فباعوه بثمن بخس ، وقدّر الله أن يأتي عزيز مصر قاصدًا السوق ، فرآه وأعجبه حسنه وهيئته ، فاشتراه ، وأخذه معه إلى القصر وقال لزوجته زليخة : «أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا»!

وهنا كانت الفراسة فبسبب وجود يوسف عليه السلام في قصر العزيز ، وما حدث له بعد ذلك حتى دخوله السجن ، وخروجه منه بعد رؤيا الملك التي عبرها له بالقحط ، لم ينتفع به أهل بيت العزيز فقط ، وإنما انتفع به أهل مصر قاطبة ، نفعًا دنيويًا وأخرويًا ، فأما الدنيوي فإنه بإذن الله تعالى قاد مصر إلى بر الأمان ، وأنقذها من الهلاك ، وأما النفع الأخروي فقد انتقل كثير من أهل مصر من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان .

- سبحان الله كيف يُقدر الأمر في السماء ثم ينفذه في الأرض ، فيجريه كما شاء له أن يجري!

- سبحانه جلَّ في علاه

- فماذا عن فراسة أبي بكر الصديق؟

- ماذا عنها؟

- ألم تخبرني أن رسول الله ﷺ قال : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»؟

- بلى ، قد فعلتُ

- وأبو بكر أعلى الناس إيمانًا ، فلا شكَ أن له من الفراسة نصيبًا

- لربما كان له

- أما ترى أنه لو لم يكن له فراسة غير جعل الخلافة إليك من بعده لكفى؟!

- هذا من حسن ظنك يا بنيّ

- بل هذا من تواضعك يا أمير المؤمنين ، ووالله لقد صدق أبو بكر يوم سُئل : ما تقول لله إذا سألك عن جعل أمر الناس إلى عمر بن الخطاب : فقال : سأقول له : وليتُ عليهم خير أهلك!

- رحمه الله من خليفة ، أتعب من بعده! كان في إيمانه وعدله وتواضعه كالراكب على فرس أُعدت للسباق ، والناس جميعًا على أقدامهم ، فمن يلحق براكب فرس سباق وهو على قدميه!

- رحم الله أبا بكر ، والله ما وصلنا من خبره غير الذي قلتَ ، وجعلك الله مع صاحبيك يا أمير المؤمنين

- اللهم آمين

- فماذا عن فراستك أنت يا أمير المؤمنين؟

- ما بها؟

- حدثني عنها

- أما تحدثنا في شيء من هذا يوم دار الحديث عن الموافقات؟

- بلى قد فعلنا ، ولكن حديثنا اقتصر على ما كان في القرآن ، فلا شك عندي أنَّ من كان بمثل إيمانك أن يكون له فراسة غير ما ذكر لي يومذاك .

- لعلَّ ما تقول قد وقع فعلاً

- فحدثني إذاً

- حسنًا سأفعل

- هيا يا أمير المؤمنين ، فلقد شوقتني

- أُخبرتُ يومًا بفتى أمرد لا شعر في وجهه ، وكالنساء حُسنًا ، وُجد قتيلاً ملقى على الأرض ، فسألتُ عن أمره ، واجتهدتُ ، فلم أقف له على خبر ، فشقَّ عليّ هذا . . .

فقلتُ : اللهم أظفرني بقاتله!

ودارت الأيام ، حتى إذا مرّت سنة ، وجدنا صبيًا مولودًا من ليلته ملقى بموضع القتيل

قلتُ : ظفرتُ بدم القتيل إن شاء الله تعالى!

ودفعتُ الصبي إلى امرأة ترضعه وتقوم بشأنه

وقلتُ لها : خذي منا نفقة ، وانظري من يأخذه منكِ ، فإذا وجدتِ امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها ، فأعلميني بمكانها!

فلما شبّ الصبيُّ جاءت جارية وقالت للمرأة : إن سيدتي بعثتني إليكِ لترسلي إليها الصبيّ لتراه وترده إليكِ!

فقالت لَها : نعم اذهبي به إليها وأنا معكِ

فذهبتْ بالصبيّ والمرأة معه ، حتى دخلت على سيدتها ، فلما رأته أخذته ، فقبلته وضمته إلى صدرها!

وكانت السيدة التي طلبت الصبي لتراه ، ابنة شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ، فجاءت المرأة وأخبرتني بالذي كان

- فماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

- أخذتُ سيفي ، ثم أتيتُ منزل المرأة ، فوجدتُ أباها متكئًا عند الباب

فقلتُ له : ما فعلت ابنتك؟

فقال : جزاها الله خيرًا يا أمير المؤمنين ، هي من أعرف الناس بحق الله ، وحقّ أبيها مع حسن صلاتها وصيامها ، والقيام بدينها

فقلتُ : قد أحببتُ أن أدخل إليها فأزيدها رغبةً في الخير وأحثها عليه

فدخلتُ وأبوها معي ، ثم طلبتُ ممن كان عندها أن يخرجوا ، فلما صرنا وحدنا أنا وهي قلت لها وأنا شاهر سيفي :

لتصدقيني القول ، وإلا ضربتُ عنقكِ!

فقالت : على رِسلك يا أمير المؤمنين ، فواللهِ لا أكذبك أبدًا ، إن عجوزًا كانت تدخل عليّ فاتخذتها أُمًا ، وكانت تقوم بأمري كما تقوم الأم بأمر ابنتها ، وكنت أقوم بأمرها كما تقوم البنت بأمر أمها ، وكنت على هذا زمنًا إلى أن قالت لي يومًا :

يا بُنية إنه قد عرضَ لي سفر ، ولي ابنة في موضع أتخوَّفُ عليها فيه أن تضيع ، وقد أحببتُ أن أضمها إليكِ حتى أرجع من سفري

فقلتُ : على الرحب والسعة يا خالة

فعمدتْ إلى ابن لها شاب أمرد ، فهيأته كهيئة الجارية ، وأتتني به وأنا لا أشك أنها جارية ، فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية ، حتى أغفلني يومًا وأنا نائمة ، فما شعرتُ حتى علاني ، وكان منه ما يكون للزوج في زوجته ، فمددتُ يدي إلى شفرة كانت إلى جنبي فقتلته!

ثم أمرتُ به فألقي حيث رأيتَ ، وحملتُ منه بهذا الصبيّ ، وأخفيتُ الأمر على أبي ، فلما وضعته ألقيته في موضع أبيه ، فهذا واللهِ ما كان من خبرهما ، وما كذبتكَ حرفًا!

فقلتُ لها : نعم الحُرّة أنتِ ، ولولا ستر أمر الله به ، لوددتُ أن لا تبقى امرأة إلا سمعت بخبركِ!

ثم خرجتُ وقلتُ لأبيها : نعم الابنة ابنتك

ثم قفلتُ راجعًا!

– مدهش أنتَ يا أمير المؤمنين ، واللهِ إنك لمدهش ، وإنكَ لمؤمن ترى بنور الله!

– ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يا بنيّ

– فأخبرني يا أمير المؤمنين ، ما أدراك حين عثرت على الغلام ملقى مكان القتيل أن الظفر بالقاتل قد اقترب ، وأن أمه ستسأل عنه ، لتضمه وتقبله كما تفعل الأمهات بأولادهن؟!

– هذه فطرة الله التي فطر عليها الناس ، علمتُ أنه لا شيء أكبر من الولد في قلب أمه ، وأنه مهما طال الزمان فإن عاطفة الأمومة ، وقلب الأم لا محالة سيجعلانها تريد أن ترى ابنها ولو ألقته! وهذا واللهِ قريب من خبر المرأتين اللتين احتكمتا إلى داود وسليمان عليهما السلام في ولدٍ كل واحدة منهما ادعته لنفسها!

– فما خبرهما يا أمير المؤمنين؟

– خبرهما الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ يوم كنا جلوسًا عنده

فقال : بينما امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنك

وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك

تحاكمتا إلى داود عليه السّلام فقضى به للكبرى

فخرجتا على سليمان عليه السلام فأخبرتاه بما جرى بينهما ، وكيف كان حكم أبيه في قضيتهما!

فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما!

فقالت الصغرى : لا ، يرحمك الله ، هو ابنها

فقضى للصغرى به!

إن هذا القلب الذي أراد أن يتنازل عن ابنٍ هو له ولا يراه يُشقُّ نصفين هو القلب ذاته الذي دفع بالمرأة لتطلب ابنها لتقبله وتضمه إلى صدرها ، وقد علمتُ أنّ هذا سيكون ، لذلك أوصيتُ المرأة التي دفعتُ إليها الصبي أن تنتبه لمثل هذا

– فلمَ لمْ تُرجع إليها ابنها يا أمير المؤمنين وقد علمتَ بقصتها؟

– للسبب الذي منعني أن أخبر الناس بخبرها مع حبي أن أفعل ، إنه الستر يا بنيّ ، وإن الله ستير يحب الستر ، ولو كانت هذه المرأة قادرة على الاحتفاظ به أول الأمر ما ألقته ، بغض النظر عن الطريقة التي ولدته بها ، وإنها ما أخفت الأمر عن أبيها ، وألقت ابنها إلا طلبًا للستر ، وما كان لي أن أفضح أمرها وإن لم يكن فيه عيب تخجل به ، ولكن لا تنسَ يا بنيّ أنها نهاية المطاف امرأة ، وأنها تريد زوجًا كما تريد النساء ، وإن شيوع خبرها بين الناس من شأنه أن يوقف أمرها ، ويحول بينها وبين ما تريد ، ثم هي فوق ذلك ابنة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، أفنفضح الرجل في عرض ابنته وما كان هو لذلك أهلاً ، ولو كانت هي كذلك؟!

– لا والله ، بل تستر وتكتم الأمر

– وهذا ما فعلتُ

- وإنك واللهِ قد أصابتك دعوة رسول الله ﷺ يوم قال : اللهم اجعل الحق على قلب عمر ولسانه

- اللهم لكِ الحمد

- فأخبرني يا أمير المؤمنين ، أثمة شيء من فراستك بعد ، فإن حديثك ماتع شيق كالغيث إذ يصيب أرضًا جدباء فيحيلها جنة خضراء!

- ما زال هناك شيء من هذا

- فقل إذًا ، كلي آذان صاغية

- خرجتُ يومًا أريدُ الشام ، فلما صرتُ قريبًا من الأردن جاء من يخبرني بطاعون عمواس ، فجمعتُ الناس لأستشيرهم أأمضي على ما خرجتُ لأجله أم أرجع؟

فأشار القوم عليّ بالرجوع ، وأشار آخرون عليّ بأن أمضي .

ثم طلبتُ أن يقوم القوم عني ، وكانوا شيوخًا ، ومن أهل السابقة ثم دعوت إلى الشباب فاستشرتهم

فلم يختلف رأيهم عن رأي الشيوخ ، فبعضهم أشار عليّ أن أرجع وبعضهم أشار أن أمضي

ثم فكرتُ في أمري وعزمتُ على أن أرجع

فقال لي أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟

فقلتُ له : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله! أرأيت إن كان لك إبل هبطت واديًا له عَدْوتان ، إحداهما خصيبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيتها في الخصيبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيتها في الجدبة رعيتها بقدر الله!

فقال : بلى

ثم لم نلبث قليلاً حتى جاء عبدالرحمن بن عوف ، فقال :

إن عندي من هذا علمًا ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه!

فحمدتُ الله ، ثم قفلتُ راجعًا!

– فما قصدت بقولك : أفرّ من قدر الله إلى قدر الله؟

– قصدتُ أني لو مضيتُ في طريقي لكنتُ قد مضيتُ إلى قدر الله ، ولو رجعتُ لكنتُ رجعتُ في قدر الله ، الإنسان لا يعرف القدر إلا حين يقع ، يعرضُ للمرء أمران ، فيختار بأيهما يأخذ ، وقد سبق علم الله ما صانع هذا الإنسان بما عرض له ، وأي الأمرين سيختار ، ولكن المرء نفسه ما زال في حيرة من أمره ثم ما يلبث أن يختار قدره المكتوب في اللوح المحفوظ!

– إذًا نحن مسيّرون لا مخيرون؟

– من قال هذا يا بنيّ

– أنتَ ، ألم تقل أن المرء يختار قدره المكتوب في اللوح المحفوظ

– صحيح ، ولكني لم أقل أن ثمة إجبارًا ، ولو كنا مسيرين لانتفى الثواب والعقاب ، فكيف يعاقب الله عبدًا فطره وجبله وسيره إلى النار ، وكيف يثيب عبدًا فطره وسيره إلى الجنة ، أنا لم أتحدث عن الإجبار والإكراه ، وإنما تحدثت عن علم الله المطلق بما سيكون دون أن يكون لهذا العلم سلطان على الإنسان ، بل هو بكامل إرادته يختار ما قدّره الله وكتبه ، لأن الله يعلم الغيب ، ويعلم ما كان وما هو كائن ، وما لم يكن كيف كان ليكون لو كان!

– فهلاّ قربّت لي هذا بمثل أفهمه؟

– حسنًا سأفعل ، هَبْ أنّ لك ولدًا ، ربيته منذ كان صغيرًا ، وكنتَ معه يومًا بيوم ، حتى إذا شبّ كنت أخبر الناس به ، فلو رأيته قد دخل بستانًا وأنتَ تعلم أمانته وصدقه وأنه لن يمد يده على ثمر لا يحل له ، أتكون قد حملته على فعل هذه الفضيلة؟

– قطعًا لا

– لنفترض أنك تعرف سوء أخلاقه ، أو ضعف نفسه ، وقلتَ أنه سيأخذ من الثمر ما أمكنه ، فهل تكون قد أجبرته على هذه الرذيلة؟

– لا ، أيضًا

– لو كافأته على أمانته أول مرة أكان يستحق ذلك منك؟

– أجل يستحق

– لو عاقبته على خيانته في المرة الثانية أتكون قد ظلمته؟

– أبدًا .

– وهذه كتلك ، إنّ عِلمنا بالنسبة لعلم الله كرأس الدبوس في صحراء ، وكقطرة في محيط ، وإن توقعنا للمستقبل بناء على ما نعرف من الماضي قد يصيب وقد يخيب ، ذلك لأن علمنا محدود كما هو معلوم ، أما علم الله فمطلق ، لهذا كان علمه بالغيب لا يخيب أبدًا ، ولا يخرج فعل إنسان حرفًا واحدًا عما كتبه الله عنده ، فكما أنكَ أثبتَ ابنك المذكور لفعله الصواب ، أو عاقبته لفعله الخطأ ، بعد توقعك أن يفعل هذا أو ذاك لا محلّ فيه قيد أنملة للإكراه والإجبار ، هكذا كان الناس جميعًا بالنسبة لعلم الله ، أعطوا القدرة على أن يختاروا فاختاروا!

– ولكن أخبرني يا أمير المؤمنين ، هل الإنسان مخير في كل شيء؟

- لا أحد غير الله له الخيرة في كل شيء ، إن شاء سبحانه فعل ، وإن لم يشأ لم يفعل ، أما المخلوقات ومنها الإنسان وهو الذي يعنينا ، فمخير بأشياء ومسيَّر بأشياء ، فهو مسيَّر في رزقه وأجله ، مخيّر كيف ينفق ما أوصله الله إليه من رزق ، إن شاء تصدق وأنفق على نفسه وعياله وجعل ماله في طريق الخير ، وإن شاء اشترى خمرًا ، أو دفع مالاً لفتنة تقع في الأرض ، لهذا فإنّ من عدل الله سبحانه أنه لا يحاسب الناس على ما ليس لهم يدّ في اختياره ، فالله تعالى لن يحاسب عبدًا قصُر عمره ، ولن يثيب عبدًا طال عمره ، وإنما الثواب والعقاب يكون بحسب ما اقترفه الإنسان من سيئات أو حسنات في عمره قصر أو طال! وكذلك لن يعاقب الله فقيرًا على قلة ماله ، ولن يثيب غنيًا على كثرة ماله ، إنما الثواب والعقاب يكونان في هذه الحالة على صبر الفقير على قدر الله له في الفقر ، وعلى شكر الغني على قدر الله له في الغنى!

- وهل يحق لعبد فقير أن يحتج على فقره ، أو لصاحب عمر قصير على قصر أجله عند الله؟

- سبحانه ، «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون» هذا السؤال مشروع لو افترضنا أن الدنيا نهاية المطاف ، وأنه لا حياة بعدها ، ولكن متى علمنا أنها دار امتحان وابتلاء ، استخلفنا الله فيها لينظر ماذا نفعل ، ثم يكون الحساب والجزاء بناءً على ما فعلنا ، صار الاحتجاج هنا قلة أدب مع الله .

ثم ألا ترى أن الناس يُسلمّون لبعضهم فيما يمتحنون فيه بعضهم البعض ، لو تقدّمتَ لطلب عمل عند صاحبه ، واشترط فيك مواصفات معينة ليوليك إياه ، هل تسأله لِمَ اشترطت هذا عليّ ، أنا أريد أن أتولاه بحسب ما عندي من امتيازات لا بحسب ما تطلب أنتَ؟

- قطعًا لا!

- لو تقدمتَ لطلب فتاة من أبيها للزواج ، واشترط عليكَ مهرًا محددًا ، أتقول له : لِمَ اشترطتَ هذا ، فإني أريد أن آخذها دون مهر ، أم أنك إن وجدتَ بك طاقة للنزول عند شروطه خطبتَ ابنته منه ، وإن لم تجد بحثتَ عن أخرى؟

- بلى أفعل

- إذا كنا نحن البشر نقبل بهذا من بعضنا ، ألا نقبله من الله وهو ربنا الذي لا يفعل إلا عن حكمة وإن خفيت عنا؟

- بلى والله نقبل!

- فهل انتهينا من هذه النقطة؟

- أجل انتهينا ، وقد شرحتَ فأطلتَ حتى بلغني المعنى المراد بأحسن ما يكون ، فسبحان من علّمك ، فالآن أخبرني يا أمير المؤمنين ، أما زال في جعبتك شيء مما كان منك في الفراسة تخبرني عنه؟

- أجل ما زال هناك

- فهيا إذًا

- جاؤوا لي يومًا برجل قد سرق ، فقلتُ له : حدَّ السرقة القطع ، وحدود الله لا تُدفع إلا بالشبهات ولا شبهة لك

فقال لي : أستحلفكَ بالله يا أمير المؤمنين أن تعفو عني ، فإنها أول مرَّة!

فقلتُ له : كذبت ، ليست المرة الأولى!

فقال : أكنتَ تعلم الغيب؟!

فقلتُ : لا أعلم الغيب ، ولكني علمتُ أنَّ الله لا يفضح عبده من أول مرةٍ

– فماذا فعلتَ بعد ذلك؟

– أمرتُ به فقُطعت يده ، فتبعه علي بن أبي طال وقال له : أستحلفكَ بالله أهي أول مرةٍ؟

فقال له : والله إنها الحادية والعشرون!

فقال عليّ : صدق عمر يوم قال : لستُ بالخبّ ولا الخبّ يخدعني!

– سبحان من علّمك ما لم تكن تعلم

– سبحانه جلّ في علاه

– أما زال في الفراسة عندك من خبر تقصّه عليّ؟

– بقي واحدة ، وبها نطوي هذه الصفحة ، ونُغلق بها هذا الباب

– كما يرى أمير المؤمنين

– كتب إليَّ سعد بن أبي وقاص يقول :

إني أصبتُ فيما أفاء الله على رسوله صندوقًا من ذهب ، عليه قفل من ذهب ، فلم أفتحه ، وإن رجلاً طمع بما فيه ، فدفع به مالاً كثيرًا ، على أن يأخذ ما فيه والصندوق لنا!

فكتبتُ إليه أقول : بعه ، فإني أحسبها حماقة من حماقات العجم

فباعه سعد لمن طلب شراءه

ففتحه المشتري ، فإذا به كتاب بالفارسية ، فأتى من يقرأ الفارسية ليقرأ ما كُتب فيه .

فإذا هو مكتوب فيه :

لتسريحة اللحية من ناحية الحلق أنفع من ألف تسريحة إلى خلف!

فأراد من أشتراه أن يرده
فكتب إليّ سعد بهذا
فكتبتُ إليه أقول :
استحلف الرجل واسأله ، إن أصاب به كنزًا أكان يشركنا بما فيه
فقال الرجل : ما كنتُ لأفعل
فكتب إليّ سعد بهذا
فكتبتُ إليه أن لا تردوا له ماله ، وليأخذ ما وجد في الصندوق!

- مضحكة وطريفة هذه القصة يا أمير المؤمنين ، وجيد أنها كانت كذلك ، نُروّح بها عن النفس ، قبل أن نبدأ حديثًا آخر يجول في خاطري ، وهو من الجدّ بمكان

- فما هو؟

- تنظيم أمور البلدان ، وأشياء في السياسة سمعتُ أنه ما سبقكَ إليها أحد

- هذا حديث يطول يا بنيّ

- أعرف ، وإني أطمع في كرم أمير المؤمنين أن يحدثني

- حسنًا سأفعل ، فهاتِ ما عندك

- بلغني أنكَ أول من دُعيّ بـِ «أمير المؤمنين» فهل هذا صحيح؟

- صحيح ما بلغكَ

- فكيف تم ذلك؟

- كان أبو بكر رضي الله عنه يُدعى خليفة رسول الله ﷺ ، فلما مات وصار الأمر إليّ ، دعاني الناس أول الأمر «خليفة خليفة رسول الله» فتذاكر الصحابة هذا بينهم

وقالوا : فماذا ندعو من يكون بعد عمر : خليفة خليفة خليفة رسول الله! والله إن هذا أمر يطول ، فتعالوا نرى ما ندعو به خليفتنا

ثم قال بعضهم : نحن المؤمنون وعمر أميرنا ، فهو إذًا أمير المؤمنين ، وبهذا كنتُ أول من حمل اللقب!

– إنّ هذا لشرف عظيم يا أمير المؤمنين

– أعظم منه لقب أبي بكر ، فهو الوحيد خليفة رسول الله ﷺ ، وأنا خليفة أبي بكر ، رحمه الله ذاك رجل جمع الله له الفضل جمعًا ، وصبَّ عليه الرفعة صبًا ، لما علم ما في قلبه

– رحمه الله ، وقد كنتَ خير خلفٍ لخير سلفٍ

– أسأل الله أني كنتُ كذلك

– لقد كنتَ والله

– دعْ عنك هذا الآن ، وهاتِ ما أنتَ سائلي عنه فيما قلتَ

– حسنًا يا أمير المؤمنين ، فحدثني أولاً عن تقسيم الدولة الإسلامية في عهدك إلى ولايات

– اتسعتْ أقاليم الدولة في عهدي نتيجة الفتوحات التي منّ الله بها علينا ، فكان لا بُدّ من تقسيمها إداريًا ليسهل أمر إدارتها ومتابعتها ، والقيام على أمورها ، فقسمتُ الأمصار المفتوحة إلى خمس مناطق كبرى ، تنقسم بدورها إلى ولايات وهي على الشكل التالي :

العراق وتضم الأحواز والكوفة والبصرة

فارس وتضم سجستان ومكران وكرمان وطبرستان وخراسان

الشام ويضم حمص ودمشق وأيلة والرملة

أفريقيا وتضم صعيد مصر ، ومصر السفلى وغرب مصر ، وصحراء ليبيا

أما جزيرة العرب فأبقيتُ على تقسيمها على الهيئة التي قسمها أبو بكر ، وبقيت تضم اثنتي عشر ولاية هي : مكة ، والمدينة ، وصنعاء ، وحضرموت ، وخولان ، وزبيد ، ومرقع ، والجند ، ونجران ، وجرش ، والبحرين ، والطائف .

– أنتَ أخبر بطريقة تقسيم البلدان إداريًا ، ولكن من حيث المبدأ ، صدقتَ إذ قلتَ كان لا بد من تقسيم البلدان ليسهل أمر إدارتها ، فماذا عن الولاة؟

– ماذا عنهم؟

– كيف كنتَ تُعيّنهم؟

– لم أكن أنظر في صلاح الرجل في ذاته بقدر ما أنظر إلى صلاحه للولاية ، وكنتُ أوليّ أناسًا وأمامي من هو أتقى منهم ، وأكثر علمًا ، وأشدُّ عبادة ، ذلك لما أعرفُ أنه وإن كان أحسن دينًا فإن الآخر أقدر على القيام ، فوليتُ من أصحاب رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وتركتُ من هو أفضل منهم ، كعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف .

– أكان من ذكرتَ أنكَ تركتَ توليتهم أعجز من غيرهم عن القيام بأمور الناس؟

– من قال هذا؟

– هذا ما فهمته أنا!

– أبدًا يا بُنيّ ، وإنما ما عنيته ، كان في عمل محدد ، وظرف محدد ، وعندما حان دورهم جعلته لهم ، فإن كنتُ لم أستعمل عليًّ بن أبي طالب ، وعثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة والزبير في ولاية ، فقد أوصيتُ أن تكون الخلافة في واحد منهم من بعدي ،

ولا شكَّ أن أمر الخلافة أصعب من أمر الولاية ، فالوالي إنما هو أمير بلد ، أو مدينة ، أما الخليفة فهو أمير كل البلدان وكلّ الناس ، هذا أمر ، أما الأمر الآخر ، فقد كرهتُ أن يتفرق كبار الصحابة في البلدان والأمصار ، لحاجتي إليهم عندي في الرأي والمشورة والنصح ، ووجود هؤلاء عن مقربة مني بعقولهم النيرة وقلوبهم العامرة بالإيمان ، أنفع للمسلمين من جعلهم أمراء مناطق ، وكان بإمكان كثيرين أن يكونوا ولاة ، ولكن ليس بإمكان كثيرين أن يكونوا في الحلقة الضيقة التي أردتها حولي .

– فما كنتَ تشترطُ من صفات في من توليه ولاية؟

– كنتُ أشترطُ أمورًا كثيرة بالإضافة إلى حسن الإسلام والسيرة وهذا أمر مفروغ منه ، فلا يلي لي أمراً إلا من حسبته مسلمًا أمينًا ، فإن تحقق هذا ، كان أول ما بحثتُ عنه فيه الرحمة بالناس ، وكنتُ مرةً قد أرسلتُ إلى رجلٍ لأعقد له ولاية ، فلما حضر ، أمرتُ الكاتب أن يكتب في هذا كتابًا ، فلما فرغ الكاتب منه ناولني إياه ، فجاء صبي من أحفادي فجلس في حجري ، فلاطفته وقبلته

فقال لي : يا أمير المؤمنين إن لي عشرةً من الأبناء ما قبلتُ منهم أحدًا قط!

فقلتُ : وما أصنع بكَ إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك؟

– فماذا فعلتَ بعدها؟

– مزقت الكتاب ، وقلتُ له : قم عني فلا حاجة لي بك!

– ولِمَ فعلتَ هذا ، وقد علمتَ إسلامه وأمانته ، وإلا ما طلبته لتوليته؟

– لقد قلتُ في نفسي : إن لم يرحم هذا أبناءه ، فكيف يرحم الناس؟

يا بنيّ من لم تطل رحمته من حوله فلا ترجو أن تطال من بعد عنه ، ومن كان قاسيًا على القريب ، فهو على الغريب أقسى ، وقد قال رسول الله ﷺ : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي» وقد كان رسول الله ﷺ ليطيل السجود لأن الحسن والحسين صعدا على ظهره ، ونزل مرةً عن المنبر ليحمل الحسن بعدما تعثر وهو صبي

وكان أبو بكر أيام خلافته إذا خرج إلى الطريق ، أسرع إليه الأولاد ، وتعلقوا بثوبه ، وقالوا له : يا أبتاه ، يا أبتاه! فمن قال أن الرحمة ضعف ، واللهِ إن أقوى الناس أرحمهم ، وأضعفهم أغلظهم ، ولا حاجة لي في غليظ!

– فما كنتَ تشترطُ بعد الرحمة؟

– القوة والأمانة ، فإذا اجتمعتا في شخص ولَّيته ، ولا بُدَّ عندي أن يقترنا ، ولربما بدّلتُ القوي بمن هو أقوى منه على القيام بالأمر ، وليس في الأمر منقصة في الأول ، وإنما لفضل الثاني ، فإنما الرجل لنفسه وضعفه للناس ، ولكن المؤمن القوي له وللناس!

– فهل تذكر من هذا خبرًا يا أمير المؤمنين؟

– أجل أذكر ، فقد عزلتُ شرحبيل بن حسنة ، وعينتُ مكانه معاوية ، فجاءني شرحبيل

وقال لي : أمِن سخطٍ عزلتني يا أمير المؤمنين؟

فقلتُ : لا يا شرحبيل ، لا عن سخط ولا عن تهمة ، ولكني أرى رجلاً أقوى من رجل ، فأوليه وأمنع الأول وهو أحبُّ إليَّ!

– أعجبتني هذه النقطة جدًا يا أمير المؤمنين ، كنتَ فذًا إذ التفتَّ إليها ، فقد يكتفي حاكم بصفة الإيمان دون أن يلتفت إلى مدى قدرة من ولاه على القيام بما ولاه .

– هذا ما يقوله العقل ، ويقتضيه المنطق ، وقد اتفقنا أن حسن الإسلام والسيرة لا تنازل عنهما أبدًا ، ولكن تبقى قدرة الرجل عن القيام بأعباء ما نريد أن يتولى ، لنفترض أن عندنا معركة ، وعندنا قائدان ، الأول أحسن إيمانًا من الثاني ، ولكن خبرته العسكرية أقل ، والثاني إسلامه حسن ولكنه أقل من الأول بينما خبرته العسكرية أكثر ، ألا يقضي العقل أن يكون على الجيش الثاني؟

– ولـمَ يا أمير المؤمنين؟

– لأن إيمان كل رجل منهما لنفسه ، وكلاهما فيهما أصل الإيمان ، ولكن خبرتهما العسكرية للمسلمين ، ونحن في المعركة أحوج إلى الداهية في الحرب من التقيّ

– أهكذا يكون المعيار دومًا؟

– هذا بحسب الموقف ، أحيانًا يكون التُقى هو الباعث على التولية ، لنفترض أن عندنا مسألة فقهية ، فيها نص صريح ، ولا تحتاج لإعمال العقل ، واجتهاد ، وقياس هذا بذاك ، وعندنا فقيهان الأول أقل علمًا من الثاني ولكنه أتقى ، والثاني أعلم من الأول ولكنه أقل تُقى ، هنا نجعل الأول على القضية ، لأن المسألة تحتاج ورعًا أكثر مما تحتاج إلى اجتهاد ، بينما لو كانت المسألة تقتضي الاجتهاد ، والقياس ، وضرب الرأي بالرأي ، للخروج برأي جديد ، فإنّ المنطق يحتم أن يكون الثاني على الأمر ، إذ أننا في هذه الحالة أحوج إلى كثير العلم منا إلى كثير التُقى!

– حسنًا فهمتُ

– بقي أن أخبرك أنّ الولاية لا يصلح لها من لم يكن عارفًا بأمر الدنيا ، بالخير والشر على السواء ، وقد استشرتُ يومًا من عندي في أمرٍ أريد أن أجعل عليه رجلاً ، فقال لي أحدهم : اجعل عليه فلانًا

فقلتُ له : ولِمَ؟
فقال لي : إنه لا يعرفُ الشرَّ
فقلتُ : ويحكَ ، ذلك أدنى أن يقع فيه!
– فلمَ قلتَ هذا يا أمير المؤمنين؟
– يا بنيّ إن الإنسان عدو ما يجهل ، فلا يكفي أن يعرف الوالي أبواب الخير ليأتيها ، ولكن يجب أن يعرف أبواب الشر كذلك ليتجنبها ، ولأبسّط لك الأمر ، خُذ عندك مثلاً ، الرجل الذي لا يعرف إلا الحلال ، إنسان طيب ، ولكنه عرضة أن يقع في الحرام لأنه لا يعلمه ، وهذه كتلك!
– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، فماذا كنتَ تشترط في الوالي غير ما ذكرتَ لي؟
– كنتُ كثيرًا ما أجعل على القوم رجلاً منهم إذا تحققت فيه الشروط السابقة ، فلو أردتُ أن أختار واليًا على قوم ، وكان الأمر بين رجلين ، وكلاهما جدير بهذا المنصب ، وأحدهما من القوم ، والآخر ليس منهم ، كنتُ أجعل على القوم من هو منهم!
– فهل تذكرُ شيئًا من هذا؟
– أجل ، لقد وليتُ جابر بن عبدالله البجلي على قومه بجيلة ، حينما وجهتهم إلى العراق ، وجعلت سلمان الفارسي على المدائن وهو من القوم أصلاً ، وجعلتُ نافع بن الحارث على مكة وهو مكيّ ، وعثمان بن أبي العاص على الطائف وهو منها .
– فلمَ كنتَ تفعلُ هذا؟
– كنتُ أرمي من وراء ذلك إلى أهداف يستطيع ذلك الشخص تحقيقها أكثر من غيره ، إذ أني كنتُ أنظر إلى بعض الخصائص والطباع والعادات والأعراف ، فلا بُدَّ للوالي أن يعرف طبيعة الناس الذين تولى أمورهم ، ولا أحد أخبر بالقوم من واحد منهم ،

لهذا لم أكن أستعمل أهل الوبر على المدر ، وأهل الوبر هم الأعراب ساكنو الخيام ، وأهل المدر هم الحضر ساكنو المدن ، لأن لكل من أهل المدر والوبر خصائص وعادات وأخلاق وطباع مختلفة ، ومن تمام الولاية أن يكون الوالي عارفًا بنفسية الرعية ، فليس من الحكمة أن يتولى الرعية رجل جاهل بها ، فقد يرى العُرف نكرًا ، وقد يرى الطبيعي غريبًا ، فيؤدي ذلك إلى غير ما تتوخاه الدولة من أهداف تسعى لتحقيقها!

– تالله هكذا تكون السياسة ، وهكذا يكون الحكم ، وقد خُلقتَ لهماَ ، فأخبرني يا أمير المؤمنين ، لماذا لم تستعمل أحدًا من أقاربك على ولاية؟

– والله ما استبعدتهم عن تهمة ولا خيانة ، وإني كنت أثق بدينهم وأمانتهم ، فقد كان سعيد بن زيد ابن عمي نعم الرجل ، وكان عبدالله ابني فقيهًا عالمًا ، ولكني ما وليتهم لسببين ، الأول أني كنتُ أقول في نفسي إن كانت الإمارة خيرًا فيكفي آل عمر أن أصابها رجل منهم ، وإن كانت شرًا فحسبُ آل عمر أن يصيبها رجل منهم!

والثاني إني كنتُ أريد أن أغلق طريق الشيطان إلى قلوب الرعية ، فلا يُقال ما ولى عمر هذا إلا لقرابته منه!

– فهل أشار أحدٌ عليك أن تجعل لأحد من أقاربك ولاية؟

– نعم ، قد حدث هذا

– فما القصة؟

– شكوتُ إلى أحد جلسائي ما همّني من إتعاب أهل الكوفة للوالي بعد الوالي

ثم قلتُ : لوددتُ أني وجدتُ رجلاً قويًا أمينًا مسلمًا أستعمله عليهم

فقال لي : أنا أدلك عليه

قلتُ : من هو؟

قال : عبدالله بن عمر

قلتُ : قـاتلكَ الله ، والله مـا أردتَ وجـه الله في هذا! من استـعـمل رجـلاً لمودة أو قـرابة لا يشـغله إلا ذلك فـقـد خـان الله ورسوله .

– ولكنك قلتَ أن ابنك كفؤ!

– صحيح ، ولكني قلتُ حسبُ آل الخطاب أن يصيب الإمارة رجلٌ منهم ، وقلتُ أني أريد أن أسدَّ منافذ الشيطان!

– أجل كـان منكَ هذا ، فـأخـبـرني يا أمـيـر المؤمنين عن أمـر سمعته عنك في أمر الولاة!

– أي أمر؟

– بلغني أنكَ كنتَ لا تعطي الولاية من طلبها!

– صِدقٌ ما بلغك! وقد كنتُ عزمتُ أن أعقد لرجلٍ ولاية ، فإذا به قد دخل عليّ فطلبها مني

فقلتُ له : قد كنا أردناك لذلك ، ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه!

– ماذا قصدت بقولك : من طلب هذا الأمر لم يعن عليه؟

– يا بُني إن الإمـارة تكليف لا تشـريف ، من وليـهـا وهو يرى عظم حملها على ظهره ، واستحضر أنه يوم القيامة واقف أمام الله فسائله عن الأمانة التي حملها إن كان حفظها ، وعن الرعية التي حكمها إن كان عدل فيها ، فهذا يعينه الله على حمله ، ويخفف عنـه ، ويسـدده ، ويسخر له أعوانًا نصحة ، ورعـيـة سَمَعَة ، ومن طلبـهـا لعـز أو جاه لا يناله من العز والجاه إلا مـا قسم الله له ،

ولكن من طلب شيئًا لنفسه فاته أن ينتبه لحظ الناس فيه ، والأصل في الإمارة الرعية لا الأمير ، فلولاها ما كان ، وهو عامل عندها لا هي عاملة عنده!

– صدقتَ يا أمير المؤمنين فأخبرني ماذا كنتَ تشترط على الولاة أيضًا؟

– كنتُ أُحصي ثرواتهم عند تعيينهم لأعرف إن كانوا قد استخدموا منصبهم لمآربهم الشخصية ، وكنتُ أمنعهم إذا وليتهم أن يُتاجروا! فامنعهم من الدخول في الصفقات العامة سواءً كانوا بائعين أو مشترين ، وبعد عزلهم كنتُ أنظر في أموالهم ، فأقارن الحال الأولى التي كانت عليها عندما تسلموا مناصبهم ، والحال التي صارت إليها بعد حكمهم ، وكنتُ أحاسبهم على ما زاد مما لا يدخل في باب الزيادة المعقولة! فمن تذرع بالتجارة منهم ليبرر ثراءً حققه وهو أمير على الناس

قلتُ له : إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجارًا!

– أليستْ التجارة حلالاً يا أمير المؤمنين؟

– هي كذلك والله ، وقد أحلّ الله البيع وحرّم الربا

– فكيف تمنع حلالاً إذًا؟

– وهل منعتُ الناس من التجارة؟

– لم تمنع الناس ، ولكنك منعتَ عمالك

– لم أمنعهم من التجارة لأنها حرام على الأمير ، ولكن هذا كان شَرطي عليهم ، والناس على شروطهم ، فمن شاء نزل عند شرطي فاستعملته ، ومن رفض فماله معه والسوق أمامه ، فليبع ويشترِ!

– فما الحكمة من منع اشتغال الأمير بالتجارة؟

– هذا واضح جليّ يا بُنيّ ، وما حسبتكُ تسأل عنه ، ولكني أقول لك : إن اشتغال الأمير بتجارته قد يكون فيه تضييع لما عهدتُ به إليه ، والمال فتنة ، ولو تركتُ هذا الباب مفتوحًا لنازع الأمير الناس ، والسلطان بيده ، فماذا لو طلب كل قافلة آتية لنفسه ، واختص كل سلعة رائجة له ، كيف يكون حال الناس بعد أن نازعناهم أموالهم وقوتَ عيالهم؟

– ولكن قد يكون الأمير تاجرًا ورعًا يخاف الله!

– هذا صحيح ، ولكن هذا لا يلغي المانع الأول ، وهو انشغاله شاء أم أبى عما جعلناه عليه ، ثم إني لا أُشرِّع للواحد ، وإنما للجميع ، فما يستقيم أن أقول : أنتَ يا فلان وليناك فتاجر ، وأنتَ يا فلان وليناك فلا تتاجر ، إنما هذا شرطي على عمالي جميعًا ، وهذا أمر قد تركته أنا وقد كنتُ قبل الخلافة أتاجر ، ومن ساواك بنفسه ما ظلمك!

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، فأخبرني ، هل أحصيتَ يومًا مالاً قبل وبعد الإمارة فوجدته زائدًا زيادة شككت بها؟

– أجل ، كان هذا!

– فما القصة؟

– استعملتُ عاملاً يُقال له الحارث بن كعب بن وهب ، وأحصيتُ ماله أول الأمر ، كما كنتُ أفعل مع الجميع ، ثم لما أردتُ أن أجعل أحدًا مكانه ، أحصيتُ ماله مرة أخرى ، فوجدتُ أن المال قد زاد زيادة تبعث الريبة في الصدر!

– فما فعلتَ؟

– سألته : من أين لك هذا يا حارث بن كعب؟

فقال : خرجتُ بنفقة معي فاتجرتُ بها

فقلتُ : أما واللهِ ما بعثناكم لتتجروا
وأخذتُ منه ما ربح من التجارة
– ولكن المال مال الرجل!
– ماله لو كان من الناس لا من الأمراء
– وما الفرق؟
– أولاً هو أخلَّ بالشرط الذي اشترطته عليه أن لا يعمل بالتجارة ، وثانيًا لو أخذتُ الزيادة في ماله لنفسي لكنتُ قد نازعته ماله ، ولكنني رددتُ الزيادة لبيت المال ، فقد رأيتُ ما أخبرتك به سابقًا ، فقيامه بالتجارة لنفسه كان على حساب الرعية التي كان يتقاضى راتبًا ليدير أمرها فلا يشغله شيء عنها ، فهذا مال زائد على حساب الناس فعاد إليهم!
– سبحان الله ، إنك تنظر إلى الأمور من جانب لا أظن غيرك ينظر إليها به ، فيكون منك الحكم فيها على هيئة تثير الإعجاب
– الله الموفق والمسدد يا بنيّ
– فهل كنتَ تستشير الناس في أمر الولاة
– ماذا تقصد؟
– أقصد أن أسألك ؛ لو أنك عزمت أن تجعل أحدًا واليًا ، أكنت تسأل الناس عنه طلبًا للرأي والمشورة؟
– معرفتي بالناس ليست سواء ، فإنما أنا رجل أعرف بعضهم حق المعرفة ، وأعرف شيئًا قليلاً عن بعضهم الآخر ، فلربما وليتُ من أعرف حق المعرفة دون الرجوع لأحد ، لأن الهدف من المشورة متحقق عندي ، ولربما رغم هذا سألتُ وسمعتُ فاستأنستُ بالرأي ، أما من حسبتُ أني لا أعرف كثيرًا عنه ، فكنتُ إذا أردتُ أن أوليه لما وصلني من حسن إسلامه وأمانته ، سألتُ عنه من يعرفه ، وطلبتُ الرأي والمشورة

- حسنًا ، فهمتُ .
- وأزيدك من الشعر بيتًا
- تفضل يا أمير المؤمنين
- كنتُ أستشير في أمر بلدٍ بأكمله ، وليس في أمر أمير فقط
- وكيف ذاك؟
- سأخبرك ، وأمثل لك بقصة لتفهم طريقتي في الحكم
- حبذا لو تفعل
- استشرتُ الصحابة فيمن أجعل على الكوفة ، وقلتُ لهم : من يعذرني من أهل الكوفة من تجنيهم على أمرائهم ، إن استعملتُ عليهم لينًا استضعفوه ، وإن استعملتُ عليهم شديدًا شكوه!

ثم قلتُ : يا أيها الناس ما تقولون في رجلٍ ضعيف غير أنه مسلم تقي ، وآخر قوي مشدد ، أيهما أصلح للإمارة؟

فقال المغيرة بن شعبة : يا أمير المؤمنين إن الضعيف المسلم ، إسلامه لنفسه ، وضعفه عليكَ وعلى المسلمين ، والقوي المشدد فشداده على نفسه ، وقوته لك وللمسلمين ، فأعمِل في ذلك رأيك!

فقلتُ : صدقتَ يا مغيرة

ثم جعلته على الكوفة وقلتُ له : انظُرْ أن تكون ممن يأمنه الأبرار ويخافه الفجار!

فقال : أفعلُ يا أمير المؤمنين

- فهل كان كذلك؟
- أجل والله ، لقد كان صالحًا للإمارة ، يفقه تدبير الناس ، وأحسبُ أنه لو ولَيّ الكوفة من هو عندي خير منه ، ما قام بما قام به ، فقد انصاعوا له ، وخفّت شكواهم ، وذهب تذمرهم!
- فهل كان عندك شيء بعد بشأن الولاة قبل توليتهم؟

- أجل هناك شيء بعد

- وما هو؟

- كنتُ أختبرُ بعضهم قبل أن أوليهم

- كيف ذلك؟

- أردتُ أن أوليّ الأحنف بن قيس ، فأبقيته عندي سنة كاملة ، أنظر حاله وصلاحه وما يكون منه ، فلما رأيتُ منه الذي أرضى ، قلتُ له :

يا أحنف ، إنما بلوتك وخبرتك ، فرأيتُ علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك ، وإنا كنا نتحدثُ إنما يهلكُ في الأمة كل منافق عليم .

ثم قلتُ له : أتدري لِمَ احتبستكَ عندي يا أحنف؟

فقال : لا

قلتُ : لأني أردتُ أن أوليكَ ، وقد رأيتُ منك ما أحبُّ أن أرى من عمّالي

فقال : هذا من حسن ظنّ أمير المؤمنين

فقلتُ له ناصحًا قبل أن يمضي :

يا أحنف ، من كثر ضحكه قلّت هيبته ، ومن مزحَ استخف به ، ومن أكثر من شيء عُرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه!

- يا لها من نصيحة يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن آخر شيء أودُّ أن أسألك عنه بخصوص تولية الولاة .

- وما هو يا بنيّ؟

- بعد أن تتحقق في الرجل الصفات التي ترى أنها تجعله يستحق أن تستعمله ، ماذا كنتَ تفعل ، كيف يعرف أهل البلد أنكَ أرسلته عليهم ، وكيف يعرف أميرهم الذي تريد أن تعزله أيضًا؟

- حينما كنتُ أنتهي من اختيار الوالي ، واستشارة المستشارين ، كنتُ أكتبُ له كتابًا يُسمى عهد التعيين ، وأشهد عليه رهطًا من المهاجرين والأنصار ، واشترط عليه في الكتاب شروطًا استفضنا في الحديث عنها ، هذا إن كان الشخص حاضرًا ، فإن كان غائبًا ، كتبتُ له كتاب التعيين وأرسلته إليه ، ككتابي إلى العلاء بن غزوان ، وفي حال عزل أمير وتعيين آخر مكانه ، فإن الوالي الجديد كان يحمل كتابًا يتضمن عزل الأول وتعيينه مكانه ، وذلك ككتابي مع أبي موسى الأشعريّ حين عزلتُ المغيرة بن شعبة عن ولاية البصرة وعينت أبا موسى مكانه .

- ألم تقل لي أن المغيرة بن شعبة كان خليقًا بالإمارة؟

- أجل قلتُ .

- ففيمَ عزلته عن إمارة البصرة؟

- نجاحُ المغيرة بن شعبة في إدارة شؤون الكوفة لا يعني بالضرورة نجاحه في إدارة شؤون البصرة! لكل بلد خصوصيته ، ولكل قوم طباع ، وقد ينجح الوالي في تدبير شؤون بلد بشكل باهر ثم يفشل في تدبير آخر ، ثم لم يكن العزل دومًا لفشل في الإدارة ، لربما أعجبني منه الذي كان فأردتُ أن أجعله على عمل آخر يناسب تلك القدرات التي ظهرت عليه أثناء إمارته .

- حسنًا ، فهمتُ ، وبهذا أكتفي من تعيين الولاة ، وبما أنك ذكرت عزلهم ، فهل تأذن لي أن أسألك عن الأمر؟

- لكَ هذا

- تحدثنا طويلاً عن عزل خالد بن الوليد ، فماذا عن عزل سعد بن أبي وقاص؟

- سعد بن أبي وقاص ذلك النقي التقي ، خال رسول الله ﷺ ، وهو أول من رمى بسهم في الإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ قولاً يُغبط عليه ، حيث قال : ارم فداكَ أبي وأمي! أما العزل فما كان عن تهمة ، وسيأتي ذكرُ هذاَ ، المهم أنه اجتمع نفر من الكوفة بزعامة الجراح بن سنان الأسديّ ، فشكوا إلى أميرهم سعدًا ، وذلك في زمن اجتماع المجوس في نهاوند لغزو المسلمين ، ولقد كان سعد عادلاً رحيمًا بالرعية ، قويًا حازمًا على أهل الباطل والشقاق ، عطوفًا على أهل الحق والطاعة ، ومع ذلك شكاه إلى هؤلاء ممن لا يطيقون حكم الحق ، ويريدون أن يحققوا شيئًا من أهوائهم ، وقد اختاروا لشكواهم وقتًا رأوا أنه أدعى لإجابتي طلبهم ، حيث أن المسلمين كما أخبرتكَ مقبلون على معركة مصيرية تستدعي اتفاق الكلمة ، وقد استجبتُ لطلبهم في التحقيق في أمر شكواهم مع علمي أنهم أهل هوًى وشر ، فبعثتُ محمد بن مسلمة لينظر في الأمر ، وكان سعد على عهدي به ، نعم القوي الأمين ، ولكن عزلته درءًا للفتنة وإماتتها ، وهي في مهدها قبل أن تستفحل ، فتسبب الشقاق والفرقة ، وربما القتال ، وعندما عاد سعد إلى المدينة جعلته معززًا مكرمًا كما يليق به ، فقد كان من مستشاريّ المقربين ، وقد أخبرتك من قبل أني جعلته في الستة الذين يكون منهم الخليفة من بعدي ، وما كنتُ لأفعل هذا لو شككتُ قيد أنملة به ، ولا شك أن إمارة المسلمين جميعًا أرفع مقامًا من إمارة مدينة!

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، ولكن ، واعذرني لفظاظة السؤال ، ألم يكن في هذا التصرف ضعفًا ، وهو ما أنا على يقين أنه ليس فيك؟

– وأين الضعف يا بُنيّ؟

– رجل تعرفُ دينه وأمانته ، وترسلُ من يرى إن كان قد تغيَّر ، فيخبرك من أرسلته أنه على الحال الذي عهدته عليها ، ورغم هذا تعزله!

– يا بُنيّ ، ليس الفطن من علم الخير من الشر ، ولكن الفطن من علم خير الشرين! ولو كانت الحياة تضعنا دومًا في خيار بين خير وشر لكان أمرها يسيرًا ، وكان الخيار أيسر ، ولكنها أحيانًا تضعنا في مواقف تحتم علينا أن نختار فيها أخف الأضرار! فقد أخبرتك بالحال التي رفعوا فيها شكواهم إليّ ، وأن أعزل عادلاً ، وأعين مكانه عادلاً فليس في الأمر ظلم ، إنه فقه الواقع ، لطالما كانت الرعية أهم من الراعي ، وسعد لو خيرناه بين الفتنة والإمارة ، وبين العزل وحسن ذات بين المسلمين ، لاختار العزل دون تردد ، أحيانًا عليكَ أن تُقدّر الموقف ، بعض المواقف كالعاصفة ، انظر للطبيعة إذا ضربتها عاصفة هوجاء ، تكسر الشجر ، وربما قلعته ، ذلك أنه وقف في وجهها دون أن ينزاح قيد أنملة ، ثم انظر إلى العشب كيف ينحني يسيرًا حتى تمر العاصفة فيسلم ، وقد كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، وقد أخبرتك بما كان من قريش يوم صلح الحديبية ، وكيف أعطاهم شروطًا اشترطوها ، كنت أنا على رأس من غضب لله ورسوله ، ولكني بعد أن مرت العاصفة ، علمتُ أن المرونة لا تتنافى مع القوة أبدًا ، ومنه صلى اللّه عليه وسلم تعلّم عمر!

– صلى الله عليه وسلم ، والآن بعد أن تحدثنا في تعيين الولاة وعزلهم ، أريد أن أسأل : هل كنتَ تتابعهم ، وترى ما يصنعون أثناء ولايتهم ، أم تكتفي بما تعرفه عنهم من حسن الإسلام والسيرة؟

– لم أكن أكتفي بأن أحسن اختيار عمالي ، وإنما كنتُ أبذل قصار جهدي في متابعتهم بعد أن أوليهم لأطمئن على حسن سيرتهم ، ومخافة أن تنحرف نفوسهم ، وكان شعاري فيهم : خير لي أن أعزل كل يوم واليًا من أن أُبقي ظالمًا ساعة من نهار!

وكنتُ أقول : أيما عامل لي ظلم أحدًا فبلغتني مظلمته فلم أنصره فأنا الذي ظلمه!

وقلتُ يومًا لمن حولي : أرأيتم إن استعملتُ عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أكنتُ قضيتُ ما عليّ؟

فقالوا : نعم

فقلتُ : لا ، حتى أنظر في عمله ، أعمِلَ بما أمرته أو لا!

وكانت طريقتي في الحكم إطلاق العامل في الشؤون المحلية ، وتقييده في المسائل العامة ، ومراقبته في سلوكه وتصرفاته

– وكيف كنتَ تفعل هذا؟

– كان لي جهاز سريّ مرتبط بي مباشرة لمراقبة أحوال الولاة والرعية .

– يبدو هذا أشبه بما نسميه في زمننا هذا جهاز المخابرات! غير أن الأهداف ربما تختلف بينهما ، فحدثني عن هدف إنشاء هكذا جهاز!

– كان هدفه الأول والأخير توفير الأمن والحماية للدولة ، وليس التجسس على عورات الناس ، وبثِّ الرعب في نفوسهم ، ومن مهامها أيضًا المتابعة الدقيقة للولاة ، وهكذا كان علمي بمن نأى عني من عمالي كمن بات معي في المدينة!

فلم يكن في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل أو أمير جيش إلا وعليه عين لا تفارقه ، فكان ما يحدث في المشرق والمغرب عندي!

وكنتُ أطلب من الولاة أن يرسلوا كل مدة وفدًا من أهل البلد لأسألهم عن بلادهم ، وعن أميرهم ، وعن الخراج المفروض عليهم لأتأكد بذلك من عدم ظلمهم!

وكنتُ أطلب أن يأتي مع المال عشرة رجال ليشهدوا عندي أنه مال طيب ما فيه ظلم لمسلم ولا معاهد ، وكان هذا كفيلاً بمنع ظلم الولاة للناس ، ولو حصل ظلم لرفعه إليّ من جعلته بالسر رقيبًا على الأمير وأهل البلد!

وكنتُ إذا أرسلتُ البريد إلى الولاة في الأمصار ، أمرتُ حامل البريد بعد أن يوصل رسالتي إلى الأمير ، أن ينادي في الناس ويقول : من يريد إرسال رسالة إلى أمير المؤمنين؟ فإن كان هناك رسالة حملها إليّ دون تدخل من الأمير ، وكان صاحب البريد نفسه لا يعلم شيئًا عن مضمون الرسالة ، فقد أمرته أن يسلمني إياها مغلقة حتى أفتحها بنفسي ، وهكذا كان المجال مفتوحًا أمام الناس لرفع أي شكوى أو مظلمة إليّ دون معرفة الأمير ومن حوله بذلك ، وكانت إذا وصلتني رسائل الشكوى اطلعتُ عليها بنفسي ، ونظرتُ فيها ، ثم أقضي بالذي أراه الحق!

كما أني جعلتُ محمد بن سلمة الأنصاريّ كالمفتش العام في الدولة ، وأوكلتُ إليه متابعة الولاة ، ومحاسبتهم ، والتأكد من الشكاوى التي تأتي ضدهم!

وكان موسم الحج فرصة سانحة لي لأستقي أخبار الرّعية والولاة ، فجعلته موسمًا للمراجعة والمحاسبة ، واستطلاع آراء الرعية في ولاتهم ،

فيجتمع فيه أصحاب الشكايات والمظالم ، والرقباء الذين بثثتهم في أرجاء الدولة لمراقبة العمال والولاة ، وكان العمال يأتون في الحجِّ إليَّ لتقديم كشف حساب عن الأعمال

وكنتُ في آخر عهدي بالخلافة قد عزمتُ أن لا أكتفي بكل هذا ، فقد أردتُ أن أجول على الولايات شخصيًا لمراقبة العمال ، وتفقد أحوال الرعية ، والاطمئنان على أحوال الدولة المترامية الأطراف ، وقلتُ : لئن عشتُ إن شاء الله ، لأسيرنَّ في الرعية حولاً كاملاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إليَّ ، وأما هم فلا يصلون إليّ ، فأسير في الشام فأقيم فيها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم فيها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم فيها شهرين ، ثم أسيرُ إلى البصرة فأقيم فيها شهرين ، ثم واللهِ لنعم الحولُ هذا!

– واللهِ إنه لنعمَ الحول يا أمير المؤمنين ، ولنعم الرجل أنتَ! فأخبرني الآن عن القضاء في عهدك .

– أي شيءٍ منه تحديدًا أخبرك عنه؟

– كيف كان حاله ، وكيف نظمته ، وما خبرك مع القضاة؟

– حسنًا سأخبرك :

أنزل الله القرآن على نبيِّه ﷺ ، متضمنًا الشرائع والأحكام ، وكان النبيّ ﷺ هو الذي يتولى الفصل بين الناس ، وتطبيق الحدود والأحكام ، كما أنه استعان ببعض الصحابة في ذلك ، فبعث معاذًا إلى اليمن قاضيًا ومعلمًا ، وكذلك بعث عليًا بن أبي طالب .

وعلى هذا سار أبو بكر الصدِّيق ، يحكم بنفسه ، ويقضي بما أراه الله ، وبسبب حروب الردة شُغل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإعادة الناس إلى رحاب الإسلام ،

فكان القضاء في المدن والقرى التي لم ترتد عن دين الله ، وما كاد رضي الله عنه يعيد الإسلام واسعًا منتشرًا كما كان في عهد رسول الله ﷺ حتى انقضى أجله ، ولحق بصاحبه ، أسأل الله أن يجمعني بهما في جنات عدن عند مليك مقتدر .

– اللهم آمين

– ولك بمثله يا بنيّ . . ووصلاً لما انقطع ، لما توليتُ الخلافة ، كنتُ أول الأمر أتولى الفصل بين الناس ، وتطبيق الحدود والأحكام ، ولما توسعت الدولة ، واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة ، تعذّر عليّ وكذلك الولاة النظر فيها ، فعمدتُ إلى فصل القضاء عن الإمارة ، وشرعتُ في تعيين القضاة في البلاد المفتوحة ، فوليتُ أبا الدرداء قضاء المدينة ، وشريحًا الكندي قضاء الكوفة ، وعثمان بن أبي العاص قضاء مصر ، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة .

– وهل أجريتَ لهم رواتب أسوة بالولاة؟

– طبعًا فعلتُ هذا ، فكما جعلتُ للوالي راتبًا كي يتفرغ لخدمة الرعية ، ولا يشغله تأمين قوته وقوت عياله عما جعلته عليه ، كذلك جعلتُ للقضاة راتبًا يتلقونه ، كي يجلسوا في مجلس القضاء متفرغين ، ينتظرون المتخاصمين ليفضوا النزاع بينهم .

– وهل كنت ترقب أعمال القضاة كما كنتَ تراقب أعمال الولاة؟

– أجل كنتُ أفعل هذا ، فلم أجعل العيون التي بثثتها لمراقبة تسيير أمور الناس حكرًا على الولاة فقط ، وإنما على القضاء ، وعلى كل عامل غيرهم عهدتُ إليه شأنًا من شؤون الرعية ، وقد أخبرتكُ أني ما جعلتُ هذه العيون لتهمة أو ريبة ، وإنما للاطمئنان ،

والقضاء كالإمارة فيه مصالح الناس ، وشؤونهم ، لهذا كان لا بد من مراقبة طريقة سيره

– فهل كنتَ تنصح القضاة كما تفعل مع الولاة؟

– أجل كنتُ أفعل هذا ، ولا أذكرُ أني استخدمتُ عاملاً لعمل تركته يذهب لأدائه دون أن أنصحه

– فهل تذكر من نصحك للقضاة شيئًا؟

– هذا حديث يطول ، لهذا أكتفي بذكر نصيحتي لأبي موسى الأشعري وهو على قضاء البصرة .

– ماذا قلت له؟

– أرسلتُ له كتابًا أقول فيه :

من عبدالله عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة ، وسُنة متبعة ، فافهمْ إذا أُدلي إليكَ بحجة ، فإنه لا ينفع تكلُّم بحقٍّ لا نفاذ له ، آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك!

البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلحُ جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرّم حلالاً أو أحلّ حرامًا!

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعتَ فيه نفسك ، وهُديتَ فيه لرشدك أن ترجع عنه للحقّ ، فإنّ الحقَّ خير من التمادي في الباطل!

الفهمَ ، الفهمَ ، عندما يتلجلجُ في صدرك مما لم يبلغكَ في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ !

اعرفُ الأمثال والأشباه ، وقِس الأمور عند ذلك ، ثم أعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى!

واجعل للمدعي حقًا غائبًا ، أو بينة ، أمدًا ينتهي إليه ، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه ، وإلا وجّهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغُ في العُذر!

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودًا في حدّ ، أو مُجَرَّبًا في شهادة زور ، أو ظنينًا في ولاءٍ أو قرابة ، فإنَّ الله تولَّى منكم السرائرَ ، ودرأ عنكم بالشبهات!

ثم إيَّاك والغضبَ والقلقَ ، والضَّجر والتأذِّي بالناس ، والتنكُّر للخصوم في مواطن الحقِّ ، التي يُوجِب الله بها الأجر ، ويُحسن بها الذُّخر ، فإنه مَن يُخلص نيَّته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى -ولو على نفسه- يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس!

ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلكَ ، هتكَ الله ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنُّك بثوابِ غيرِ اللهِ في عاجل رزقه ، وثواب رحمته!

والسّلام عليكَ .

- يا الله ، سابق زمانك أنتَ يا أمير المؤمنين ، هذه رسالة يجب أن تعلق في كل محكمة ، ويقرأها كل قاض ، فقد قلتَ فجمعتَ ، وأوجزتَ فبلغتَ ، ولولا معرفتي بك ، لقلتُ هذا كلام يستحيل أن يصدر عن رجل واحد ، وإنما هي رسالة اجتمع عليها قضاة العالم بأسره ، حتى جاءت محكمة راسخة .

- ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

- فسبحان من آتاك حتى كان منك ما يسحر القلوب ، ويأخذ الألباب ، فهل تأذن أن نتوقف عندها ، فهذه رسالة يجب ألا نمرَّ عليها مرور الكرام

- سل ما بدا لكَ

– فما قولك : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة؟

– خلقَ الله الخلق وجعلهم مذاهبِ شتى ، وأهواء مختلفة ، ومصالح متفرقة ، وعقول متباينة ، وبناءً على ذلك فإن تقديراتهم للأمور مختلفة كذلك ، لهذا تحصل بينهم الاختلافات وتنشأ بينهم المنازعات ، وتكثر الخصومات ، فهم كما قال الله تعالى فيهم : «ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»

ولما كان الأمر كذلك ، فلا بدّ من حاكم يحكم بينهم ، وإلا جرتْ بينهم شريعة الغاب ، التي يأكل القويُّ فيها الضعيف ، لهذا جعل الله القضاء بين الناس فريضة واجبة ، لا نافلة حسنة ، إن شاء الوالي فعلها ، وإن شاء تركها ، أي أنها من المُحكم غير المنسوخ الذي قرره المصحف ، كقوله تعالى : «فاحكم بينهم بما أراك الله»!

وقولي فريضة محكمة وسنة متبعة ، فإنما أردتُ أن أقول أنّ ما يحكم به الحاكم هو ما أقره الله تعالى في كتابه ، وما أجراه النبي ﷺ في سنته!

– فما قولك : فافهم إذا أدليَ إليكَ بحجة؟

– ينبغي على القاضي أن يفهم الدعوى المقدمة إليه ، وأن يدرس القضية دراسة عميقة قبل النطق بالحكم ، والإلزام ، ولا يجوز له أن ينطق بالحكم قبل أن يتبين له الحق ، فصحة الحكم وحسن القصد ، من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده ، بل ما أُعطي عبد عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما ، فهما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت أفهامهم ، ويصبح من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم ومقاصدهم ، وهم أهل الصراط المستقيم!

– فما قولك : فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له؟

– ينبغي على القاضي أن يُسارع إلى البتّ والحكم في القضايا المرفوعة إليه ، وأن لا يؤجلها خشية موتها في نفس صاحبها وفواتها ، ولا بُدّ من تنفيذ هذا الحكم الصادر من القاضي بقوة تنفيذية وسلطة حاكمة ، وإلا لم يكن لقضاء القاضي وحكمه في القضية أي أثر يُذكر ، وقد مدح الله سبحانه أولي القوة في أمره ، والبصائر في دينه ، فقال : «واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار»! فالأيدي القوة على تنفيذ أمر الله ، والأبصار البصائر في دينه!

– فما قولك : آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمح قوي في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك؟

– هذا الكلام مني فيه دعوة إلى المساواة التامة بين الخصوم ، لما للمساواة من أثر طيب في نفوس المتخاصمين ، وهو شبيه بالذي كتبته لمعاوية بن أبي سفيان حيث قلتُ له : ادنِ الضعيف حتى يجترئ قلبه وينبسط لسانه! فإن القوي إذا شعر بالقاضي يدنيه كان ذلك مدعاة له إن كان صاحب بغي أن يستمر في بغيه ، والضعيف إن كان صاحب حق وشعر بالقاضي يقصيه ، كان ذلك مدعاة له أن يخاف على حقه ، وربما سكت عنه ، وما كنتُ لآمر بشيء فأدعه أنا ، وقد تحاكمتُ أنا وأُبيّ بن كعب عند زيد بن ثابت ، فقلتُ له : جئناك لتحكم بيننا ، وفي بيته يؤتي الحكم! فتنحى زيد عن صدر فراشه ، وألقى إليّ بوسادة

وقال : اجلس يا أمير المؤمنين!

فقلتُ له : أجرتَ يا زيد في أول قضائك ، ولكن أجلسني حيث تُجلس خصمي!

وهذا إنما استقيته من الرحمة المهداة ﷺ ، فقد حدثتنا أمنا أم سلمة ، أن رسول الله ﷺ قال : من ابتلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل في لحظِهِ وإشارته ومقعده!

– فما قولكَ : واعرف الأشباه والأمثال ثم قِس الأمور بعضها ببعض ، فانظر أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، فاتبعه واعهد إليه؟

– هنا أوصيه بالاجتهاد والقياس ، فهناك الكثير من القضايا التي تحتاج لإعمال العقل ، والاجتهاد فيها ، والقياس على شبيهها ونظيرها ، وأقربها لما فيه نص ، فالقضايا كثيرة والنصوص محدودة ، ولا بُدّ من الاجتهاد والقياس اعتماداً على المبادئ العامة للكتاب والسنة ، ولتحقيق هذا الغرض لا بدّ من إعمال العقل ، وإشغال الفكر في الاستنباط والتفريع للوصول إلى أحكام شرعية في القضايا المستجدة ، وهذا نهج الخليفة الأول ، وطريق الصحابة ، فقد مثّلوا الوقائع بنظائرها ، وشبّهوها بأمثالها ، وردوا بعضها إلى بعض في أحكامها ، ففتحوا لمن بعدهم باب الاجتهاد ، ونهجوا لهم طريقه ، وبينوا لهم سبيله! كما أن للمجتهد أجراً عظيماً ما صلحت نيته ، أصاب أم أخطأ ، وهذا مصداق لقول رسول الله ﷺ : إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر ، وإذا أصاب فله أجران .

– فما قولك : لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، راجعت فيه نفسك ، وهُديت فيه لرشدك أن ترجع عنه للحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل؟

– إن الغاية من القضاء هي إحقاق الحق وإبطال الباطل ، لهذا ينبغي على القاضي أن يبذل قصارى جهده للوصول إلى الحق المنشود ، فإذا قضى في أمر ما حكمًا ، ثم تبين له أنه أخطأ ، فعليه أن يعود عن خطئه إلى ما هو أحق وأصوب ، فإن الرجوع عن الخطأ فضيلة ،

وإن التمادي في الباطل كِبر ، ولا شيء أمنع من دخول الجنة من الكِبر ، وقد قال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر!

فقلنا : يا رسول الله إن الرجل ليحبّ أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنًا!

فقال : هذا ليس من الكبر ، الكبر بطَر الحق وغمط الناس!

فأما بطر الحق فهو رده بعدما تبين ، وهذا ما كنتُ أُحذّر منه أبا موسى ، وأما غمط الناس فهو احتقارهم ، وهذا قد يكون مانعًا من رد حق إليهم كان أخذه منهم في يومه الأول!

– فما قولك : المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا حدًا ، أو مجربًا عليه شهادة زور ، أو ظنينًا في ولاية أو قرابة!

– لما جعل الله سبحانه وتعالى هذه الأمة أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس ، والوسط هو العدل الخيّر ، كانوا عدولاً بعضهم على بعض ، إلا من قام به مانع الشهادة ، وهو أن يكون قد شهد زورًا من قبل فلا تُقبل له شهادة بعد ذلك ، أو جُلد بحد فهذا نهى الله عن قبول شهادته بنص الآية ، أو من المحتمل أن يجرّ على نفسه نفعًا من المشهود له ، كشهادة العبد لسيده ، فهو يرجو نفعه ويخاف عقابه ، وكذلك شهادة القريب لا تُقبل مع التهمة ، وتُقبل بدونها .

– فما قولك : واجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أمدًا ينتهي إليه ، أو بينة عادلة ، فإنه أثبت للحجة ، وأبلغ في العذر ، فإن أحضر بينة إلى ذلك الأجل أخذ بحقه وإلا وجهتَ عليه القضاء؟

– مقتضى العدل والإنصاف أن يُنظر القاضي مدّعي البينة مدة من الزمن كافية لإحضار بينته ، وأدلة دعواه ، فقد يكون لصاحب الدعوى حجة غائبة ، أو دليل بعيد ، أو شاهد في سفر ،

ولو عجّل القاضي بالحكم عليه يكون قد ظلمه ، لهذا له أن يطلب المدة التي تكفيه ليحضر أدلته وبينته وشهوده ، وهذه المدة غير مقيدة ، فليس للقاضي أن يشترط عليه ثلاثة أيام مثلاً وهو يلزمه أكثر من هذا ، اللهم إن كان من المسلَّم به أنه لا يحتاج لأكثر مما يراه القاضي ، كأن تكون البينة عقدًا في بيته ، أو شاهدًا مقيمًا في حيّ من أحياء البلد ، فهنا يجب فض النزاع والإدلاء بالحكم ، وعدم ترك القضايا مفتوحة ، والخصومة قائمة!

- فما قولك : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر!

- هذا تفسير قول الله تعالى : ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾! وفصل الخطاب هو بينة المُدّعي على المُدّعى عليه ، أو يمين المدعى عليه إن لم يكن لدى المدعي بينة! فإن الأصل في القضاء أن يأتي المدعي بالبينة ، فإن لم يستطع حلف المدعى عليه ، لأن الأصل براءة الذمة من الحقوق!

فإذا ادعى رجلٌ على آخر بغير دليل ولا بينة ، أحضره القاضي ، وعرض عليه مظلمة خصمه ، فإن أقرّ ، أخذَ الحق لصاحبه ، وإن أنكر ، وحلف بالله أن ليس لصاحبه عليه شيء ، أُغلقت القضية ، ففي الدنيا لا يفعل القاضي إلا بالأدلة والبراهين ، أما في الآخرة ، فهناك محكمة عدل ، وقاضٍ هو جبار السماوات والأرض ، يأمر الجوارح فتشهد ، ولا يضيع عنده حق .

وإن إعطاء القاضي لأحد الخصمين حقًا ليس له ، ليس نهاية المطاف ، ولا هو تحليل حرام أخذه ، فالقاضي إنسان ، يُعمل عقله بالأدلة والبراهين ، وبمرافعة الخصمين أمامه ، فمن أخذ حقًا ليس له تحت سقف القضاء أُخذ به يوم القيامة ،

وقد قال رسول الله ﷺ : «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيءٍ من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئًا، فإنما أقطع له قطعة من النار!

- فما قولك : إن الله تبارك وتعالى تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشبهات؟

- كثيرًا ما كنتُ أقول : إن أناسًا كانوا يُؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإنّ الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا آمنّاه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة!

فليس لأحد أن يحكم على أحد إلا بما يظهر منه، فإن القلوب بيوت مغلقة، لا يعلم ما فيها إلا خالقها، وإنا لا نستطيع نحن البشر أن نشق عن قلوب الناس لنعلم ما فيها، وإنما نحكم عليه بما يكون منه، فإن أظهر الخير صنفناه في أهل الخير، فأمره إلى الله إن كان في قلبه خلاف ما يُظهر، وإن أظهر الشر جعلناه في أهل الشر، وأمره إلى الله إن كان غلبه شيطانه، قد جلد رسول الله ﷺ شارب الخمر، فقال بعضنا : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به!

فقال رسول الله صلى الله عليه : لا تلعنوه فإني ما علمتُ غير أنه يُحب الله ورسوله .

لكن هذه المعرفة لم تُسقط عنه الحد، ولم ترفع عنه العقوبة!

وقد كان أناس منافقون، كابن سلول، ولكن حُكم رسول الله ﷺ فيه، كان بما يظهر منه، وقد كان يصلي معنا في المسجد!

أما عن الشبهات ، فإن الإسلام يُكرم الإنسان فلا يُعتدى عليه بمجرد الشُبهة والظنّ التي كثيرًا ما تكون كاذبة ، وقد قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظنّ ، إنّ بعض الظن إثم»

وقال رسول الله صلى الله عليه : «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان لها مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام أن يُخطئ في العفو خير من أن يُخطئ في العقوبة»!

فلا يؤخذ الإنسان إلا بثبوت فعل الخطيئة بينة عادلة ، أو قرينة لا تحتمل غيرها ، كوجود الحمل في المرأة التي لا زوج لها ، أو تقيؤ رجلٍ للخمر!

– فما قولك : وإياك والقلق والضجر ، والتأذي بالناس ، والتنكر للخصم في مجلس القضاء التي يوجب الله فيها الأجر ، ويُحسن فيها الذخر؟

– هذا كوصيتي لشريح بن الحارث حين وليته القضاء ، فقلتُ له : فلا تقضِ بين خصمين وأنت غضبان!

فيجب على القاضي أن يكون صافي الذهن ، بعيدًا عما يشغله من منغصات ، كغضبٍ وجوع وعطش وقلق وضجر ، حتى لا يكون الدافع إلى الحكم حالةً نفسية تدفعه إلى الاستعجال المُخل في الحكم! وأن يخرج من هوى نفسه ، فلا يميل إلى أحد الخصمين ولو أحبّه ، ولا يُعرض عن أحدهما ولو كرهه ، فإن القضاء منزل ردّ الحقوق ، وفضّ المظالم ، وليس منزل الحُبّ والبغض ، وإن من تمام العدل أن يتجرد القاضي من هواه ، حبًا أو بغضًا!

– فما قولك : فما ظنك بثواب عند الله في عاجل دنيا وآجل آخرة؟

- يجب على القـاضي أن يبـتـغي مـرضـاة الله وثوابه ، لأن القضاء من أعظم القربات إلى الله ، فوظيفة القاضي هي الكشف عن حكم الله سبحانه وتعالى ، ثم إنفاذه ، وهذه بحد ذاتها عبادة ، وهي عبودية الحكام وولاة الأمر التي تُراد منهم ، فلله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته وعمله ، ناهيك عن العبودية التي فرضها الله على الجميع بالسواء ، كالصيام والصلاة والحج والزكاة ، فمن عبودية العالم لله تعالى نشر دين الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه ، ومن عبودية الحاكم إقامة الحق وتنفيذه ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبودية لله للقيام على هذا ما ليس للعاجز عنهما!

- فما قولك : والصلح جائز فيما بين الناس إلا ما أحلّ حرامًا أو حرّم حلالاً؟

- كثيرًا ما كنتُ أقول : ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فإن فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس!

وكتبتُ إلى معاوية أقول : احرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك قضاء! والإسلام قد حثّ على الصلح في آيات وأحاديث كثيرة ، وقد قال تعالى : ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾!

وقال : «فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا ، والصلح خير»!

وقال : «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس»

وقال رسول الله صلى الله عليه : «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصائم والقائم؟

قلنا : بلى يا رسول الله

فقال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، أما إني لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين!

وقال ﷺ : الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرّم حلالاً أو أحلّ حرامًا ، والمسلمون عند شروطهم إلا شرطًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا!

والصلح الحرام كاسترقاق حر ، أو أكل ربا ، أو إسقاط واجب ، أو تعطيل حد ، فكل ذلك مردود ، أما الصلح الحلال فهو ما تراضى به الخصمان تحت عباءة شرع الله ، فهذا أفضل القضاء ، ومن عمل به أفضل القضاة ، فإن ردّ القلوب إلى الحبّ ، أفضل من ردّ المال إلى الجيب ، غير أن الحقوق يجب أن تُرد لأصحابها!

- سدد الله أمير المؤمنين ، وأيده بالحق ، فلقد كان في شرحه أبلغ منه في إيجازه ، يقول قليلاً فيسحر ، ويقول كثيرًا فيوضح ، وهو على أي الحالتين كان يأخذُ بالقلوب ، وإنّ له من البيان لحظًا!

- بارك الله بك

- والآن يا أمير المؤمنين ونحن نغلق باب رسالتك في القضاء ، يختلج في صدري شيء ذو صلة بما كنا فيه .

- وما هو؟

- عن بعض الحدود التي أقامها أمير المؤمنين

- عن أي شيء منها تريد أن أخبرك؟

- حدثني عن خبرٍ سمعته لكَ مع مطيع بن الأسود العبديّ

- جيء إليَّ يومًا بشاربٍ خمر ، وقد رأيتُ فيه جرأة على المعصية

فقلتُ له : لأبعثنكَ إلى رجلٍ لا تأخذه فيك هوادة!

فبعثتُ به إلى مطيع بن الأسود ، وكان من عمّال القضاء ، وكان صاحب بأس شديد ، فقلتُ له : يا مطيع ، إذا أصبحتَ غدًا ، فاضرب عبد الله هذا ثمانين جلدةً حدّ شارب الخمر .

فجئتُ صبيحة اليوم التالي ، فإذا بمطيع يضربه ضربًا شديدًا

فقلتُ له : ويلكَ ، قتلتَ الرجلَ ، فكم ضربته؟

قال : ستين

فقلتُ له : اقصِ عنه العشرين الباقية

فتركه مطيع وقتذاك

– هذه قصة لا أريد أن أفوَّت حظي من سؤال أمير المؤمنين عنها؟

– لكَ ذلك .

– فلمَ أرسلتَ الرجل إلى أشدِّ عمالك؟

– فعلتُ هذا لما رأيتُ الجرأة فيه ، فكان كثيرًا ما يؤتى به ، وقد غلب على ظني أني إذا عهدتُ به إلى مطيع فأقام فيه حكم الله أن يقلع عما هو فيه

– ألم يكن هذا انتقامًا يا أمير المؤمنين؟

– معاذ الله ، وما بيني وبين الرجل حتى أنتقم لنفسي منه ، إنما هو دين الله قد انتهك ، ومحارمه قد استبيحت ، وما نهى عنه قد أوتي ، وإن الله تعالى حدّ حداً ، فما كان مني إلا أن أقمته ، أما لماذا أوكلتُ أمره إلى مطيع وأنا أعلم شدته ، فللسبب الذي أخبرتك إياه آنفًا ، فإنما أردتُ لأن يرتدع الرجل ، ولولا أنه أُتي به إليّ ما عرفته ، ولقد كنتُ أحبُّ أن ألقاه في غير الموضع الذي لقيته فيه!

– فلماذا لم تُقم عليه الحد من ليلته ، لماذا قلت له : يا مطيع ، إذا أصبحت غدًا فاضرب عبد الله هذا ثمانين جلدة ، حدّ شارب الخمر؟

– لأن الحد لا يقام على السكران في سكره ، فإنما الحد للتأديب ، ولدفعه إلى ترك ما هو فيه ، فلو حُدَّ وهو في سكره ، لكأننا نقول أن كل همنا أن نجلد ظهور الناس ، وأن العبرة ليست بالجلد ، فما هي حقنا ولا حظنا من ظهور الناس ، إنما نحن نقيمها عبادة لله أولاً ، ومساعدة للواقع فيها ثانيًا ليقلع عنها ، ولحماية المجتمع أخيرًا ، فأردتُ أن يزول عنه سكره ، ويشهد جلده طائفة من المسلمين امتثالاً لأمر الله!

– فلِمَ ذهبت في الصباح تنظر ما صنع مطيع؟

– ومتى قعد عمر عن مراقبة أمرٍ أمرَ به؟

– أوكلما عهدتَ بحدٍّ شهدته؟

– لا يا بُنيّ ، هذا أمر عسير ، إنما القصد إقامة الحدود من الأشياء التي كنتُ أتفقدها فيما كنت أتفقد ، فكنتُ أمرُّ من يومي إلى السوق ، والمسجد ، وشوارع المدينة ، وبيت المال ، وإبل الصدقة ، وكان مكان إقامة الحدود مكانًا آتيه!

– فلمَ قلتَ لمطيع : ويلكَ يا مطيع ، قتلتَ الرجلَ ، فكم ضربته؟

– ذلك أني رأيتُ أنه ضربه ضربًا شديدًا ، وأن الرجل لقي منه على غير ما يلقى المجلود حدًا عادة ، فخشيتُ أن يقضي عليه

– فليقضِ عليه ما دام تجرأ على حدود الله!

– لا يا بُنيّ ، إنما نقيم حدَّ الله على الهيئة التي أمر بها ، لا نزيد ولا ننقص ، وإن أحبّ يوم طلعت عليّ شمسه هو يوم ليس فيه شارب خمر ليجلد ، ولا سارق لتقطع يده ، ولا زانٍ محصن ليرجم ، إن الحدود إنما لتؤدب الناس وتطهرهم لا لتقضي عليهم!

– ولكنكَ أمرته أن يُسقط عنه العشرين جلدة الباقية ، وحد شارب الخمر أن يُجلد ثمانين؟

– هذا صحيح ، أن يجلد ثمانين بقدر معلوم ، وهيئة معلومة ، فلما رأيتُ أنه اشتد عليه ، وهبتُ العشرين الباقية للستين الشديدة التي تلقاها الرجل .

– رحيم أنتَ يا أمير المؤمنين حتى في موطن إنزال العقوبة .

– وما ليَ لا أكون كذلك ، إنما الناس عيال الله ، وقد استخلفني الله عليهم لينظر ما أنا صانع بهم ، أفأذهبُ إليه باطشًا جبارًا!

– لا واللهِ لا تفعل

– وإني لم أفعل!

– فأخبرني يا أمير المؤمنين عن قصة سمعتها عنك ، عن شارب خمر جاءك شاكيًا إليكَ أبا موسى الأشعري؟

– كنتُ مع ابني عبدالله في العمرة نسير وحدنا ، فإذا نحنُ براكبٍ يأتي نحونا كمن يطلبنا

فقلتُ لعبد الله : أرى هذا يطلبنا

فلما وصل إلينا الرجل بكى ، وطال بكاؤه

فقلتُ له : ما شأنك يا أخي ، إن كنتَ غارمًا أعنّاك ، وإن كنتَ خائفًا أمنّاك ، إلا أن تكون قتلت نفسًا معصومة فتقتل بها ، وإن كنتَ كرهت جوار قوم حولناك عنهم!

فقال : إني شربتُ الخمر ، وإني أحد بني تميم ، وإنّ أبا موسى جلدني ، وحلق شعري ، وسوَّد وجهي ، وطاف بي في الناس ، وقال : لا تجالسوه ، ولا تؤاكلوه!

فقلتُ له : وما فعلتَ؟

فقال : حدثتني نفسي بإحدى ثلاث :

فقلتُ : وما هُنّ؟

فقال : إما أن أتخذ سيفًا فأضرب به أبا موسى ، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإن أهلها لا يعرفونني ، وإما أن ألحق بالعدو وآكل معهم وأشرب معهم!

فقلتُ والحزن يعتصرني : ما يسرني أنك فعلتَ هذا ولعمر بن الخطاب ملء الأرض ذهبًا! وإني كنتُ لأشرب الناس لها في الجاهلية ، وإنها ليست كالزنا!

وكتبتُ إلى أبي موسى أقول :

سلام عليك ، أما بعد : فإنّ فلانَ بن فلان التميمي أخبرني بما كان منك عليه ، وأيم الله ، لئن عدتَ لمثلها ، لأسوّدن وجهك ، ولأطوفنّ بك في الناس ، فإن أردتَ أن تعلم حق ما أقول لك فعُدْ! وأمرِ الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه!

وأعطيته مئتي درهم والكتاب ، فقلتُ له : عُدْ راشدًا إلى بيتك يا أخي!

– قصة مذهلة أخرى يا أمير المؤمنين ، أطمع بكرم أمير المؤمنين أن يأذن أن نتوقف عندها قليلاً .

– ما عندكَ فيها؟

– قولكَ : أرى هذا يطلبنا! أعجبني أنك لا تغلق بابك عن الناس حتى وإن كنتَ في لعمرة!

– يا بُنيّ إن العمرة نافلة ، وقضاء حوائج الناس على الوالي فريضة ، فإنما أمر أن ينظر في أمرهم ، ويعيد حقوقهم ، وينصر مظلومهم ، ويعين ضعيفهم .

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، ولو أنّ الرجل علم منكَ غير هذا ما قصدك

– وأي فضل من الله أعظم بعد الإسلام من هذا ، أن يُحسن الناس فيك الظن ، فيأتيك المظلوم لتنصره ، والمحتاج لتعينه ، والخائف لتؤمنه ، والوحيد لتواسيه ، والمفجوع لتطيب خاطره .

– لا شيء واللهِ ، وأعجبني أن بكاءه لاقى عندك صدى ، فسارعت تقضي له حاجته دون أن يسأل ، فتقول له : إن كنتَ غارمًا أعناك ، وإن كنت خائفًا أمنّاك .

– يا بُنيّ إن الناس تحتاج من يمنعها ذلّ السؤال ، فإن الحاجة مريرة ، أفنجمع عليهم مرارتين ، مرارة الحاجة ، ومرارة السؤال ، واللهِ لا يفعل هذا عمر بن الخطاب أبدًا

– وأعجبني حزمك ، وكتابتك إلى أبي موسى ، فما رأيتُ أميرًا قبل اليوم ينصر فردًا على حساب عامله

– إنّ عُمر مع الحق حيث كان ، فإن كان مع غيري عليّ ، كنتُ أول من أدى ما عليه ، وإن كان لفرد من عامة الناس على أحد عمالي ، فإني أنصره حتى يبلغ حقه ، وإن كان للأمير الحق ، فما أعطي الرعية حقًا ليس لها

– هذا واللهِ العدل والتجرد ، ولكن يا أمير المؤمنين ألا ترى معي أنكَ كنتَ حادًا مع أبي موسى شيئًا قليلاً

– أما ترى معي أن أبا موسى كان حادًا مع الرجل شيئًا كثيرًا ، يا بُنيّ إنما نريد أن نقوّم الناس لا أن نكسرهم ، وأن نردهم إلى دين الله لا أن ننفرهم ، نريهم ونحن نقتص منهم أننا لا نقتص منهم انتقامًا ، نريهم الرحمة في موطن الحدّ ، والحلم في موطن الغضب ، والحُبّ في موطن ما ظنوا أن يجدوه منا فيه .

– هكذا والله يكون الحكم ، وهكذا يملك الأمراء قلوب الناس ، بالعدل والرحمة ولا شيء سواهما

- صدقتَ يا بنيّ ، بالعدل والرحمة!

- فحدثني يا أمير المؤمنين عن الذي كان قبطيًا فاسلم ، فشجر بينه وبين واليك عمرو بن العاص شجار ، فجاءك شاكيًا .

- ذاك رجل من أهل مصر كما قلت ، كان على النصرانية ، فمنّ الله عليه بالإسلام ، ثم إن عمرو بن العاص شجر بينه وبين الرجل أمر ، فقال له عمرو : يا منافق!

- وما فعل الرجل؟

- جاءني فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عمرو ناداني يا منافق ، فأقسمتُ ألا أغسل رأسًا ولا أدهنه حتى آتيك!

واللهِ يا أمير المؤمنين ما نافقتُ ، ولكني أسلمتُ

- فماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

- كتبتُ إلى عمرو بن العاص أقول :

من عبدالله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليكَ ، أما بعد : فإن فلانًا ذكر أنك اتهمته بالنفاق ، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين أن يضربكَ أربعين سوطًا!

- فماذا حصل بعدها يا أمير المؤمنين؟

- عاد الرجل إلى مصر ، ولما دخل المسجد ، نادى بأعلى صوته :

أنشد الله رجلاً سمع عمرو بن العاص نفّقني إلا قام وشهد!

فقام عدد منهم وشهدوا

- فماذا حدث بعد ذلك؟

– عندها دفع الرجلُ كتابي إلى عمرو بن العاص ، وقرأ عمرو على مسمع الناس كما كان أمري لعمالي ، إذا كان الكتاب يحتوي قضاءً ، أو فضَّ نزاع ، اللهم إن كان شيئًا بيني وبين الأمير فهو وشأنه .

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم قام أحد الحاضرين مستهجنًا وقال للرجل : أتريد أن تضرب الأمير؟

فقال له : أجل أفعل ، ومعي كتاب أمير المؤمنين

– فماذا حدث عندها؟

– عندها عرض صاحب عمرو بن العاص على الرجل مالاً كثيرًا لينزل عن تنفيذ ما في الكتاب ويعفو

ولكن الرجل قال : والله لو ملأتَ هذا المسجد لي مالاً ما قبلت!

– فماذا حدث يا أمير المؤمنين؟

– لاحظ الشاكي تردد عمرو بن العاص في تنفيذ الأمر

فقال : ما أرى لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب هنا طاعة!

وقام وخرج من المسجد

فنادى عمرو بن العاص في الناس : رُدّوه!

– فماذا حصل بعد أن عاد؟

– جلس عمرو بن العاص بين يدي الرجل وأعطاه السّوط

فقال الرجل له : أتقدر أن تمتنع عني بسلطانك؟

فقال عمرو : لا ، فامضِ لما أُمرتَ به

عندها قال الرجل لعمرو بن العاص : فإني قد عفوتُ عنك ، لا ظلم وابن الخطاب في المدينة!

- نبيل هذا الرجل إذ عفا بعدما قدر!

- أجل ، إنه لنبيل والله ، فإن العفو عند المقدرة من شيم الكرام ، وقد أعجبني فيه خصلتين :

الأولى : أنه كان جريئًا في الحق ، فقطع الفيافي والقفار ليأتيني طالبًا حقًا رأى أنه له .

الثانية : أنه تبين فيما بعد أنه ما جاء طلبًا للثأر ، وإلا لأخذه لمّا صار إليه ، ولكنه رجل أراد ألا تضيع الحقوق ، وتُمتهن الكرامات

- ولكن ، وليعذرني أمير المؤمنين ، ألم يكن حكمك قاسيًا؟

- هذا شرع الله يا بنيّ ، وإنما أنا أقضي بالشرع ، فلا تنظر للسّياط على ظهر شارب الخمر ولكن انظر إلى ما قد يفعله رجل أذهب عقله بيده ، انظر إلى ما قد يفعله بأهله أو بالناس ، ولا تنظر إلى يد مقطوعة في سرقة ، ولكن انظر إلى مال شقي صاحبه بجمعه يأتي آخر ليسلبه إياه ، ولربما لم يكن له غيره ، ولربما كان مال يتم أو أرملة ، ولا تنظر إلى الحجارة تنهمر على زانٍ ، ولكن انظر قبل هذا إلى زوج هُتك عرض زوجته ، وولد هُتك عرض أمه ، وأب هُتك عرض ابنته ، يا بُنيّ لا أحد أرحم بخلق الله من الله ، ولكنه علم ما يصلحهم ففرضه عليهم ، ولا يفرضُ الله سبحانه على الرّعية عقوبة تستقيم بغيرها .

- صدقتَ يا أمير المؤمنين ، لا خلاف في هذا ، ولكن عمرو بن العاص ما هتك عرضًا ، ولا أخذ مالاً

- صحيح لم يفعل ، ولهذا لم أُنزل فيه عقوبة من فعل هذا ، وإنما أنزلتُ به عقوبة ما اقترف ، وإن الأمير إذا سلخ الرجل من دينه ، واتهمه بالنفاق ، أنه على دين غير الذي يظهره ، أليست هذه أذيّة ، من قال أن هتك عرضٍ أقل إيلامًا من هتك دين الرجل

- لعل عمرو بن العاص كان يرى شيئًا

- لا عمرو بن العاص ولا غيره له أن يرى غير ما يُظهر الرجل ، ما دام قد أسلم ، وشهد الجماعات ، وأدى الزكاة ، صار واحدًا منا ، له ما لنا وعليه ما علينا ، ولم نُؤمر أن نشق عن قلوب الناس ، فهذا أمر اختصَّ الله سبحانه به نفسه ، وليس لنا إلا أن نعامل الناس بما يُظهرون لنا!

- صدقتَ يا أمير المؤمنين ، والآن بقي أن أسألك عن أمورٍ ثلاثة قبل أن نُغلق هذا الباب ، ونفتح غيره!

- وما هي يا بُني؟

- أما الأول : ما خبر الرجل الذي ارتدَّ يوم فتح تستر؟

- ذاك رجل كان على الإسلام ، وفي صفوف المجاهدين ، فلما فُتحت تستر ، ارتدَّ عن دينه ، والمعصوم من عصمه الله ، والمفتون من أركنه الله إلى نفسه ، فما كان من المسلمين إلا أن قتلوه .

- وماذا فعلتَ أنتَ؟

- لمتهم على قتله فورًا ، وكتبتُ إليهم أقول :

هلا أدخلتموه بيتًا ، وأغلقتم عليه ، وأطعمتموه كل يوم رغيفًا ، واستتبتموه؟ اللهم إني لم أشهد ، ولم آمر ، ولم أرضَ إذ بلغني!

- ألم يطبقوا حدّ الله يا أمير المؤمنين؟ وحد الردة القتل!

- بلى فعلوا!

- فما الذي أغضبك؟

- أغضبني تعجلهم في إقامة الحدّ ، وقد كنتُ أريد أن يتريثوا

- ولِمَ؟

– لعلّ للرجل شبهة ، ولعله التقى بأحدٍ من أهل تلك الديار فحدثه ، ففتنه عن دينه ، فأردتُ لو أبقوا عليه ، حتى يجادلوه في هذا الذي صار إليه ، فإن كان له حجة أحجّوه ، وإن كان صاحب شُبهة ناقشوه ، أيسرك أن رجلاً كان على الإسلام ردحًا من الزمن يصير إلى النار؟

– لا والله لا يسرني

– ولا أنا يسرني ، وهذا الذي أغضبني ، ولو أنهم استتابوه فظلّ على ما هو عليه ما غضبتُ ، ولقلتُ رجلٌ قد اختار ، ولو أنهم استتابوه فعاد لكان هذا أحبّ إليّ من إسلام رجل لم يكن من قبل على الإسلام!

– رحيم أنتَ يا أمير المؤمنين ، والله إنكَ لرحيم

– يا بُنيّ إنما نريد أن نأخذ بأيدي الناس إلى الله ، لا أن نقف بينهم وبينه! والآن أخبرني هل انتهينا من هذه؟

– أجل انتهينا يا أمير المؤمنين

– فعمَّ سؤالك التالي؟

– أردتُ أن أسألكَ عن خبر الرجل الذي قتلَ وزوجتُه رجلاً آخر بلا ذنب ولا جريرة .

– لقد حصل هذا بالفعل

– فما الخبر؟

– هذا رجل وزوجته قتلا رجلاً كما ذكرتَ ، وجاؤوا بهما إليَّ ، فتحرجتُ أن أقيم عليهما الحدَّ أول الأمر

– ولِمَ يا أمير المؤمنين؟

– قلتُ في نفسي : كيف أقتل مُسْلِمين بواحد؟

– فماذا فعلت؟

– استشرتُ علي بن أبي طالب في الأمر

– فبمَ أشار عليك؟

– قال : اقتلهما به يا أمير المؤمنين!

فقلتُ : أقتل الاثنين بواحد؟!

فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، ألستَ تقطع أيدي أكثر من سارق إذا سرقوا بعيرًا واحدًا؟

قلتُ : بلى

فقال : إنكَ تفعل لأنهما اشتركا في الجرم ، فكل واحدٍ منهم أصاب حدًا ، وهذان اشتركا في الجرم وكل واحدٍ منهما أصابَ دمًا حرامًا ، وهذه كتلك!

– فماذا فعلت يا أمير المؤمنين؟

– قتلتهما به ، لأن هذه كتلك!

– أعجبني تواضعك يا أمير المؤمنين ، فلما لم تجد في كتاب الله حكمًا صريحًا ، ولا في سنة رسوله ﷺ ، لم تخجل أن تعرض على علي بن أبي طالب ما أشكلَ عليك!

– يا بني إنها دماء ، وهي أثقل شيءٍ في الميزان ، ثم من شاور الرجال فقد شاركهم في عقولهم ، ومثل عليٍّ لا يُزهد في عقله

– صدقتَ يا أمير المؤمنين

– فهل انتهينا من هذه؟

– أجل انتهينا

– فما الأمر الباقي عندك؟

– هذا أمرٌ يطول

– هاتِ يا بُنيَّ

– قرأتُ مرة لأناس يقولون : أن عمر بن الخطاب قد خالف نصوص التشريع الإسلامي ، لأنه أوقفَ إقامة حدّ السرقة عام المجاعة ، ويتساءلون : كيف لعمر أن يفعل هذا ، والله يقول : «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم» وهو حدّ أقامه النبيّ ﷺ وأبو بكر من بعده ، فكيف يوقفه عمر؟

– هؤلاء أضلُّ من حمير أهليهم!

– ولِمَ يا أمير المؤمنين؟

– لأنهم لم يفهموا الإسلام الفهم الصحيح الذي فهمناه والقرآن ينزل ، ولم يأخذوه من فم رسول الله ﷺ ، وقد حسبوا عمر بن الخطاب بفعله هذا كان مبتدعًا وإني والله كنتُ متبعًا!

– وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟

– صدقتَ حين قلتَ : هو حديث يطول! والآن ليكن صدرك أنتَ رحبًا واسمع مني أبيّن لك الذي كان

– حاشاي أن يضيق صدري على كلام أمير المؤمنين ، ولو حدثني حتى الصباح ما قلتُ له : كفى! فقل يا أمير المؤمنين تجد مصغيًا!

– إن التاريخ البشريّ -عند العارفين المنصفين لا عند هؤلاء- لم يشهد عقيدة أو نظامًا اُحترمت فيه الإنسانية كما في الإسلام! ونصوص القرآن والسنة ، تنطق بهذا التكريم للإنسان باعتباره إنسانًا فحسب ، وبصرف النظر عما يملكه ، وعن مظهره ، فلم يكن المظهر المادي مقياسًا للكرامة الإنسانية ، وقد كنتُ من أرثِّ الناس ثيابًا ، لأني علمتُ أن الله لا ينظر إلى لون الإنسان ، أو جنسه ، أو وضعه الاجتماعي ، ولكنه ينظر إلى ذلك الشيء المشترك بين الناس جميعًا وهو القلب!

وقد قلتُ عن بلال بن رباح : بلال سيدنا ، واعتقه سيدنا! ولم يكن بلال في الجاهلية إلا عبدًا عند أمية بن خلف! ذاك لأن الناس كان لهم منظور غير الذي كان لنا في الإسلام!

وهذه الكرامة البشرية للإنسان هي الأساس الذي بُنيت عليه التشريعات الإسلامية وهدفت إليه ، ولم تكن العقوبات إلا سبيلاً لذلك ، فقد اعتبر الإسلام خمسة أشياء يجب أن تُحاط بالحماية والضمان على كل المستويات ، الفردية والجماعية ، تحقيقًا لهذه الكرامة البشرية حتى لا تصبح مجرد شعار أجوف ، تناقضه حقائق الحياة المُرّة القاسية ، وهذه الأشياء الخمسة هي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال . وهذه الخمسة مجتمعة هي التي تحقق للإنسان كرامته!

وبدافع من الحرص الشديد على إحاطة هذه الكليات بالضمان ، فُرضت العقوبات الحاسمة على من يعتدي على أحدها ، بأن يسلب حياة الإنسان ، أو شرفه ، أو ماله ، وفي هذا لم يفرق الإسلام بين إيقاع الأذى بالنفس أو بالغير ، ومن ثم أوجبَ العقاب على شارب الخمر ، وإن كان اعتداؤه في الحقيقة مُنصبًا على عقله أولاً ، لأنه وإن كان هو المعتدي ، فإن الإسلام مسؤول أن يحفظ عليه أسباب كرامته ولو بزجر حازم!

واللهُ هو خالق الإنسان ، العليم به ، فهو يعلم أن التطلع إلى سلب ما يملكه الآخرون طبيعة متأصلة فيه ، ولأن الناس قد زُين لهم حب الشهوات من النساء والأموال وغيرهما من متع الحياة ، بحيث يخالط هذا الحب أعمق خلجات وجدانهم ،

ولأن في الإنسان نزعات هوجاء تعجز الزواجر الأدبية والخُلقية أحيانًا ، مهما عظم سلطانها في القلب عن الوقوف أمامها!

لهذا كله فرضَ الله سبحانه عقوبات حاسمة ، كي تتحقق الكرامة الإنسانية لجميع الناس ، لصاحب الشيء في ألا يُغتصب حقه ، وللآخر ألا يطيع نزعاته الهوجاء بما تحمله من بواعث التعدي ، مما يفقد الإنسان المعنى الحقيقي للكرامة ، كرامة المعتدي وكرامة المعتدى عليه!

ومن هنا كان العقاب النازل بالفرد حياة للجماعة ، لأن في إسالة دمه الذي حلّ بالاعتداء منعًا لإسالة دماء ، وانتهاك أعراض وأموال ، وكلما كان العقاب شديدًا تردد الفرد في الاعتداء ، ومن ثم زادت مقاومته وحصانته ضدّ أهوائه العاصفة به ، فيتحقق بذلك قسط أكبر من الكرامة البشرية له ، وللمجتمع على وجه العموم ، ومن أجل هذا شُرعت العقوبات الحاسمة في الإسلام .

وإلى جانب مراعاة مصلحة الجماعة في تحقيق كرامتها ، فإن الإسلام بما يتضمنه من عدل مطلق يشمل حتى المعتدين ، وما يتضمنه من تقدير لجسامة العقاب راعى توفير الضمانات الكافية للتحقق من وجود ركن الاعتداء كشرطٍ لتنفيذ العقوبة ، ففي جريمة السرقة مثلاً ، هناك شروط كثيرة يجب توافرها لكي تُقطع يد السارق ، وفقدان شرط واحد منها يحول دون ذلك!

– وما الشروط الواجب توافرها؟

– أن تكون قيمة الشيء المسروق بالغة حدّ القطع ، فلا تُقطع يد في بيضة دجاجة مثلاً ، ولكن يستحق صاحبها التعزير .

أن يكون المسروق موضوعًا في حرز ومحميًا ، أي مكان لا يتعرض فيه للسرقة بسهولة ، بحيث إذا ائتمن صاحب المال غيره على دخول بيته ولم يُحرز منه ماله لم يجب القطع!

وليس المسجد ، أو الحمام العام حرزًا ، كذلك الخان ، والحوانيت المأذون دخولها ، فمن سرق منها لا تُقطع يده ، لأنه خائن ، وقد قال رسول الله ﷺ : «ليس على الخائن قطع» ، والنباش لا تُقطع يده لأن القبر ليس بحرز ، وكذلك لو سرق مالاً مدفونًا في مكان ما لا تُقطع يده ، وكثيرًا مما يُسمى آخذه سارقًا لا قطع فيها .

وكذلك كنتُ أرى ومعي نفر من الصحابة ، أنه لا قطع في كل ما يسرع إليه الفساد مثل الرطب والعنب والفاكهة بصفة عامة ، واللحم والطعام الذي لا يبقى ، والتمر المعلق ، والحنطة في سنبلها ، ولا قطع في شيء من الطير ، ولا شيء من آلات اللهو ، وقد قال رسول الله ﷺ : «لا قطع في ثمر ولا كثر»

ومن سرق من بيت المال لا تُقطع يده ، لأنه يُسمى مختلسًا لا سارقًا ، لأنه لما كان حقه وحق سائر الناس فيه سواء ، صار كسارق مال بيته ، لأنه له شبهة في ملكه حيث يملكه جماعيًا مع باقي المسلمين ، ولا قطع فيما فيه شبهة ملك ، وقد سرق رجلٌ في الشام من بيت المال ، فكتب إليّ أبو عبيدة فيه يستشيرني .

فقلتُ له : ليس فيه قطع ، لأن له منه نصيبًا

ومن سرق من ذي رحم ، كأم أو أب ، لا تقطع يده ، لأنه له شُبهة ملك في المال ، وإن كان الأمر يُسمى سرقة!

وإذا ضُبط السارق قبل إخراج سرقته لا تقطع يده .

وكذلك لا تقطع يده حتى يُقر بالسرقة مرتين لا مرة واحدة .

إذًا كما تلاحظ يوجد تفصيل للشروط التي يجب توافرها لإقامة حد السرقة بقطع اليد ، حيث أنكَ لو قسمتَ هذه الشروط إلى مجموعات ، وجدتَ أنه لا قطع إلا بجمع أوصاف تعتبر في السارق ، وفي الشيء المسروق ، وفي الموضع المسروق منه ، وفي صفته .

- وكيف هذا؟

- على سبيل المثال ، عما يُعتبر في السارق ، كالعقل والبلوغ ، فلا تُقطع يد الصبي دون البلوغ ، لأنه دون سن التكليف ، وكذلك لا تُقطع يد الرجل المجنون ، لأن العقل هو مناط التكليف ، وهنا سقط عنه التكليف لذهاب عقله!

- حسنًا فهمتُ

- والآن نصل إلى مربط الفرس!

فأما ما قرأته أنتَ بخصوص تعطيل حدّ السرقة في عام المجاعة ، فهذا كان من باب أن الضرورات تبيح المحظورات!

فلم أرسل مناديًا ينادي في الطرقات : أيها الناس إن عمر رفع حدّ السرقة بسبب المجاعة ، فمن شاء أن يسرق فليسرق!

ولو جاؤوني بغنيّ قد سرق لقطعتُ يده ولو كنا في عام المجاعة ، وإنما إيقاف القطع كان لأن السرقة إنما كانت من باب الشبهة التي تحدثنا عنها أو من باب الضرورة ، وهي أساسًا توقف الحد ولو في أيام خير ووفرة ، وقد أخبرتك عن هذا فأكثرتُ ، ولأقرب لك الأمر ، أضرب لك مثلاً؟

- حبذا لو تفعل يا أمير المؤمنين!

- سأفعل إن شاء الله ، إن غلمانًا لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة رجل من مُزينة ، فأُتيَ بهم إليّ ، فلما علمتُ جوعهم ، وإهمال حاطب لتفقد طعامهم ، وما يسد رمقهم ، لم أقطع أيديهم ، وقلتُ لحاطب :

أما واللهِ لولا أني أظنُّ أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى لأن أحدهم يجد ما حرم الله عليه لقطعتُ أيديهم ، ولكن واللهِ إذا تركتُهم لأغرمنك غرامة توجعك!

ثم قلتُ للمزني : كم ثمنها

فقال : أربعمائة

فقلتُ لحاطب : أعطه ثمانمائة

- إذًا هنا لم تقطع بسبب الاضطرار ، أليس كذلك يا أمير المؤمنين؟

- أجل يا بُنيّ ، وكما وجدتني هنا مُطبقًا لقاعدة عامة من قواعد التشريع الإسلامي ، كذلك مطبقًا للمبادئ العامة للقرآن الكريم ، فالله تعالى يقول : «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم»

ومن ثم فمن حق الإنسان المضطر على مجتمعه الخاص والعام أن يكفل له طعامه ورزقه الشريف ، فأين ركن الاعتداء فيمن يسرق مضطرًا لحفظ حياته ، فإن كان قد وقع اعتداء فهو ذلك الذي وقع عليه ، لا الذي وقع منه ، والمجاعة في عهدي قد عمّت المجتمع كله ، وقد بذلتُ في دفعها عن الناس كل ما أستطيع ، ولكن قدر الله نافذ ، فلم يكن هناك اعتداء من المجتمع على السارق المضطر حينئذ ، كما لم يتوفر في حقه ركن الاعتداء ليقام عليه الحد ،

وكـذلك غلمـان حـاطب بن أبي بلتـعـة فـقـد وقع عليـهم نوع من التعدي بتجويعهم حتى اضطروا للسرقة ، ومن هنا تستطيع أن تفهم سبب الغرامة التعزيرية التي أوقعتها عليه بمضاعفة ثمن المسروق عليه .

والآن بعـد مـبـدأ «الضـرورات تبـيح المحظورات» التي هي منصـوص عليـها في القرآن والسنة وهي مـا دفعني لأوقف القطع بالسرقـة في كـثير من الحـالات ، أصلُ بك إلى مـبدأ من مـبادئ الشريعة الإسلامية الذي لا يقل أهمية عن هذا ، ألا وهو :

«الحدود تُدرأ بالشبهات»

وعملاً بهذه القاعدة ، فقد وجدتُ شبهة قوية تدرأ الحد عن السارق ، حيث أنه قد يكون سرق لضرورة قوية ، وليس حبًا في السرقة ، وأنا هنا بإسقاطي حدّ السرقة ، لم أُسقط حدًا واجبًا من حدود الله ، ولكن هذا الحد لم يجب أصلاً!

ثم عودًا على بدء ، لأن كثيرًا من المال المأخوذ كان مالاً عامًا لا خاصًا ، وهذا في أيام الرخاء لا قطع فيـه ، لأن له شبهة بملكية ما أخذ ، وقد حدثتك عنه سابقًا ، فكيف يكون القطع فيه عام المجاعة الذي اجتمعت فيه فوقها الضرورات التي تبيح المحظورات .

ومن أصول الإسلام القطعية ، التكافل بين الناس ، بمعنى أنه يجب على المجتمع وجوبًا كفائيًا أن يغيث أفراده الذين نزلت بهم الفاقة ، حتى أوردتهم موارد الضرورة ، فإذا لم يقم المجتمع بهذا الواجب للمضطرين كان آثمًا ، وكان للمضطر أن يأخذ ما يقيت به نفسه ، ويدفع عنه ضرورته .

وعام المجاعة من غير شك ، هو ظرف زماني يغلب فيه وجود أفراد مضطرين على هذا النحو ، فهو مظنّة لوجوب الحق على المجتمعٍ ، ولا ينظر في هذا لتحقق الضرورة فعلاً بالنسبة لشخص السارق ، أم عدم تحققها حتى يقطع أو لا يقطع ، فإن هذا موطن من مواطن الحدود ، والحُدود تُدرأ بالشبهات ، فيكفي أن يقول الحاكم : لعلّ هذا إنما سرق لضرورة ألجأته إلى السرقة ، فتكون هذه شبهة قوية تدرأ عنه الحدّ!

– سدّد الله أمير المؤمنين ، واللهِ إنك لترى في الأمر ما لا يراه غيرك

– لله الحمد والمنّة ، وأخبرني الآن ، فهل خرجنا من هذه النقطة وتوضحت لك؟

– أجل يا أمير المؤمنين ، فبارك الله بك

– وبك يا بنيّ ، نغلق هذا الباب إلى غير رجعة إذًا؟

– نغلقه على أمر أمير المؤمنين! ولكن كما ترى إننا ما إن نغلقُ بابًا حتى أفتحُ لك آخر ، فلا يُعثر عليكَ كل يوم يا أمير المؤمنين ، وما زلتُ أطمعُ أن تحدثني عن نقطتين في السِّياسة وشؤون الدولة والحكم ، عندها نغلق هذا الباب نهائيًا ونرى غيره ، فإني رأيتُ أن هذا الشأن لن يكتمل حتى أسألك عما يجول في خاطري

– فعمّ تريد أن تسأل الآن في شأن السياسة وشؤون الدولة؟

– أردتُ أن أسأل عن الدواوين التي أنشأتها؟

– ما بها؟

– كيف جاءتك الفكرة ، وكيف كان شكل الدواوين بعد أن قررتَ إنشاءها؟

- أما من أين جاءتني الفكرة ، فكان ذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة ، حيثُ قدم أبو هريرة من البحرين ومعه خمسمائة ألف درهم ، فخطبتُ بالناس

وقلتُ لهم : أنه قد جاء مالُ كثير ، فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، وإن شئتم أن نعدّ لكم عددنا ، وإن شئتم أن نزن لكم وزنّا

فقام رجل من القوم وقال : يا أمير المؤمنين دوّن للناس يُعطون عليها!

فشرح الله صدري للأمر ، وأنشأتُ الدواوين .

هذا بالنسبة للفكرة ، أما كيف كانت الدواوين ، فقد كانت على الشكل التالي :

أولاً ديوان الرسائل:

كان البريد موجودًا منذ تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، حيث كان النبي ﷺ يبعثُ الرُّسل إلى الملوك والأمراء ومعهم الرسائل ممهورة بختمه ، ولكنه لم يجعل لذلك ديوانًا ، وعلى هذا كان أبو بكر ، ولكنه لم يجعل ديوانًا كذلك ، وإن اتخذ كتابًا للرسائل ، أما أنا فجعلتُ ديوانًا خاصًا بالرسائل ، فقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وكان لا بدَّ من ترتيب أمور البريد لتسهيل عملية الاتصال بين المدينة المنورة دار الخلافة وبين العمال والولاة ، وقادة الجيوش في مصر والعراق وفارس والشام ، وكتبتُ إلى معاوية في الشام أحثه على استعمال النار في الإشارات لنقل الرسائل والأخبار ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقد لها ، وقسمتُ الطرق إلى محطات بريدية بين الواحدة والأخرى مسافة اثني عشر ميلاً ، وفي كل منها الحرس والزاد والماء .

ثانيًا ديوان العطاء:

وهو الديوان الذي جعلته لإحصاء أموال الدولة ورعيتها ، وكتابة كم يستحق كل فردٍ من المال ، وقد سبق وأخبرتك بأسس المفاضلة بين المسلمين في العطاء انطلاقًا من أن من هاجر مع رسول الله ﷺ وقاتل معه ليس كمنٍ قاتله أو لم يقاتله وإنما تأخر إسلامه ، فلا أُريد أن أعيد ما صرتَ تعرف .

ثالثًا ديوان الجند:

وارتبطت نشأة ديوان الجند بتفرق الجيوش في الفتوحات ، فكان لا بد من تسجيل أسماء الجنود ، وذلك لمواجهة الزيادة التي طرأت على عدد الجنود ، وضرورة إحصائهم ، وترتيب أمورهم ، وتوفير أعطياتهم .

وكان هناك شروط لهذا الديوان :

أولاً الوصف ويشمل : البلوغ ، الحرية ، الإسلام ، السلامة من الآفات ، والإقدام على الحروب ومعرفة القتال .

ثانيًا النسب والسبق في الإسلام : حيثُ قمتُ بترتيب الأسماء في هذا الديوان على حسب القرب من رسول الله ﷺ ، ثم ترتيبهم الواحد بعد الواحد وفقًا لسبقهم في الإسلام ، فإن تساووا فبالدين ، وإن تساووا فبالسن ، فإن تساووا فبالشجاعة في الحروب .

ثالثًا : الكفاية : وهو تقدير العطاء بالحاجة وتشمل ، عدد من يعول الجندي ، والموضع الذي هو فيه من الغلاء والرخص .

رابعًا ديوان الاستيفاء:

والأصل في نشأة هذا الديوان هو حاجة الدولة إلى إحصاء الأموال التي تدخل خزينتها ، حيث تعددت مصادر الدخل ، وزادت ثروة الدولة ، وتشعبت الأمور ، وكان ذلك تمهيدًا لما يمكن اعتباره أول وزارة للمال في عهد الدولة الإسلامية! وقد اهتممتُ بالأموال الواردة للدولة ، وكنتُ حريصًا على المحافظة عليها ، وإعطائها لمستحقيها ، وكنتُ واللهِ أتعامل معها كما يتعامل والي اليتيم مع ماله ، فلا آخذ إلا كما يأخذ أدنى رجل من المسلمين ، وأبقيتُ على النقود الذهبية والفضية التي كانت متداولة وعليها نقوش نصرانية أو فارسية ، لكني أضفتُ إلى هذه النقود كلمة «جائز» لتمييزها عن النقود الزائفة ، وكذلك ضربتُ بعض النقود الجديدة وفق الموازين الفارسية ونقشتُ على بعضها «الحمد لله» وعلى بعضها «لا إله إلا الله»!

هذا كل ما يخص الدووابن ، فهل هناك شيء تحب أن تعرفه عنها بعد؟

- كفيتَ ووفيت يا أمير المؤمنين ، ولم يعد في هذا الباب شيء ، ولكن هناك أمر أريد أن أسألك فيه

- وما هو؟

- قرأتُ أن حكومتك المركزية القائمة في المدينة المنورة كانت تقوم وحدها بالوظيفة الإدارية ، دون مشاطرة الهيئات الأخرى لها في ذلك ، وأن ظروف الدولة في عهدكَ فرضت أسلوب المركزية في الحكم ، بل إنك سلكت أسلوبًا مركزيًا متطرفًا يكاد لا يوجد مثله في التاريخ ، وأن هيمنة العاصمة لم تتوقف على الأمور العسكرية فحسب ، بل

امتدت إلى الشؤون المدنية ، ومن ذلك استئذان المسلمين لك في طريقة بناء المساكن في المدن الجديدة ، فماذا تقول في هذا يا أمير المؤمنين؟

- هذا شيء صحيح نوعًا ما ، وإن كان فيه مبالغة يسهل ردّها!
- وكيف ذلك؟
- فيما يتعلق بإشراف العاصمة على البلاد ، وإدارتها ، فهذه مهمة الخليفة ومستشاريه ، فما يفعل الخليفة ، إن لم يصدر أمرًا يراه ، وينهَ عن أمر يكرهه ، أليس هذا ما يفعله الحكام في كل الدول التي قامت يومًا على ظهر الأرض ، عادلة كانت أم ظالمة ، ألم يكن حتى للقبيلة العربية شيخ ترجع إليه في صغيرها وكبيرها فلا يقطعون أمرًا بدونه؟
- بلى
- وهذا الذي كنتُ أفعله ، وإن زادت رقابتي ، وراجعتهم في تفاصيل الكثير من الأمور ، فلأنهم مسؤولون أمامي ، وأنا مسؤول أمام الله ، ففعلهم لخطأ إنما هو خطئي أولاً ، فلا عذر لي إن فعلوا الخطأ ، فكيف أكون مسؤولاً عنهم ، ويغيب عنهم رأيي وأمري .

أما أن الولاة كانوا منزوعي الإرادة ، يرجعون إليّ حتى في شق طريق وبناء بيت ، فهذا لم يحصل ، ويرفض المنطق حصوله ، مع أني أعطيتُ رأيًا في إقامة مدن على هيئة معينة كما الحال في مدينة البصرة ، فالموضوع هنا بناء مدينة لجيش محارب ، وأهاليهم ، وليست مسألة مدينة ثانوية ، ولكني بالمقابل كنتُ أطلق أيدي الولاة ، يفعلون ما يرونه مناسبًا ، أعتقد أن كلامنا عن محاسبتي لهم يقتضي بالضرورة أنهم كانوا يعملون بما يرون ، وأحاسبهم على الخطأ ، وأثيبهم على الصواب ، وإلا كيف أحاسب رجلاً لا يُحرك ساكنًا دون الرجوع إليّ؟!

وقد كتب إليَّ أبو عبيدة يستشيرني في دخول الدروب خلف العدو

فكتبتُ له أقول : أنتَ الشاهد وأنا الغائب ، وأنتَ بحضرة عدوك ، وعيونك يأتونك بالأخبار!

أيوجد تفويض بعد هذا؟ الرجل يستشيرني فيما يرى ، فأطلقُ أنا يده ، وأقول أنتَ أخبر مني بالوضع الذي أنتَ عليه!

وقد قلتُ لمحمد بن سلمة حاثًا إياه على الاجتهاد والتفكير :

إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه ، عمل بالحزم ، أو قال به .

أليس هذا تفويضًا إذا طرأ عليه أمر جديد أن يُعمل رأيه فيه؟

- بلى هو كذلك والله

- وأزيدك من الشعر بيتًا ، قدمتُ الشام راكبًا حمارًا لي ، فلقيني معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم ، فلما رآني نزل ، وقال : السلام على أمير المؤمنين

فمضيتُ في سبيلي ولم أردّ على سلامه ، لكراهتي للمواكب والحشم

فقال لي عبدالرحمن بن عوف : أتعبتَ الرجل بإعراضك عنه يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته!

فالتفتُ إلى معاوية وقلتُ له : أنتَ صاحب الموكب الذي أرى؟

فقال : نعم

قلتُ : مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك؟

قال : نعم

قلتُ : ولمَ ، ويحك؟

فقال : لأننا ببلاد يكثر فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد ، استخفَّ بنا ، وهجم علينا ، وأما الحُجّاب فإننا نخاف من رفع الكلفة جرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فإن استنقصتني نقصت ، وإن استزدتني زدت ، وإن استوقفتني وقفت!

فقلتُ : ما سألتكُ عن شيءٍ إلا خرجتَ منه ، فإن كنتَ صادقًا فإنه رأي لبيب ، وإن كنت كاذبًا فإنها خدعة أريب ، لا آمرك ولا أنهاك!

أما ترى في هذا قيامي بمسؤوليتي أول الأمر ، وهي المراجعة والسؤال والمحاسبة ، ثم التفويض آخر الأمر ، حيثُ قلتُ : لا آمر ولا أنهاك ، أي أنت وما ترى!

– بلى والله ، هو كمال الرأي ، أن تقوم بواجبك ، ثم تترك لهم أن يدبروا أمرًا هم شهود عليه وأنت غائب عنه .

– وهذا الذي كنتُ أفعل

– ونعمَ ما كنتَ تفعل!

– أخرجنا من هذه؟

– أجل يا أمير المؤمنين ، خرجنا منها .

– فهل عندك شيء بعد؟

– أجل عندي ، نقطة أخيرة فقط ، ونُقفل باب السياسة إلى غير رجعة إليه؟

– وما هي؟

– الأعمال التي فعلتها في خلافتك وما زال أثرها باديًا حتى اليوم

– وأي شيء هي؟

- خمسة أشياء : إجلاء اليهود عن خيبر ، ووضع التأريخ الهجري ، وإعادة موضع مقام إبراهيم إلى مكانه ، وجمع المسلمين على إمام واحد في صلاة التراويح ، وتوسعة المسجد النبوي .

- أجل هي أمور فعلتها ، فما بها؟

- أريد أن تخبرني بخبرها إن أذنتَ

- لكَ هذا ، فبأي شيء نبدأ؟

- لنبدأ بإجلاء اليهود عن خيبر ، فما الخبر؟

- حسنًا لنفعل ، إن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال ، وكانت مما أفاء الله عز وجل على رسوله ﷺ ، فكان له الخمس منها ، ثم إنه بعد هذا دعاهم إليه

فقال : إن شئتم أبقيتكم على هذا الزرع تعملون به ، على أن تكون ثمارها بيننا ، على أنه لنا الحق أن نجليكم متى شئنا منها! فقبلوا . . .

وكان رسول الله ﷺ يبعث عبدالرحمن بن رواحة ، فيقسم الثمر بيننا وبينهم بالعدل ، فلما توفي رسول الله ﷺ ، وجاء أبو بكر بعده ، أقرَّهم على الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، أن يعملوا في الزرع على أن يكون الثمر بيننا وبينهم ، وأننا متى شئنا أجليناهم ، وجئت بعد أبي بكر وأبقيتُ الأمر على ما كان عليه!

- فما الذي حدث إذًا حتى أجليتهم؟

- قال رسول الله ﷺ في وجعه الذي قُبض فيه : لا يجتمعنَّ في جزيرة العرب دينان!

فرأيتُ بعد استتباب الأمر لنا ، أن أبدأ في تنفيذ هذا ، فناديتُ فيهم : من كان عنده عهد من رسول الله ﷺ منكم فليأتني به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد فليتهيأ للجلاء!

وهكذا أخرجتُ من اليهود أقوامًا ، وأبقيتُ يهود خيبر على العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ .

ثم إن عبدالله بن عمر ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، خرجوا إلى أموال لهم في خيبر يتعاهدوها ، فلما وصلوا هناك ، تفرقوا كلٌ إلى ماله يتفقده ، فلما كان الليل هجم نفر منهم على عبدالله بن عمر فكسروا يده وأوثقوه!

فلما كان الصباح مرّ الزبير والمقداد بعبدالله فوجدوه على حاله تلك ، ففكوا وثاقه وعادوا به إلى المدينة .

فلما علمتُ بالأمر قلتُ : الآن لا يكون في جزيرة العرب دينان!

ثم ناديتُ : الصلاة جامعة

فلما اجتمع المسلمون صعدتُ المنبر وقلتُ :

أيها الناس : إن رسول الله ﷺ كان أعطى ليهود خيبر عهدًا ، على أننا نخرجهم منها متى شئنا ، ألا وإنه قال : لا يكون في جزيرة العرب دينان ، ثم إنّ نفرًا منهم اعتدوا على عبدالله بن عمر ، فكسروا يده ، وأوثقوه ، وقد شئنا أن نخرجهم منها على عهد رسول الله ﷺ ، وكما أوصى أن لا يكون في جزيرة العرب دينان ، فأجليتهم .

– فنعمَ ما فعلتَ وبئسَ ما فعلوا ، إذ خانوا العهد ، ولكن أخبرني أكنتَ لتجليهم لو أنهم ما غدروا؟

– لربما فعلتُ إنفاذًا لأمر رسول الله ﷺ أمر به ولم ينفذه لشيء رآه ، ولكني أبقيتُ على العهد الذي كان بينهم وبينه ، كما فعل أبو بكر ، ولكن مسبب الأسباب سبحانه شاء أن تمضي وصية رسول الله ﷺ ، فكان الجلاء .

– ونعمَ ما كان ، فإنهم ما نزلوا بأرضٍ إلا أكثروا فيها الفساد ، على أننا قوم أمرنا أن نُحسن لأهل الكتاب ما بدرَ منهم خير .

– أجل والله بهذا أمرنا

– دعنا منهم يا أمير المؤمنين ، ولتحدثني عمّا هو خير ، كيف وضعتَ التأريخ الهجري؟

– بدأ الأمر أن رجلاً اشتكى إليّ صاحبه في دين له عليه ، وكانا قد كتبا كتابًا بينهما في هذا ، فلما نظرتُ في الكتاب ، فإذا هو فيه ، أن السداد يتحقق في شهر شعبان!

فقلتُ : أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة ، أو السنة الماضية أو السنة الآتية؟

فجمعتُ الصحابة لأستشيرهم في وضع تأريخ نعرف به حلول الديون ، ونمهر به الرسائل إلى الولاة

فقال قائل : أرّخوا كتأريخ الفرس!

وقد كان الفرس يؤرخون بملوكهم واحدًا بعد واحد ، فكرهتُ هذا

وقال قائل : أرّخوا كتأريخ الروم

وكان الرّوم يؤرخون بميلاد عيسى عليه السلام ، فراقت لي فكرة ربط التأريخ بالنبيّ ﷺ ، ولكني لم أسترح لربط التأريخ بمولده الشريف ﷺ .

فقال بعضهم : نؤرخ بمبعث النبي ﷺ

وقال بعضهم : نؤرخ بوفاته ﷺ

فقلتُ : بل نؤرخ بهجرته ﷺ ، فإن هجرته كانت فرقانًا بين الحق والباطل ، وميلاد دولة الإسلام

فأقرني القوم في رأيي هذا ، فأمضيته!

– وهل التأريخ الهجري كانت فكرته مخالفة الفرس والروم في تقاويمهم ، أم أن للأمر وجهًا آخر؟

– إن لم يكن فيه إلا هذا فهو شيء حسن ، ولكن الأمر أبعد من هذا

– كيف؟

– إن الله جعل الأهلة مواقيت للناس ، يؤقتون بها عباداتهم ، ومعاملاتهم ، وقد قال الله تعالى : «الحج أشهر معلومات»! فلا بدَّ من إتباع الأشهر العربية التي قام عليها التأريخ الهجري لحساب هذه الأشهر المعلومات!

وقال الله تعالى عن رمضان : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» وهذه عبادة مخصوصة في زمان مخصوص ، لا يُحسب إلا بالأشهر العربية التي هي قوام تأريخنا .

وبالأشهر العربية تُعرف عدة الوفاة ، والطلاق ، والإيلاء ، وصيام الكفارات الطوال ، كالظهار وقتل الخطأ .

لهذا كانت أشهر الحج ، والصوم ، والأعياد ، مواسم الإسلام ، على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله ، لا على حساب الشمس وسيرها .

وقال الله تعالى : «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم»!

وهذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات بالشهور والسنين التي تعرفها العرب ، دون الشهور التي تعرفها العجم والروم والقبط ، وإن لم تزد على اثني عشر شهرًا ، لأنها مختلفة في الأعداد ، منها ما يزيد على الثلاثين ومنها ما ينقص ،

وشهور العرب لا تزيد على الثلاثين ، وإن كان بعضها ينقص يومًا ، والذي ينقص ليس يتعين له شهر ، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج!

وقد بلغني أن الشرائع قبلنا أيضًا ، إنما عُلّقت أحكامها بالأهلة ، كما هي أحكامنا ، ولكنهم بدّلوا وغيروا وحرّفوا ، فلم يبقوا توراة ولا أنجيلاً على حاله ، ومن باب أولى أن يُضيعوا التقويم الذي جعله الله لهم ، وما جعله الله لنا ، ولهم من قبل ، هو أكمل الأمور ، وأحسنها ، وأبينها ، وأبعد من الاضطراب ، ذلك أن الهلال أمرٌ مشهود مرئي بالأبصار ، ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار ، ولهذا سموه هلالاً ، لأن هذه المادة في اللغة تدل على الظهور والبيان ، إما سمعًا ، وإما بصرًا!

– صدقتَ يا أمير المؤمنين!
– فهل بينتُ لكَ ما سألتَ عنه؟
– بل أخبرتني فوق ما سألت ، فجزى الله أمير المؤمنين خيرًا
– اللهم آمين ، ولك مثله يا بُنيّ
– والآن هل يأذن أمير المؤمنين أن يحدثني كيف أعاد مقام إبراهيم عليه السلام إلى مكانه؟
– قد أذنتُ من قبل ، فاسمع مني أبين لك الذي حدث
– كلي آذان صاغية ، فقل
– كان مقام إبراهيم عليه السلام لاصقًا بالكعبة حتى آلت الخلافة إليّ

فقلتُ للناس : واللهَ إني لأعلم أن مقام إبراهيم عليه السلام ما كان موضعه هنا ، ولكن قريشًا خافت عليه من السيل فوضعته في هذا الموضع ، ولو أني أعلم موضعه الأول لأعدته إليه!

فقام رجل من آل عائد بن عبدالله بن مخزوم فقال : أنا واللهِ أعلم يا أمير المؤمنين موضعه الأول ، كنتُ لما حوّلته قريش إلى هذا الموضع الذي ترى ، وقد كنتُ أخذتُ قدر موضعه الأول بحبل ، وضعتُ طرفه عند ركن البيت والباب ، ثم عقدتُ في وسطه عند موضع المقام ، وما زال ذلك الحبل عندي!

– فماذا فعلت يا أمير المؤمنين؟

– دعوتُ بذلك الحبل ، وقستُ المسافة به ، فلما بان لنا موضعه ، أعدته إليه وقلتُ للناس : إن الله عز وجل يقول : «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»!

– ما دام الذي قلتَ يا أمير المؤمنين ، فلِمَ لم يُعده رسول الله ﷺ إلى موضعه الذي كان عليه قبل أن تنقله قريش؟

– هذا سؤال حسن ، له عند عمر بن الخطاب إجابة إن شاء الله وهي :

أمّا لماذا لم يفعل هذا رسول الله ﷺ ، فهذا من حكمته ، وفهمه ، ورجاحة عقله بأبي هو وأمي ، وقد أخبر عائشة عن السبب الذي منعه أن يفعل ليس بشأن المقام فقط وإنما بشأن الكعبة كلها فقال لها :

يا عائشة ، لولا أن قومكِ حديثو عهدٍ بجاهلية ، لأمرتُ بالبيت فهُدم ، فأدخلتُ فيه ما أُخرِج منه ، وألصقته بالأرض ، وجعلتُ له بابين ، بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ، فبلغتُ به أساس إبراهيم ، فإن قومكِ قد قصرت بهم النفقة فجعلوه بعد أن هدمه السيل على الشكل الذي ترين .

فقالت له : فما شأن بابه مرتفعًا؟

فقال لها : فعلَ ذلك قومكِ ليدخلوا من شاؤوا ، ويمنعوا من شاؤوا ، ولولا أني أخافُ أن تنكر قلوبهم لأدخلتُ الجَدْرَ في البيت!

وقد عنى بالجدر حجر إسماعيل عليه السلام

– إذًا كـان شكل الكعبـة غـير هذا الذي نعـرف زمن إبراهيم عليه السلام؟

– أجل كـان على الهـيئـة التي ذكرها رسـول الله ﷺ ، لهـا بابان ، وحـجـر إسـمـاعيل داخل فـيـها ، ولكن السـيل هدمـهـا زمن قـريش ، فأرادوا أن يبنوها مـجددًا ، وأقـسـمـوا أن يفـعلوا من أمـوالهم الحلال فقط ، التي لم يدخلها ربا ، ولا خديعة ، ولا حرام ، فجمعوا لذلك ، وقصرت بهم النفقة أن يجعلوه كما كان ، فبنوه على الشكل الذي نعـرف ، وقـد همّ رسـول الله ﷺ أن يهـدم الكعـبة ، ويعـيـد بناءها ولكنه أمسك خـشـيـة على إيمان المسلمين الجـدد بعـد فـتح مكة ، وهنا تتجلى حكمته ﷺ ، فإن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وقد رأى أن في جلب هذه المصلحة ، مفسدة تترتبُ عليها فتركها ، وكذلك فعل بشأن المقام .

أما أبو بكر ، فمكث في الخلافة عامين وشـهرين ، أمضاها في حـروب الردة والفتـوح ، وإن مثل هذا يلزمـه استـقـرار ، والأولى كـان قتال المرتدين وتجهيز الجيوش .

– فلمَ لم تعِـدْ أنتَ بناء الكعبـة ، ما دام القوم لم يبقـوا حديثو عهدٍ بجاهلية؟

– فعلتُ الذي رأيتُ بخصوص المقام ، وما قدّر الله لي أن أفعل بخصوص البيت

– تقبل الله منكَ ما فعلتَ يا أمير المؤمنين

– اللهم آمين ، ومنكَ يا بنيّ

– والآن حدثني عن جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح .

– صلى بنا رسول الله ﷺ ليـاليًا إمـامًا ، ثم تأخـر وصلى في بيته باقي الشهر

فلما سألناه في هذا

قال : إني خشيتُ أن تُفرضَ عليكم فتعجزوا عنها

فما زلنا نصليها كلٌّ بمفرده ، ما كان فينا رسول الله ﷺ ، وكذلك كنا في عهد أبي بكر ، فلما صارت الخلافة إليّ ، خرجتُ إلى المسجد في ليلةٍ من ليالي رمضان ، فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي آخر فيصلي الرهط بصلاته ، فكرهتُ أن تكون في المسجد جماعات

فقلتُ : لو جمعتُ هؤلاء على قارئ واحد

فأمرتُ أُبيّ بن كعب أن يؤم الناس في صلاة التراويح ، وهذا الذي كان .

- أثاب الله أمير المؤمنين خيرًا ، وجمعه مع صاحبيه في جنات عدن كما جمعنا في صلاتنا

- اللهم آمين ، ولكَ مثله

- والآن نصل إلى آخر ما أريدُ سؤالك عنه ، ثم نطوي باب الحكم والسياسة والولاة إلى غير رجعة

- توسعة المسجد تقصد؟

- أجل

- فاسمعْ بالذي حدث

- قُل ، تجدْ مصغيًا يا أمير المؤمنين

- بعد أن كثر أهل المدينة المنورة ، وضاق عليهم المسجد النبويّ ، رأيت أن أوسعه ، ونظرتُ في أمري كيف أفعل ، ووجدتُ ضالتي في حجرات أمهات المؤمنين أو دارًا كانت للعباس عم رسول الله ﷺ ، فأما حجرات أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، فاشتريتُ دورًا كانت للصحابة حول المسجد ، وبقيت دار العباس

فجئتُ إليه فقلتُ : يا أبا الفضل ، إن مسجد المسلمين قد ضاق عليهم ، وقد ابتعتُ ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين في مسجدهم ، إلا دارك ، وحجرات أمهات المؤمنين ، فأما حجرات أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئتَ من بيت مال المسلمين أوسع بها مسجدهم!

فقال : ما كنتُ لأفعل!

فقلتُ : اخترْ مني إحدى ثلاث :

إما أن تبيعنيها بما شئتَ من بين المال

وإما أن تختار أرضًا حيثُ شئتَ من المدينة فأبني لكَ بيتًا

وإما أن تتصدق بها على المسلمين فتوسع في مسجدهم

فقال : ولا واحدة منها!

فقلتُ : اجعلْ بيني وبينكَ حكمًا

فقال : أُبيٌّ بن كعب

فانطلقنا إلى أبي بن كعب فقصصنا عليه الذي نحن فيه ، وقلنا اقضِ بيننا بالحق!

فقال أُبي : إن شئتما حدثتكما بحديثٍ سمعته من رسول الله ﷺ

فقلنا : شئنا

فقال : قال رسول الله ﷺ : إن الله أوحى إلى داود أن ابنِ لي بيتًا أُذكر فيه ، فخطّ داود للبيت خطًّا ، فإذا تربيعها بزاوية بيت رجل من بني إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياه فأبى!

فحدّث داود نفسه أن يأخذه منه!

فأوحى الله إليه : أن يا داود أمرتك أن تبني لي بيتًا أذكرُ فيه ، فأردتَ أن تُدخل في بيتي الغصب ، وليس من شأني الغصب! وإن عقوبتك أن لا تبنيه!

قال : ربِّ فمن ولدي؟

قال : فمن ولدك!

فأخذتُ بمجامع أُبيّ بن كعب وقلتُ : جئتكَ بشيءٍ فجئتَ بما هو أشد منه!

– فماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

– قلتُ للعباس : اذهبْ فلا أعرضُ لكَ في دارك

فقال : أما إنكَ قد قلتَ هذا ، فإني تصدقتُ بها على المسلمين أوسع عليهم مسجدهم ، فأما وأنتَ تخصمني ، فلا!

فأعطانا داره جزاه الله خيرًا ، واختار أرضًا في المدينة بنيتُ له فيها بيتًا!

– تذهلني كلَّ مرةٍ يا أمير المؤمنين؟

– وما ذاك؟

– تحملُ همّ المسلمين ، فلا يسركَ أن يضيق المسجد عليهم

– وهل وليتُ أمرهم إلا لأحمل همّهم ، يا بُنيّ إن هذا الأمر تكليف لا تشريف ، وإن الأرض لله ، وقد أردتُ أن أوسع فيها ليُعبد فيها

– ونعمَ الذي أردتَ

– وأذهلني كيف أنك الخليفة تعرض تسوية عاجلة على العباس ، وتجعله يختار

– وما لي لا أفعل؟ فإن الخليفة إنما كان ليحفظ على الناس دينهم ودنياهم ، وما أردتُ توسعة المسجد إلا لأحفظ عليهم دينهم ، وما عرضتُ عليه أن يختار الذي يرضى إلا لأحفظ عليه دنياه .

– وأعجبني أنه حين رفض عرضكَ العادل لم تنزعها منه ، وكنتَ قادرًا أن تفعل ، فما أردتها لنفسك وإنما للمصلحة العامة

– ما كنتُ لأفعل هذا مع رجل من عامة المسلمين ، أفأفعله مع عم رسول الله ﷺ ، وقد جعلته من قبل أكثر المسلمين عطاءً من بيت المال لقربه من النسب الشريف؟

– وأعجبني وأنتَ الذي تقضي بين الناس ، تذهبُ إلى أحد الناس ليقضي بينك وبين رجل من رعيتك

– فإنما أنا رجل من المسلمين ، ولو كنتُ الخليفة ، أليس كلما تخاصم رجلان ذهبا إلى القاضي؟

– بلى

– وهذا الذي فعلته أنا ، بل إني جعلته يختار من يقضي بيني وبينه ، ولو اختار غير أُبيّ بن كعب لقبلتُ ، وإنكَ لتعلم حبي لأُبيّ ، وثقتي بدينه ، أما ترى أني جعلته يؤم الناس في صلاة القيام كما أخبرتك!

– بلى ، قد رأيتُ! وأعجبني أنك وقّاف عند الحق ، فإنه لما تبين لك ، قلتَ للعباس اذهبْ فلا أعرضُ لكَ في دارك .

– ما كان لي أن أقبل حَكمًا ثم أرفض حكمه ، ثم إن أُبيّ بن كعب قد قضى بما سمعه من رسول الله ، وليس عمر من يرفض أمر رسول الله ﷺ ولا قضاءه ، ثم ألا تعلم ما عاقبة ردّ الحق بعد ما تبين؟

– ما عاقبته؟

– قال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر!

قلنا : يا رسول الله إن الرجل ليحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا

فقال : هذا ليس من الكبر! الكبر بطر الحقّ وغمط الناس وإني ما أردتُ هذا الأمر إلا لله ، فكيف أعصيه فيه؟

– لا تتكرر أنتَ يا أمير المؤمنين ، والله لا تتكرر ، أمثالك يأتون مرةً واحدة إلى هذا العالم

– بارك الله بكَ يا بنيّ ، والآن أخبرني ، أنغلق هذا الباب؟

– نغلقه على أمر أمير المؤمنين .

– فعن أي شيء أنتَ سائلي الآن وقد أغلقنا بابًا واسعًا في الحكم والسياسة والرعية؟

– عن شيء ليس عن هذا ببعيد يا أمير المؤمنين!

– أما انتهينا؟

– انتهينا إلا يسيرًا ، وإني إن كنتُ أطمع بحلم أمير المؤمنين أن أسأله في شيء جديد ، فإنه لا مناص من الاقتراب قليلاً عما انتهينا منه ، فأنتَ الخليفة ، والحديث معك عن أي شيء سيقودنا إلى الدولة والحكم ، مهما حاولنا أن نبتعد ، وما حديثي معك والحكم والسياسة والدولة ، إلا كالراعي حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، فليُتم أمير المؤمنين عليّ فضله ، وليحتملني إن رتعتُ فيما حسبنا أننا منه انتهينا!

– قُل ما عندكَ يا بنيَّ ، لا تثريب عليكَ .

– بخاطري أن نتحدث عن أبرز صفة في أمير المؤمنين ، ألا وهي العدل ، فما ذُكر عمر بن الخطاب إلا ذُكر العدل ، وما ذُكر العدل إلا ذُكر عمر بن الخطاب .

– الصفات تتجلى في المواقف ، فلا بد أن لك خبرًا بالمواقف التي رأيتَ أني وُفقتُ إلى العدل فيها من الله ، فأي المواقف تحبُّ أن نخوض فيها حديثنا هذا؟

- المواقف كُثر يا أمير المؤمنين ، ولأنه لا بُد من أن نبدأ بشيء منها ، فلنبدأ بأهل الذمة في عهدك .

- ما الذي ترغب أن تعرفه عن أهل الذمة في عهدي تحديدًا؟

- فتح بيت المقدس ، والعهدة العمريّة لأهلها ، أخبرني كيف تمَّ هذا الأمر؟

- لَمَّا فرغ أبو عبيدة بن الجراح من فتح دمشق واستتبَ له الأمر في الشام ، كتب إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام ، أو يبذلوا الجزية ، وإلا فهي الحرب ، وعلى هذا كان يسير رسول الله ﷺ ، ونحن على أثره ، هذا شرع الله وهدي نبيِّه لا اجتهاد أبي عبيدة .

فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه . .

فاستخلف على دمشق سعيد بن زيد ، وسار إليهم في جنوده ، ولما وصلَ ، ضربَ على المدينة حصارًا ، فأجابوا إلى الصلح بشرط أن أقدم بنفسي لأعقده معهم .

- فماذا حدث بعدها؟

- كتب إليَّ أبو عبيدة بالذي كان ، فاستشرتُ الناس فيه ، فأشار عليَّ عثمان بن عفان ألا أفعل ، فيكون هذا أحقر لهم وأرغم لأنوفهم ، وأشار عليَّ عليٌّ بن أبي طالب أن أسير إليهم ، فيكون ذلك أخف وطأة على المسلمين في حصارهم!

- فبأي الرأيين أخذتَ؟

- شرح الله صدري لرأي عليّ بن أبي طالب ، فسرتُ بالجيش نحوهم وجعلتُ على رأس الجيش العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ ، واستخلفتُ علي بن أبي طالب على المدينة .

- فماذا حدثَ بعدها؟

- وصلتُ بمن معي إلى موضع يُقال له الجابية ، وكتبتُ إلى أمراء الأجناد أن يوافوني فيها ، فأتوا ، وكان أول من تلقاني يزيد بن أبي سفيان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، وعليهم يلامق الديباج فغضبتُ وكدتُ أعنفهم ، فاعتذروا إليّ بأن عليهم سلاحهم ، وأنهم لبسوا ما يحتاجونه في حربهم ، فسكتُّ عنهم .

ولما اجتمع القادة عندي جميعًا ، إلا عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، لحصارهما الأرطبون ، إذ جاء جماعة من الروم بأيديهم سيوف مسلولة ، فهمَّ المسلمون أن يخرجوا إليهم

فقلتُ : مهلاً ، إن هؤلاء قوم يستأمنون!

فسرنا نحوهم ، فإذا هم جند من بيت المقدس يطلبون الأمان والصلح ، وقد جاؤوا إليّ حين سمعوا بقدومي ، فأجبتهم لما سألوا عنه .

ثم سرنا إلى بيت المقدس ، فدخلناها صلحًا ، وكتبتُ لهم بهذا عهدًا ، وهذا ما قلتُ عنه العهدة العمرية .

- فماذا كتبتَ فيها؟

- كتبتُ فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ؛ أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضارَّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ،

وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

كتب وحضر سنة خمسة عشرة للهجرة

شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان .

– واللهِ يا أمير المؤمنين ما قلّبتُ تاريخ المعارك والفتوح ، والغزو والحروب ، إلا ورأيتُ المنتصر يبيد المهزوم ، فيهلك في دياره الحرث والنسل ، ثم إني أرى عهدتك هذه ، فأزداد يقينًا أن هذا الدين من عند الله ، فلِمَ هذه الرأفة كلها؟

– يا بُنيَّ هذا دين اللهِ الذي تقولُ أنكَ ازددتَ به يقينًا ، وليس دين عمر بن الخطاب ، وإني ما حكمتُ فيهم إلا بشرع الله ، وما أعطيتهم إلا ما يرضي الله أن يُعطوا في مثل هذا الوضع .

– لنفترض يا أمير المؤمنين أن الآية قد قُلبت وكانوا هم علينا ، أكانوا يعطوننا ما أعطيناهم؟

– ومنذ متى نأخذ ديننا عن الناس ، ونقتدي بالظالم في ظلمه ، وبالباغي في بغيه ، ومن عصانا في الله ليس له عندنا إلا أن نطيع الله فيه ، نعطيه ما أعطاه الله إياه ، ونأخذ منه ما منعه الله إياه ، وما نحن إلا أتباع نبي أرسله الله رحمة للعالمين ، وإنا لنرحم في موضع السيف حيث لا يظن أحد أننا نرحم بعد الذي لقينا ، وما خرجنا لحربٍ مرةً نريد مالاً ، ولا نساءً ، ولا متاعًا ،

إنما نخرج إليها لتعبيد الناس لربّ الناس ، فإن أطاعوا فلهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وإن أبوا فإن الحكم لله ، لهم دينهم ، وطقوسهم ، ومواطن عبادتهم ، أما المجتمع فلا يحكمه إلا الإسلام ، فإن كان الإنسان ودينه ، الذي يتلقى عليه من الله ثوابه إن اهتدى ، وينال عقابه إن ضل ، فإن الأرض لله ، وما بعث الله نبيه إلا ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد .

– قلتَ رحمة في موضع السيف ، فكيف هذا؟

– أما قلتَ أنكَ قلّبت تاريخ الفاتحين والحروب فلم تجد منتصرًا يحسن بالمغلوب كما نفعل؟

– بلى

– فهذا هو ، ومنذ غزوة بدر ، أول موقعة بين الحق والباطل ، كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن الجهاد عبادة كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، فكما أن الله لا يقبل صلاة ولا صيامًا ولا حجًا ولا زكاةً إلا على الهيئة التي فرض ، والوحي الذي أنزل ، فكذلك لا يقبل الجهاد إلا موافقًا لشرعه ودينه ، ونحن إنما نحارب للإسلام بالإسلام! لا شأن لنا بما يفعله الآخرون ، فما الفرق بيننا وبينهم إن تساوينا في الأخلاق؟

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، قلتَ أن رسول الله ﷺ علمكم أن الجهاد كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، وإني لأعلم شروط صحة الصلاة ، ونواقض الصيام من المفطرات ، وأركان الحج ، ونصاب الزكاة وسبيل إنفاقه ، ولكن ماذا عن الجهاد ، بماذا كان رسول الله ﷺ يوصيكم؟

- ما أرسل رسول الله ﷺ جيشًا إلا أوصاه ، وكان مما أوصى به الجيش يوم مؤتة :

أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيرًا ، اغزوا باسم الله ، وقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تغدروا ، ولاتغلّوا ، ولا تقتلوا وليدًا ، ولا امرأة ، ولا كبيرًا فانيًا ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجرًا ، ولا تهدموا بناءً .

وكنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فرأى الناس مجتمعين على شيء ، فبعث رجلاً فقال : انظر علامَ اجتمع هؤلاء؟

فجاء فقال : على امرأة قتيل!

فقال رسول الله ﷺ : ما كانت هذه لتقاتل!

وكان على مقدمة الجيش خالد بن الوليد ، فبعث رجلاً إليه وقال له : قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفًا!

- واللهِ إن هذه الوصايا لوصايا لقوم كأنهم ذاهبون للقاء أهل وصحب لا للقاء عدو ، وصايا رائعة في الإنسانية ، على البشرية جمعاء أن تثني الركب أمام من أوصى بها ، وتتعلم منه كيف تكون الرحمة في الحرب .

- واللهِ لهي كذلك .

- ألم يكن من الحرب بُدٌّ يا أمير المؤمنين؟

- إن القتال في الإسلام يختلف عن غيره من الملل والأنظمة والقوانين ، ومن أراد أن يفهم طبيعة الحرب في الإسلام عليه أن يفهم أولاً طبيعة الإسلام ذاته ، حتى لا يقيس على هذه الحرب مقاييس غيرها من حروب التوسع والعدوان!

- وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟

– الدوافع التي تقوم عليها الحرب في الإسلام واضحة ، لا ينكرها منصف ، ولا يعترض عليها محايد ، وهذه الدوافع تشمل رد العدوان ، والدفاع عن النفس ، وتأمين الدين والعقيدة للمسلمين الذين يحاول الكافرون أن يردوهم عنها ، وأيضًا حماية الدعوة الإسلامية حتى تبلغ الناس جميعًا ، وأخيرًا تأديب ناكثي العهد!

ومع أن أهداف الحرب في الإسلام كلها نبيلة إلا أن الإسلام لم يكن يومًا متلهفًا لحرب ، وقد كنا نخرج للناس ونعرض عليهم الإسلام ، فإن أجابوا كانوا منا ، لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وإن كنا الفاتحين والمنتصرين ، فهل هناك دين يساوي في الدم والعرض بين المنتصر والمهزوم؟

– لا والله ، ليس غير الإسلام يفعل هذا .

– وأزيدك من الشعر بيتًا ، لم تكن الحربُ لتُخرجَ رسول الله ﷺ عن أخلاقه ورحمته ، ولقد كان والله نبيلاً في حربه كما في سلمه ، وكان يرحم الصبيان الذين كان ساداتهم يجبرونهم على الخروج في الحرب لأنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا ، ففي غزوة بدر بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتنسمون خبر قريش ، فأصابوا صبيانًا لِقريش يطلبون الماء لساداتهم ، وكان منهم أسلم غلام بني الجماح ، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد ، فأتوا بهما دفعًا إلى رسول الله ﷺ ، فنهرهم ، وخاطب الغلامين برفق ، واستطلع منهما أخبار قريش ، ولم يتخذهما أسيرين مع أن الحرب على الأبواب ، وقد يحملان أخبارًا عن المسلمين لجيش قريش ، ولكنه أطلقهما لصغر سنهما!

كذلك كان رسول الله ﷺ يرحم من قاتلوه لظروف خاصة ، كما فعل مع أبي عزّة الجمحي أول الأمر .

- وما خبر أبي عزة الجمحي ، ولمَ قلتَ أول الأمر؟

- كان أبو عزة الجمحي من أسارى بدر ، وكان رجلاً يقرض الشعر ، وقال بين يدي رسول الله ﷺ مستعطفًا إياه نثرًا لا شعرًا ، فقال :

يا محمد ، إنَّ لي خمس بنات ، ليس لهن شيء ليفتدينني به ، فتصدّق بي عليهنّ ، وإني أعطيك موثقًا أن لا أقاتلك ، ولا أكثِّر عليك!

فأطلقه رسول الله ﷺ!

فلما كانت غزوة أُحد ، جاء صفوان بن أمية إلى أبي عزّة ، وقال : اخرج معنا!

فقال له : إني أعطيتُ محمداً موثقًا أن لا أقاتله

فقال له صفوان : إني أعهد إليكَ إن خرجتَ فقاتلتَ فقُتلتَ أن أجعل بناتك مع بناتي ، فلا يصيبهن شيء وأنا حي ، وإن حييت أعطيتك مالاً يغنيك!

فلم يزل به صفوان حتى خرج معهم!

- فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- أسرنا أبا عزة ، ولم نأسر من قريش غيره تبعًا للذي كان يوم أحد بعد نزول الرماة عن الجبل ، فاستحال النصر هزيمة .

ولما وقف أبو عزة بين يدي رسول الله ﷺ قال له :

يا محمد إنما خرجتُ مكرهًا ، ولي بنات فامنن عليّ!

فقال له رسول الله ﷺ : فأين ما أعطيتني من العهد والميثاق!

لا واللهِ لا تمسح عارضيكَ في مكة وتقول : سخرتُ بمحمدٍ مرتين ، إن المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين!

ثم قال : يا عاصم بن ثابت ، اضرب عنق هذا
ففعل!

ولهذا قلتُ لكَ عفا عنه أول الأمر ، فكما ترى إن الرجل أُطلق أول مرة بعد أن أعطى ميثاقًا ، وقطع وعدًا ، ولكن في المرة الثانية كان لاً بُدَّ أن يلقى جزاء حنثه ، فلا يعود إلى مكة ساخرًا رسول الله ﷺ .

– نال ما يستحق يا أمير المؤمنين .

– أجل والله ، نال ما يستحق ، وقد قتله حنثه بسيف عاصم!

وقد قلتُ لكَ سأزيدك من الشعر بيتًا ، فما قلته كان صدر البيت ليس إلا!

– فما عجزه يا أمير المؤمنين؟

– أما عجزه ، فإن الله تعالى يقول : «ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى»

وقد دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع العدل معه ، وأن التمثيل بقتلاهم لا يجوز وإن مثلوا هم بقتلانا ، وعلى رغم ما حدث في غزوة أحد من تمثيل المشركين بحمزة بن عبدالمطلب ، إلا أن رسول الله ﷺ لم يجاريهم في خلقهم السيئ هذا ، بل ظلَّ ثابتًا على حسن أخلاقه ونبله ، وظلَّ ينهى عن التمثيل بقتلى الأعداء!

– صلى اللّه عليه وسلم من نبيّ قال فيه ربه : «وإنك لعلى خلق عظيم» ، ولكن أخبرني يا أمير المؤمنين ، ما علاقة الأخلاق في الحرب مع المهزومين بما أعطيته لأهل إيلياء في عهدتك ، لو توقف الأمر على حفظ النفوس والأموال والأرض لقلنا هو خلق الإسلام ، ولكن أن لا تُهدم كنائسهم ، ولا تُدمر صلبانهم ، بل تسمح لمن أراد منهم أن يُغادر وصليبه بيده ، أن لا يقربه أحد ولا يقرب صليبه .

- هو خلق الإسلام أيضًا ، «لا إكراه في الدين» ، إنما نريد بهذا الدين هو هدم الصلبان في القلوب لا في الأيدي ، وإزالة الشرك عن النفوس لا عن الجدران!

- ألهذا السبب رفضتَ الصلاة في الكنيسة؟

- أجل ، لهذا السبب

- فما الذي حدث يومها؟

- عندما دخلتُ بيتَ المقدس ، وجلستُ في صحنها ، وحان وقتُ الصلاة ، قلتُ للبطرك : أريدُ الصلاة!

فقال : صلِ في موضعك!

وخرجتُ وصليتُ منفردًا خارجها ، فلما انتهيتُ قلتُ للبطرك : أتعلم لِمَ صليتُ خارجًا؟

فقال : لا

فقلتُ : لو صليتُ داخل الكنيسة لأخذها المسلمون بعدي ، وقالوا : هنا صلى عمر!

- يا لهذه الرحمة يا أمير المؤمنين ، إنك لتحمل همَّ العدل بعدك حتى!

- ومالي ألا أفعل؟ إني وإن رفضتُ الظلم حيّاً ، فلا يمنعني أن أزيل أسبابه يوم أكون عند ربي .

- أتعبتَ من بعدك يا أمير المؤمنين

- وسبقني من قبلي!

- جعلكَ الله مع صاحبيك يا أمير المؤمنين

- اللهم آمين

- فما خبرُ عمرو بن العاص وابنه مع القبطيّ الذي سبق ابن عمرو؟

– كنا جلوسٌ في المسجد ، إذ طلع علينا قبطيٌّ من مصر يقول : أين أمير المؤمنين؟

فقلتُ : ها أنا!

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوالي أجرى الخيل في سباق ، فكانت فرسي هي الغالبة لكل خيل ، فحسبها محمد بن عمرو بن العاص ، ابن واليك على مصر أنها فرسه ، وقال : فرسي وربّ الكعبة!

فلما نظرنا الخيل مليًا ، فإذا بها فرسي وليست فرس محمد بن عمرو!

فوثب عليَّ ، وضربني بالسوط ، وقال : خذها وأنا ابن الأكرمين!

– فما فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

– والله ما زدتُ على أن قلتُ له : اجلس ، نُصرتَ وكُفيتَ!

ثم أرسلتُ في طلب عمرو بن العاص وابنه ليحضرا إلى المدينة ، فلما حضرا في مجلسي والناس شهود

قلتُ : أين المصري؟

فقال : ها أنا يا أمير المؤمنين!

فقلتُ : دونكَ الدرّة ، اضرب بها ابن الأكرمين!

– فما فعل المصري؟

– أخذ الدرة كما أمرته ، وضرب ابن عمرو حتى أثخنه ، وأنا لا أزيد على أن أقول له مرددًا : اضرب ابن الأكرمين!

– وماذا حدث بعدها؟

– لما حسبته انتهى من خصمه ، قلتُ له : الآن أجِلْها على رأس عمرو ، فوالله ما ضربكَ ابنه إلا بفضل سلطانه!

فقال لي : يا أمير المؤمنين ، قد ضربتُ من ضربني ، ولا حاجة لي بأبيه

فقلتُ : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنتَ الذي تدعه

– فماذا فعلتَ بعد ذلك؟

– التفتُ إلى عمرو وقلتُ له : يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

– هذه حادثة تُكتب بماء الذهب على صحاف من فضة يا أمير المؤمنين ، فليس بعد هذا العدل عدل ، وما عرفتُ أُمةً تنتصرُ لغيرها من نفسها

– يا بُنيَّ ، إن العدل أن ترضى لغيرك ما ترضاه لنفسك ، وتأبى له ما تأباه لنفسك ، فمن سخط أن يكون للناس شيء يأبى أن لا يكون عليه ، ويرضى لغيره شيئًا لا يرضاه لنفسه ظالم مهما تشدق بالعدل ، وإن الأفعال امتحان الأقوال ، فمن صدَّق فعله قوله رفعناه ، ومن أتى بحسن القول وقبيح الفعل ، أخذنا قوله ثم وضعناه ، فلا نردُّ قولاً فيه الحق لأن صاحبه لم يعمل به ، ولا ندعَ قائلاً بالحقّ عاملاً به إلا أثبناه!

– هو العدل واللهِ ، فلأي شيء ترى القبطي قد قطع الفيافي والقفار ليرفع شكواه إليك؟

– ذلك انه سمع أني نصبتُ للعدل ميزانًا ، فلا أردُّ حقًا ولو جاء به من أبغضه ، ولا أقبل باطلاً ولو جاء به من أحبه ، وواللهِ ما كان القبطيُّ أحبّ إليَّ من عمرو بن العاص وابنه ، ولكن العدلَ لا يقوم على الحب والبغض وإنما على الحق والباطل ، فلا يدفعنا حبٌّ لأن نحابي في باطل ، ولا يمنعنا بغض أن لا نجاري في حق!

– فلِمَ أرسلتَ في طلب عـمـرو بن العـاص وابنه ، أمـا كـان يكفي أن تكتب كتابًا تأمر فيه عمرو أن يجعل القبطي يقتص من ابنه وينتهي الأمر؟

– لو أنّ الرجل كتب إليّ كتابًا لكتبتُ إليه كتابًا أقضي فيه بما وقع عليه من ظلم ، أما وقد جاءني في مجلسي ، وشكا إليَّ فيه ، فلا أرضى أن يكون نصره بغير الموضع الذي استنصرني فيه ، ثم إنه لو كان مسلمًا لربما فعلتُ ، كما سبق وأخبرتكُ بالذي شرب الخمر ، فأغلظ عليه أبو موسى وجاءني شاكيًا وأنا في العمرة ، ولكني أردتُ أن أطمئنَ وأُحذِّر!

– تطمئن من؟ وتُحذِّر من؟

– أُطمئن أهل ذمتنا أنهم لا يُضامون ولا يُظلمون ، وأن الخليفة معهم إن كان لهم الحق ، وعليهم إن كان عليهم الحق!

وأحذِّر الولاة قبل العامة ، أن لا يقول أحدهم ؛ هذا ذميّ ، ولربما رضي أمير المؤمنين له ما لا يرضاه لمسلم ، وأما واللهِ إني لا أخفر ذمة ، ولا أنقض عهدًا ، وأهل ذمتنا في القضاء كأهل ملتنا ، من استنصرنا بحق هو له نصرناه ، ومن اعتدى في باطل قاصصناه!

– ولكن يا أمير المؤمنين ، ما ذنب عمرو بن العاص ، حتى تأمرَ القبطي أن يضربه بالدرة بعد أن ضربَ خصمه ، فعمرو ما ضربَ ، وما أعرفُ أنه رضي بفعل ابنه ، حتى يكون له نصيب في العقاب؟!

– إن محمدًا بن عمرو ما ضربَ القبطي إلا بعصا أبيه ، وما أحسبه إلا أن قالت له نفسه : أنتَ ابن الأمير ولا سبيل إليكَ ، فأردتُ أن يحرص عمرو والولاة جميعًا معه ، أن لا يقع ظلمٌ على أحد من قريب منهم ما دفعهم إليه غير قربهم من الولاة ،

وهذا الذي اجتهدتُ فيه ، واستراحت له نفسي ، وهذا الذي كنتُ أقضي به على نفسي وأولادي ، قبل أن أقضي به على الولاة وأولادهم!

– وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟

– كنتُ أقول : إن الناس يؤدون حق الله ما أدّاه الإمام ، وإن الإمام إذا رتعَ رتعت الرعية!

ولذلك كنتُ شديدًا في محاسبة نفسي وأهلي ، لأني كنتُ أعلمُ أن الأبصار مشرئبة نحوي ، وطامحة إليّ ، وأنه لا جدوى إن قسوتُ على نفسي ، ورتع أهلي ، فحوسبتُ عنهم يوم القيامة ، ولا أنجو من ألسنة الناس في الأرض!

فكنتُ إذا نهيتُ الناس عن شيء ، أتيتُ أهلي وقلتُ :

إني نهيتُ الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإذا وقعتم وقعوا ، وإذا هبتم هابوا ، وإني واللهِ لا أُوتى برجلٍ وقع فيما نهيتُ الناس عنه إلا ضاعفتُ له العذابَ لمكانه مني ، فمن شاء منكم أن يتقدم ، ومن شاء منكم أن يتأخر!

وقد منعتُ أهلي من الاستفادة من المرافق العامة التي وضعتها الدولة لفئة من الناس ، خوفًا أن يكون في ذلك محاباة لهم ، وقد اشترى ابني عبدالله إبلاً ، فجعلها مع إبل الصدقة ترعى حيثُ ترعى ، وتشربُ حيثُ تشرب ، فلما سمنت ، أتى بها السوق . . .

فدخلتُ السوق فرأيتُ أبلاً سمانًا ، فقلتُ : لمن هذه؟

فقيل : لعبد الله بن عمر

فقلتُ لعبد الله : يا عبدالله ، بخٍ بخٍ ، يا ابن أمير المؤمنين ، ما هذه الإبل؟

فقال : إبل اشتريتها ، فجعلتها مع إبل الصدقة ، أبتغي بها ما يبتغي المسلمون!

فقلتُ : فيقولون : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ، يا عبدالله بن عمر : اغدُ إلى رأس مالك فخذه ، واجعل الباقي منه في بيت مال المسلمين!

- ولكنَّ ابنك عبدالله ما زاد على أن رعى إبله فسمنت ، أفعلى المرء حرج إن سمنت إبله؟

- ليس على المرء حرج أن يرعى إبله ، ولا هي مذمة فيه إن رعاها فسمنت ، ولو أنه رعاها في أرضه ، ما كان مني الذي كان .

- ألم يكن الناس يجعلون إبلهم في إبل الصدقة كما فعل ابنك؟

- بلى كانوا يفعلون

- فلو رأيتَ إبلاً سمانًا غير إبل ابنك ، أكنتَ تفعل مع صاحبها الذي فعلتَ مع عبدالله بن عمر؟

- لا ، لم أكن لأفعل!

- فلمَ فعلتَ معه؟

- لو كانت الإبل لغير ابني ، لقلتُ إبلٌ رعتْ مع الإبل فسمنتْ ولا حرج ، ولم أكن لأشكَّ أنها سمنت لأنها لقيت من القائمين على إبل الصدقة رعاية وعناية غير ما تلقاه إبل الصدقة ، أمّا وهو ابني فكيف لا أرى أن إبله سمنت بعصا أبيه! وما ليَ لا أرى أنهم كانوا يُقدمونها فترعى لأنها إبل ابن أمير المؤمنين ، أو يقدمونها لتشرب لأنها إبل ابن أمير المؤمنين .

– ألهذا الحدِّ بلغَ بك الورع يا أمير المؤمنين؟

– وما له ألا يبلغ! أكان عبدالله بن عمر يغني عني من اللهِ شيئًا إن وقفتُ بين يديه وسألني : يا عمر ابن الخطاب ما بال إبلَ ابنك سمنت حين هزلت إبل الناس؟!

– إذًا هو العدل ، وأنكَ يوم رأيتَ أنّ ابن عمرو بن العاص إنما ظلمَ بسلطان أبيه ، كان كيوم رأيتَ أن إبل عبدالله بن عمر سمنت بسلطان أبيه؟

– هذا والله كذاك ، ومن ساواك بنفسه ما ظلمك

– حاشاك أَن تظلم ، وقد راقت لي كثيرًا هذه القصة ، أحبُّ أن أسمع حديث الورع فكيف إذا كان منك وعنك ، فهل لدى أمير المؤمنين شيء من هذا بعد ، فيمنّ بإخباري به؟

– أجل ما زال من ضروب هذا عندي شيء

– فقل يا أمير المؤمنين ، لقد أثرتَ فضولي ، وملأتني رغبةً في سماع قصص من ضربٍ ما قد سبق!

– شهد عبدالله بن عمر بن الخطاب جلولاء ، وهي إحدى المعارك في بلاد فارس ، فاشترى من المغنم بأربعين ألفًا ، فلما قدم عليّ وعرفتُ بأمر ما اشترى من جلولاء ، أدنيته مني وقلتُ : أرأيتَ لو عُرضتُ على النار ، فقيل لكَ : يا عبدالله افتدِ أباك بما اشتريتَ من جلولاء ، أكنتَ تفتديني به؟

فقال : واللهِ ما من شيءٍ يؤذيك إلا افتديتك به!

فقلتُ له : كأني شاهد حين تبايعوا ، فقالوا : عبدالله بن عمر صاحب رسول الله ، وابن أمير المؤمنين ، وأحبُّ الناس إليه ، وأنتَ والله كذلك ، فكان أن يُرخصوا عليك أحبَّ إليهم من أن يغلوا عليكَ! وإني قاسمٌ مسؤول ، وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريشٍ لكَ ربح الدرهم درهمًا!

– فماذا قال عبدالله؟

– ما كان عبدالله ليعصي أباه في شيء مثل هذا!

– فماذا فعلتَ أنتَ؟

– دعوتُ التجار ، وبعتهم ما اشتراه عبدالله ، فدفعوا فيه أربعمئة ألف درهم ، فأعطيتُ عبداللهِ ثمانين ألفًا كما أخبرته ، يربح الدرهم درهمًا ـ ثم بعثتُ بالباقي إلى سعد بن أبي وقاص ليقسمه بين الناس .

– مذهل أنتَ يا أمير المؤمنين ، ألهذا الحدِّ يبلغ بك الورع ، واللهِ لو أن غيركَ قد حدثني أنه صنع هذا ، لساورني من حديثه شيء ، أما أنتَ الذي إن رآك الشيطان سالكًا فجًا ، فرَّ منك وسلكَ فجًا آخر ، فكلامك هو فعلك ، وفعلك هو كلامك ، ولكن ألا ترى يا أمير المؤمنين أنكَ بالغتَ في الورع؟

– وماذا لو كان عبدالله قد أُعطيه بالثمن الذي أخذه به للشيء الذي ظننتُ أنه قد أعطيه من أجله ، أنه صاحب رسول الله ﷺ ، وابن عمر ، وأحبّ الناس إليه؟ ألا يكون في هذا غبن للمسلمين؟

– لو أنّ هذا حدث فعلاً لكان فيه ، ولكن ما أدراك أنه كان؟

– يا بُنيّ إن الورع هو ترك تسعة أعشار الحلال خوف الوقوع في الحرام ، فلو لم يكن أُعطي لأجل الذي ظننتُ فما خسرنا شيئًا ، دراهم تأتي وتذهب ، ودنيا تُقبل وتُدبر ، ولكن إن صدق ظني ، وكان الذي حسبتُ ، ألا أخشى أن أُسأل عن هذا يوم القيامة؟

– مثلك والله يخشى ، وقد عزّ أن يكون في الناس مثلك

– كلنا آتي الله يوم القيامة فرداً ، فلو عدل الناس جميعًا وظلمتُ ما نفعني عدلهم ، ولو ظلم الناس جميعًا وعدلتُ ما ضرني ظلمهم ، ولستُ بالإمعة الذي يُحسن إذا أحسن الناس ، ويسيء إذا أساؤوا

- حاشاك أن تكون يا أمير المؤمنين ، فهل عندك شيء من هذا بعد؟

- أجل عندي

- فإني لك مصغ

- أرسلتُ يومًا إلَيّ معيقيب ، وكان عاملي على بيت المال في المدينة ، فجاءني وعندي ابني عاصم ، فقلتُ : يا معيقيب ، أتدري ما صنع هذا؟

فقال : لا ، يا أمير المؤمنين

فقلتُ : إنه انطلق إلى العراق ، فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين ، وسألهم النفقة ، فأعطوه آنية من فضة ومتاعًا وسيفًا مُحلى!

فقال عاصم : ما فعلتُ ، إنما قًدمتُ على أناس من قومي ، فأعطوني هذا من غير مسألة .

فقلتُ : خذه يا معيقيب ، فاجعله في بيت المال!

- فما الذي جعلكَ تجزم أن ابنك قد نال ما نال من القوم بمسألة ، وقد أخبركَ أنه أعطيه دونها!

- لئن كان قد أُعطيها من غير مسألة ، فما كان ليُعطاها من دونها لو لم يكن ابن أمير المؤمنين!

- فلعلها هدية يا أمير المؤمنين

- هي كذلك لو لم يكن ابن أمير المؤمنين ، أمّاَ وقد كان فلا أنام وفي بيتي شيء من أموال المسلمين أخذه ابني لمكانه مني ولو بدا الأمر هدية ، أما قلنا يا بُنيّ : أن الورع ترك تسعة أعشار الحلال خوف الوقوع في الحرام؟

- بلى قلنا

- فعلامَ الأخذ والردُّ إذاً

– هو ليس الجـدال والمراجـعـة يا أمـيـر المؤمنين ، وإنما أردتُ بسؤالي أن أفهم منك كيف نظرت في الأمر ، فاعذرني

– لا تثريب عليك

– فهل عند أمير المؤمنين شيء من هذا بعد؟

– أجل ما زال عندي من هذا شيء!

– فهيا إذًا ، فإني مصغ لما يقول أمير المؤمنين

– خرج عبدالله وعبيدًالله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق ، فلما قفلا مرَّا على أبي موسى الأشعري وهو يومذاك أمير البصرة ، فرحَّب بهما ، وسهّل . . .

ثم قال : لو أقدرُ لكما على أمر أنفعكما به لفعلتُ!

ثم سكت هنيهة ثم قال : بلى أَقدر!

فقالا : وما ذاك؟

فـقـال : ها هنا مـال من مـال الله أريدُ أن أبعث به إلى أمـيـر المؤمنين ، فأقرضكما منه ، فتبتاعان به من متاع العراق ، ثم تبيعانه في المدينة ، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ، ويكون لكما الربح!

– فماذا فعلا؟

– وافقا على عرض أبي موسى لهما ، فاقترضا من المال الذي أعطاهما ، فاشتريا من متاع العراق ما شاء الله لهما أن يشتريا ، وقدما إلى المدينة فباعاه ، وأصابا من هذا ربحًا ، ثم أعادا المال الذي استلفاه!

– أمينان أدّيا ما استلفا

– بهذه البساطة؟

– فماذا هناك يا أمير المؤمنين؟

– هناك الكثير!

- وما هو؟
- ما حاسبتهما عليه!
- وما ذاك؟
- قلتُ لهما : هل أَقرضَ كل الجيشِ كما أقرضكما؟
فقالا : لا!
فقلتُ : إذًا تؤديان المال وربحه أيضًا!
- فماذا قالا؟
- أمّا عبدالله فسكت ، فلم يكن يراجعني في شيء آمره به ، وأما عبيدالله بن عمر فقال : ما ينبغي لك ذلك يا أمير المؤمنين! لو هلكَ المالُ الذي استلفناه أو نقص لضمناه
- صدق واللهِ عبيدالله بن عمر!
- صدقَ إن كَان هو العدل فقط ، ولكن أين الورع؟
- وكيف الورع هنا؟
- لو أن أبا موسى أقرضَ الجيش كله كما أقرض ابنيَّ ، لقلتُ مالٌ استلفاه كما فعل الناس ، وربح أصاباه كما أصابه الناس ، أمّا أن يخصهما بهذا من دون الناس ، فهذا ربح حققاه لمكاني في الناس وإلا ما كان من أبي موسى معهما الذي كان!
- فماذا فعلتَ؟
- قلتُ مرة أخرى : أعيدا المال والربح
- فما فعلا؟
- سكت عبدالله مجددًا ، وراجعني عبيدالله مرةً أخرى!
- فعلامَ انتهى الأمر؟
- قال رجل من جلسائي : يا أمير المؤمنين ، لو جعلته قِراضًا ، أي شراكة ، يؤديان المال الذي استلفاه كاملاً ، ويدفعان نصفَ ما ربحا فيكون في بيت المال .

فاستصوبتُ رأيه ، وعملتُ به!

– أصـبتَ الورع ، ولم تُخطئ العـدل يا أمـير المؤمنين ، وندرَ مثلك في الناس

– المُسدد من سدده الله ، والعاجز من أركنه الله إلى نفسه!

– فهل لدى أمير المؤمنين شيء من هذا بعد؟

– أجل هناك بعد

– حادثتان جمعتني مع زوجتيّ أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، وعاتكة بنت زيد ، حتى تعرف أني ما فرّقتُ في الحساب والورع بين زوجة وولد ، ولا بين أهلي والناس ، وإنما كنتُ أزنُ الأمور بميزان واحد ، فما كلته لنفسي كلته للناس

وقد قلتُ لكَ من قبل : من ساواك بنفسه فما ظلمك!

– فإني مصغ لما يقوله أمير المؤمنين ، فما الحادثتان؟

– أما الأولى ، فإنَّ ملكَ الروم لما رأى الإسلام قد ظهر ، وعرف أنه لا سبيل أمامه لرد الشام إلى دولته ، فترك الغزو ، وكاتبني ، وكان بيننا بريد على ما يكون بين أمراء الدُّول ، وحكام البلدان ، فجاءتني زوجتي أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بطيب وشيء من أشياء النساء وجعلته مع حامل بريدي إلى ملك الروم ليكون ذلك هدية منها لزوجته وأنا لا أعلم بالأمر ، فحمله صاحب البريد فيما حمل معه ، وأوصل الكتاب لملك الروم ، والهدية لزوجته .

ثم إن زوجة ملك الروم جمعت حاشيتها من النساء وقالتْ لهن : هذه هدية امرأة خليفة المسلمين ، وبنت نبيهم ، وإني رأيتُ أن أهديها كما أهدتني

فقلن لها : نِعمَ ما رأيت

فأرسلتْ زوجة هرقل إلى أم كلثوم عقدًا فاخرًا

وحمله صاحب البريد إليَّ فيما حمل من كتاب هرقل

فقلتُ له : ما هذا؟

فقال : أهدتْ زوجة أمير المؤمنين لزوجة هرقل ، وهذه هدية زوجة هرقل لزوجة أمير المؤمنين

فقلت له : أمسكه عندكَ حتى أرى فيه

- وماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

- ناديتُ : الصلاة جامعة!

فاجتمع الناس عندي ، فصليتُ بهم ركعتين ثم قلتُ :

إنه لا خير في أمرٍ أُبرمَ من غير شورى من أموري! ما تقولون في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم ، فأهدتْ إليها امرأة ملك الروم العقد الذي ترون؟

فقال بعضهم : هو لها بالذي لها ، وليست امرأة الملك بذمةٍ فتصانع به ، ولا لك حكم عليها لتتقيك!

وقال آخرون : قد كنا نُهدي الثياب لنستثيب ، ونبعث بها لتباع ونصيب ثمنًا

فقلتُ : ولكن الرسول رسول المسلمين ، والبريد بريدهم ، والمسلمون عظّموا شأن أم كلثوم في صدرها!

- فماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

- أمرتُ بردِّ العقد إلى بيت المال ، ورددتُ على أم كلثوم مالاً بقدر هديتها لامرأة ملك الروم!

- أما كان رسول الله ﷺ يُهدي ويُهدى إليه؟

- بلى ، كان يفعل

- أما أرسل له المقوقس أمنا مارية هدية له ، فأسلمت ، فأعتقها ثم تزوجها ، فرزقه الله منها ابنه إبراهيم

- بلى ، حصل هذا

– أمـا كـان رسـول الله ﷺ إذا أُهدي إليـه شيء أكل منه وأطعم؟

وإذا قيل له هذا صدقة ، دفعه إلى أصحابه

وقال : كلوه فإني لا آكل الصدقة؟

– بلى ، كان على هذا ما كان فينا

– فعلامَ منعتَ زوجتكَ هدية جاءتها من غير مسألة؟

– لم أمنعها الهدية لأن الهدايا حرام ، أما لو أنها كانت كذلك ما جمعتُ الناس لأستشيرهم في أمر حرام أفعله أو أدعه ، وما جمعي لهم للمشورة إلا إقرار مني أن الأمر حلال ، ولكني نظرتُ في الأمر فرأيتُ أن المسلمين شركاء لها في هديتها هذه لسببين ذكرتهما في معرض حديثي

فأما الأول : فإن صاحب البريد ، عامل عند المسلمين ، لا عند أم كلثوم ليحمل لها هداياها ، وإن كانت هي من المسلمين ، فما كان ليحمل لغيرها شيئًا ، ولو كان يفعل ، لقلتُ : نالتْ ما نال الناس ، ولكن الأمر هنا ، مرافق عامة يستغلها آل عمر لأنفسهم!

وأما الثاني : فإن عظم شأن أم كلثوم في صدر امرأة هرقل بعظمة المسلمين ، وغلبتهم في الشام ، وما أحسبُ لو أننا ضعفاء أن يكون منها الذي كان .

فالمسلمون إذًا شركاء في العقد من وجهين ، الأول أنهم أصحاب البريد ، والثاني أصحاب الغلبة والشأن ، وأخذ أم كلثوم العقد دونهم استئثار ما كان لي أن أرضى أن يفعله آل عمر

– ولكنك لم تشركها بما أعطيتَ المسلمين ، فقد أخذتَ العقد كله لهم ، ورددت عليها مالها .

- هذا لأنه لا يُقسم ، ولو قسمته لقلَّ ثمنه ، وزال الانتفاع به ولظلمتها وظلمتُ المسلمين حيئذ!

- ولكنكَ كنتَ قادرًا على أنْ تُقدِّر ثمنه ، فتدفع لها نصيبها منه

- أجل كنتُ قادرًا على أن أفعل ، ولو لم تكن زوجة أمير المؤمنين لفعلتُ ، ولكن أن آخذ من آل عمر للمسلمين ، أحبُّ إليَّ من أن آخذ من المسلمين لآل عمر ، أنسيتَ ما قلنا في الورع

- لا ، ما نسيتُ ، ولكنكَ كل مرة تُذهلني يا أمير المؤمنين ، وأكاد أقول لن يفعلها هذه المرة ، فإذا بكَ تفعلها!

- أيقضي عمر بالورع في أهله مرة ويدعه مرة ، ويضع أولاده تحت حكمه ، ويدع زوجته؟

- لا واللهِ لا تفعل

- ولم أفعل

- قلتَ أن لديك قصتين في هذا الذي نحن فيه ، فهذه كانت الأولى ، فما الثانية يا أمير المؤمنين؟

- أما الثانية فقد جاءني مسكٌ وعنبر من البحرين

فقلتُ : والله لوددتُ أني وجدتُ امرأة حسنة الوزن ، تزن لي هذا الطيب حتى أَقسمه بين المسلمين بالعدل

فقالتْ لي زوجتي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل : أنا جيدة الوزن ، فهلمَّ أزنُ لكَ

فقلتُ : لا

قالت : ولِمَ؟

قلتُ : إني أخشى أنكِ إذا قسمتِ ، أن تتلطخ يداكِ بالطيب فتمسحي به عنقكِ ، فأصيبُ فضلاً على المسلمين!

– حتى في مسحة طيب يا أمير المؤمنين؟

– حتى في مسحة طيبٍ يا بُنيَّ ، من تساهل بالصغيرة ، أوشك أن يقع بالكبيرة ، وليس لعمر ، ولا لآل عمر من فضل على المسلمين حتى يصيبوا من مالهم ما لم يصيبوه هم!

– ولكنها مسحة طيب!

– وإن يكن!

– فماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين بالطِّيب؟

– دفعته إلى امرأة أخرى لتقسمه

– وما أدراك أن المرأة الأخرى لن تتلطخ يداها بالطِّيب ، فتمسح به عنقها هي الأخرى؟

– كنتُ أعرفُ أنه لا سبيل أمامها إلا أن تفعل ، فلا تستطيع قاسمة الطيب بيديها أن تمنعهما أن تتلطخا مهما حرصت ، وأنها إن تلطخت يداها طيبًا لن تزيد على أن تمسح به عنقها

– ما دام الأمر كذلك ، فلِمَ امرأة غير زوجة أمير المؤمنين في أمرٍ لا نجاة منه؟

– لأنه أحبَّ إليَّ أن تصيبه امرأة من المسلمين ، من أن تصيبه امرأة عمر بن الخطاب ، فإذا كان الأمر لا مناص حاصل ، فليكن في امرأة من غير آل عمر!

– أما قلتُ لكَ يا أمير المؤمنين ، أنك لا تكفُّ عن إدهاشي ، من كان له أن يلتفتَ لهذا الأمر غيرك ، هذا أمر لا يخطر أساسًا على بال .

– ولكن خطر لي ، فكان مني الذي أخبرتك

– والله لا يحضرني فيك غير ما قال الشاعر في المسلمين :

قَومٌ إذا استُخصموا كانوا فراعنة
يومًا ، وإن حُكِّموا كانوا موازينا!

- أما والله قد كان المسلمون كذلك
- وكنتَ واللهِ تاجهم الذي يوم جعلوه على رؤوسهم صاروا ملوك الدنيا ، فنالوا الحظين معًا : الدنيا والآخرة!
- نسأل الله حسن الجزاء
- اللهم آمين ، كنا قد بدأنا بالحديث عن أهل الذمة ، فأخذنا الحديث بعيداً عما كنا فيه ، فهل يأذن أمير المؤمنين أن نرجع لما كنا فيه ، فننتهي منه ، ثم نتابع في العدل ما شاء الله لنا أن نتابع؟
- لكَ هذا ، فعن أي شيءٍ أنت سائلي الآن؟
- عن اليهوديّ الذي وجدته يتسول ، فما قصته؟
- مررتُ يومًا بباب قوم ، وعليه سائل يسأل فيقول : شيخ كبير السن ، ضرير البصر!

فوضعتُ يدي على كتفه وقلتُ : من أي أهل الكتاب أنتَ؟

فقال : يهودي

فقلتُ : فما ألجأك إلى ما أرى؟

فقال : أسألُ الجزية والحاجة والسنَّ!

- فماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين وقتذاك؟
- أخذته من يده ، وذهبتُ به إلى منزله ، فأطعمته ، وسقيته ، وتلطفتُ معه في الكلام ، وأعطيته بعض ما يحتاج

ثم أرسلتُ إلى خازن بيت المال وقلتُ له : انظر هذا وضرباءه ، فواللهِ ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم!

وإن الله تعالى يقول : «إنما الصدقات للفقراء والمساكين»

والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب!

فوضعتُ الجزية عنه ، وعن ضربائه ، وكتبتُ إلى الولاة في الأمصار أن لا يُكلفوا الناس إلا ما يطيقون ، وأن يُسقطوا الجزية عن الكبير والعاجز ، وأن يفرضوا لهم من بيت المسلمين ما يكفيهم!

– واللهِ ليس بعد هذا العدل عدل ، ولا بعد هذه الرحمة رحمة ، خليفة المسلمين يرقُّ لرجل على غير ملته ، فيسقط عنه الجزية ، ويجعل له راتبًا من بيت المال .

– يا بُنيّ إننا قوم لا نخفر ذمة ، وقد أدى الرجل ما عليه شابًا ، وها قد أدركه العجز والعمى ، وانقطعت به السُبل ، وهذا أوان أن نؤدي الذي علينا بعد أن أخذنا الذي لنا ، ثم إن العطاء ليس مالاً فقط ، وإنما نحفظ الماء في الوجوه ، ونُطيبُ الخواطر ، ونُراعي الكرامات ، فإن إراقة ماء وجه إنسان كإراقة دمه!

– في حضرتك يضيع الكلام ، وتسكتُ الألسن ، وتُهَزُّ الرؤوس من فرط الإعجاب هزًا!

– إنما أبتغي ما عند الله ، وما فعلتُ يومًا لمدح ، ولا أحضمتُ يومًا بقدح ، أفعل الحق الذي أراه ، وأترك الباطل الذي أراه ، ثم ليرضَ من الناس من شاء ، وليسخط منهم من شاء ، فما من أحدٍ هو مغنٍ عني من الله شيئًا!

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، فهل ما زال عندك من حديث أهل الذمة شيء؟

– عندي أمر حدث بيني وبين عجوز ، وهو أقرب ما يكون لما حدث مع اليهودي آنف الذكر .

– فما خبرها يا أمير المؤمنين؟

– جاءتني عجوزٌ يهودية تشكو إليَّ فقرها ، وابنًا لها قد مرض فعجزتْ عن علاجه ، فاستمعتُ إليها حتى فرغَتْ

ثم قلتُ لها : قومي معي!

– إلى أين أخذتها يا أمير المؤمنين؟

– إلى بيت المال ، وفرضتُ لها ما يكفيها ، ويكفي علاج ابنها

– فماذا فعلت المرأة عند ذاك؟

– فرحت فرحًا عظيمًا ، وقالت لي : أحسن الله إليك يا أمير المؤمنين

– نادتكَ بأمير المؤمنين؟

– أجل واللهِ فعلتْ

– فماذا فعلتَ أنتَ؟

– رأيتُ الفرصة سانحة لأدعوها إلى أمرٍ فيه مصلحتها في الدنيا والآخرة؟

– وما ذاك يا أمير المؤمنين؟

– قلتُ لها مشفقًا : يا أَمَة الله ، إني أدعوكِ إلى الإسلام ، ففيه خيريّ الدنيا والآخرة .

– فماذا قالتْ؟

– قالت : أما هذه فلا يا أمير المؤمنين

– فماذا قلتَ لها؟

– قلتُ : أنتِ وشأنكِ

ومضت في حَال سبيلها ، فأنّبْتُ نفسي على الذي كان مني معها .

– وأي شيء كان منك معها يستدعي أن تُؤنب نفسك فيه؟

– أما ترى أني استغليتُ حاجتها لأدعوها إلى الإسلام؟

– إنكَ دعوتها لأمرٍ فيه صلاحها ، وما سألتَ شيئًا لنفسك ، ولو أجابتك لكان لك فيها أجر ، وليس عليكَ وزر وقد رفضتْ ، وحتى وقد رفضتْ فلكَ أجر دعوتها!

– خشيتُ واللهِ أن يكون سؤالي لها من الإكراه في الدين ، وإني واللهِ ما ندمتُ في حياتي على أمر ندمي على أمرين ،

ما كان مني يوم الحديبية حين راجعتُ رسول الله في أمر الصلح مع قريش ، وأمر العجوز اليهودية يوم دعوتها إلى الإسلام وهي تحت الحاجة والعوز!

– فأما الحديبية فما أردتَ إلا الله ورسوله ، وما راجعتَ رسول الله ﷺ إلا لأنكَ حسبتَ فيه غبنًا للمسلمين ، وما دعوتَ المرأة إلا لما فيه صلاحها ، فلا تُحمِّل نفسكَ ما لا تُطيقُ يا أمير المؤمنين .

– غفرَ الله لعمر ما كان منه

– اللهم آمين ، هذا عمّا كان من أمير المؤمنين مع اليهود ، فهل عنده شيء عن النصارى الذين بدأنا الحديث عنهم ، ثم نختِمُ؟

– هناك ما أخبرك به قبل أن نطوي هذا

– فما هو يا أمير المؤمنين؟

– تناهى إليَّ أن بني تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم ، وأنهم أوغروا صدره ، فقال فيهم :

إذا ما عصبتُ الرأس مني بمشوذ
فغيّك مني تغلب ابنة وائل

فخشيتُ أن يُضيّق عليهم ، فعزلته وأمرتُ عليهم غيره

– نعمَ ما فعلتَ يا أمير المؤمنين ، فإن أبغض الحاكم رعيته وأبغضوه ، كان منه عليهم من الجور ما لا يكون له عادة ، وكان منهم عليه من العصيان ما لا يكون منهم عادة ، وقلما تجد في الناس من يعدل إذا أبغضَ ، ومن يطيع إذا كره!

– صدقتَ يا بُنيّ ، ولأجل هذا عزلته

– فماذا هناك بعد؟

– مررتُ يومًا بأرض الشام ، فإذا بنصارى قد أصيبوا بالجذام ، فأمرتُ أن يُعطوا من الصدقات ، ويجري عليهم القوت

– فلمَ فعلت؟

– إنّا لنرحم أهل ذمتنا كما نرحم أهل ملتنا ، وما القوم إلا ناس من رعيتي ، ولا أرضى أن تضيع بعض رعيتي وإن خالفوني في الدين ، فإنما أمر آخرتهم إلى الله ، وأمر دنياهم إليّ ، والله سائلي عنهم

– ولكني سمعتُ أنك منعتَ أهل الكتاب من بعض المناصب العامة ، وحرمتهم ما كان للمسلمين ، فهل حدث هذا فعلاً؟

– أجل ، حدث هذا

– ولمَ يا أمير المؤمنين؟

– منعتُ استخدامهم في مهام الدولة ، والوظائف العامة ، إيثارًا للعدل ، وكراهة للظلم ، وقد كنتُ أقول للولاة : إني أنهاكم عن استعمال أهل الكتاب ، فإنهم يستحلون الرشى!

وطلبتُ يومًا من أبي موسى الأشعري رجلاً ينظر في حساب بيت المال ، فأتاني بنصراني

فقلتُ له : إني سألتك رجلاً أشركه في أمانتي ، فأتيتني بمن يخالف دينه ديني!

وكان لي مولى من أهل الكتاب يُقال له أسبق ، فعرضتُ عليه أن يُسلم حتى أستعين به على أمور المسلمين ، فأبى ، فأعتقته ، وأطلقته وقلتُ له : اذهبْ حيث شئتَ

– فما المانع من استخدامهم في الوظائف العامة؟

– لأن الله تعالى قد نهانا أن نتخذ منهم بطانة ، والوظائف العامة هي بطانة الحاكم ، هذا أولاً!

أما ثانيًا : فكيف أجعل رجلاً على أمر دين هو لا يؤمن به

وأما ثالثًا : فما أظن أحدًا ينكر أنَّ استخدام الغرباء عن الدولة في أمرها مقتلة لها ، فالغرباء عن الدولة كارهون عادة لمجدها وسلطانها ، فإذا تقلدوا الوظائف العامة نظروا إلى منفعتهم ومصلحتهم قبل أن ينظروا إلى مصلحتها ومنفعتها ، وما أظن أن دولة من الدول أباحت الوظائف العامة إلا بقيودٍ وشروطٍ على أبنائها ، فضلاً عمن هم ليسوا منها .

– هذا والله حقّ يا أمير المؤمنين ، ولكني سمعتُ أنكَ نهيتَ الذميين أَن يلبسوا ثياب المسلمين ويتشبهوا بهم ، أكان منك هذا؟

– أجل واللهِ كان!

– فأين العدلَ أن تمنعهم من لباس؟

– إن أهل الذمة كانوا بغالبيتهم الساحقة أهل الديار التي فُتحت ، وكان المسلمون في تلك البلدان أهل رباطٍ ، وفي حكم الجند! فكيف آذن لهم أن يلبسوا لباسنا ، فيبدون كأنهم منا ، وهم ليسوا كذلك؟ وربما فعل أحدهم فعلة فجرّ على المسلمين سمعة سيئة هم منها براء!

ثم دعني أسألك سؤالاً لينجلي الأمر لك

– سل يا أمير المؤمنين

– لمَ كان بعض الذميين من أهل البلاد التي فُتحت يرغبون في التشبه بالمسلمين في الزيّ والشارة؟

– لا أدري ، فلِمَ؟

– إن كانوا يتشبهون بنا حبًا في ديننا ، فما يمنعهم من الإسلام إذًا؟ ولهم ما لنا ، وعليهم ما علينا؟! فإن انتفى هذا فما أحسب من أرادوا التشبه بنا إلا رغبة منهم في التسلل بيننا ، والإفلات من عهودهم والتزاماتهم ، فيذوبون في المسلمين كما يذوب الملح في الماء! ولما لم تكن الأولى ، فهي واللهِ الثانية!

– وجهة نظر جديرة بالاحترام ، ولكن ماذا عن أهل الكتاب الذين كانوا أصلاً بين العرب قبل الإسلام ، فهل نهيتهم أن يلبسوا مثل لباس المسلمين؟

– كلا لم أفعل ، هذا لباس القوم قبل الإسلام ، ولباسهم أثناءه ، فهل سمعتَ أن عمر بن الخطاب قد خاط ثيابًا ليهود خيبر؟

– كلا ، ما سمعتُ بهذا

– هذا لأني لم أفعل ، إذ لا علّة تدفع لمثل هذا ، أما أهل الكتاب في البلدان التي دخلتْ في سلطان المسلمين حديثًا ، فكان هناك علة ، وقد أخبرتك بها .

– ما أخطأت العدل يا أمير المؤمنين

– أبانَ لك الأمر الآن؟

– أجل بان ، واتضح جليًا

– وإني قد انتهيتُ من هذا ، فإن لم يكن لكَ حاجة فيه بعد لنغلقه إلى غير رجعة إليه .

– على أمر المؤمنين ، نغلقه ، ولكن باب العدل الذي أردتُ أن أسألكَ عنه لم يحن وقت إغلاقه ، فهل يأذن أمير المؤمنين أن نتابع ما كنا فيه .

– نتابع بأمر الله ، فما عندكَ فيه؟

– ما خبرك مع جبلة بن الأيهم يا أمير المؤمنين؟

- كان جبلة بن الأيهم آخر أمراء بني غسّان من قبل هرقل ، وكان الغساسنة يعيشون في الشام تحت إمرة دولة الروم ، وكان الروم يحرضونهم دومًا على غزو جزيرة العرب ، خاصة بعد بعثة النبي ﷺ ، وهجرته إلى المدينة المنورة وإقامة دولة الإسلام ، والقبائل العربية في الشام تعلن إسلامها ، فبدا لجبلة بن الأيهم الامير الغساني أن يدخل في الإسلام هو أيضًا ، فأسلم وأسلم ذووه معه ، وكتب إليّ يستأذنني في القدوم إلى المدينة ، ففرحتُ بهذا فرحًا عظيمًا .

- وما حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- جاء جبلة بن الأيهم إلى المدينة ، وأقام فيها زمنًا ، وأنا أُقرّبه وأكرمه لمكانه في قومه ، ولحداثة إسلامه ، ثم بدا لجبلة أن يخرج للحج ، وفي أثناء طوافه وطِئ إزاره رجل من بني فزارة عن غير قصد كما يحدث أحيانًا في زحام الطواف ، فانحلّ الإزار!

- فما فعل جبلة وقتذاك؟

- كان حديث عهد بالإسلام كما أخبرتك ، والسيادة والأنفة ما زالتا في طبعه ، فغضبَ ، ولطم الفزاري لطمة قوية هشمت أنفه ، فجاءني الفزاري يشكو إليّ ما صنعَ جبلة به

- فما فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

- أرسلتُ إلى جبلة أدعوه إليّ فجاءني ، ثم سألته عن الذي كان منه مع الفزاري ، فأقرّ أنه لطمه وهشّم له أنفه!

فقلتُ : ما دعاكَ يا جبلة لأن تلطم أخاك هذا فتهشم أنفه؟

فقال : أما والله لقد ترفقتُ به ، ولولا حرمة البيت الحرام ، لقتلته!

فقلتُ : لقد أقررتَ بفعلتك مرتين ، فإما أن تُرضي الرجلَ ، وإما أن أقتص له منك!

فقال : وكيف تفعل وهو سوقة وأنا ملك؟

فقلتُ : إن الإسلام قد ساوى بينكما!

فقال : لقد ظننتُ يا أمير المؤمنين أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية!

فقلتُ له : دعْ عنكَ هذا ، فإنكَ إن لم تُرضِ الرجل ، اقتصصتُ له منك!

فقال : إذًا أتنصَّر!

فقلتُ : إذا تنصرتَ ضربتُ عنقكَ! لأنك أسلمتَ ثم ارتددتَ ، ومآل المرتد القتل!

– فماذا فعل جبلة وقد ضيّقت عليه الخناق ، إما أن يُرضي الرجل أو تقتص منه؟

– لما أدرك أن الجدال معي لن يُثنيني عما قضيتُ فيه ، إما إرضاء الرجل أو القصاص .

قال لي : أمهلني حتى أنظر في أمري

فقلتُ : انظر في أمرك

– فعلى أي أمر رسا؟

– كان أحمق ملكٍ رأيته ، ما زاد على أن غادر هو وقومه مكة تحت جنح الظلام إلى القسطنطينية ، فوصلَ إليها متنصرًا

– فما حدثَ بعد ذلك ، أعادَ جبلة إلى الإسلام أم بقي على النصرانية؟

– لَّما بعثتُ إلى هرقل أدعوه إلى الإسلام ، أجابني على المصالحة من غير الإسلام ، فلما أراد الرسول أن يرجع إليَّ ، قال له هرقل :

ألقيتَ ابن عمكَ هذا الذي في بلدنا؟ -يعني جبلة-

فقال الرسول : ما لقيته

فقال : القه ، ثم ائتني أعطيكَ كتابًا إلى عمر

فذهب الرسول إلى باب جبلة فإذا عليه من الحُجّاب والحرس والأبهة مثل ما على باب هرقل ، فاستأذن في الدخول عليه ، فأذِنَ له ، فدخلَ عليه فإذا هو أصهب قد صبغ شعره على هيئة الروم ، فدعا الرسول إليه ، وأخذ يسأله عن المسلمين ، فأثنى الرسول على المسلمين خيرًا ، وقال له : قد تضاعفنا أضعافًا على ما كنتَ تعرف .

فقال له : وكيف تركتَ عمر؟

قال : بخير

ثم انحدر الرسول عن مجلس جبلة

فقال له : لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؟

فقال : إن رسول الله ﷺ قد نهى أن نجلس على سرير قوائمه من ذهب!

فقال جبلة : نقِّ قلبكَ من الدنس وما ضرَّك حيث جلستَ!

فقال له : ويحكَ يا جبلة ، ألا تُسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟

فقال : أبعد الذي كان مني؟

فقال له : نعم ، فعل رجلٌ من بني فزارة أكثر مما فعلتَ ، ارتدَّ عن الإسلام ، وضرب وجوه الناس بالسيف ، ثم رجع إلى الإسلام ، فقُبل منه ، وقد خلّفته في المدينة مسلمًا!

فقال جبلة : إن كنتَ تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ، ويوليني الأمر من بعد ، رجعتُ إلى الإسلام

فقال : لا أضمن لكَ شيئًا من هذا ، ولكني أضمن لكَ إن عدتَ إلى الإسلام أن يقبل منك عمر هذا ، ويعفو عنكَ!

– فماذا حدثَ بعد هذا يا أمير المؤمنين؟

– خرجتُ من الدنيا وجبلة بن الأيهم على هذا الحال هناك عندهم!

– ألا ترى يا أمير المؤمنين أنكَ قسوتَ على جبلة؟

– وكيف ذاك؟ هل كان في حكمي جور؟

– معاذ الله يا أمير المؤمنين ، ولكن ما أقصده أن الرجل كان ملكًا في قومه ، وما زاد على أن لطم رجلاً من عامة الناس في سورة غضب ، أما كان يكفي أن تُرضي أنتَ الرجل ، فتحفظ على جبلة دينه؟

– أكنتُ الذي لطم الرجل حتى أُرضيه؟

– لا

– فعلامَ أُعطي الرجل وأرضيه ، وحقه عند رجل أمامي منعه الكبر والعزة بالإثم أن يُرضي من ظلمه ، ثم وإن يكن ملكًا في قومه ، والرجل في عامة الناس ، أفيعتدي الشريف على من لا حسب له ، وقد ساوى الإسلام بين الناس في الحقوق ، وكل الناس لآدم وآدم من تراب؟

– كل ما أردته أن تحفظ عليه دينه فقط

– ما علمتُ أنه سيرتد لشيءٍ كهذا أولاً ، ثم إني لو كنتُ أعلم ما تغير حكمي فيه ، حتى لا تكونٍ سُنة في الناس ، كلما حكمنا على عزيز في شيء قد ارتكبه ، قال ادفعوا عني القصاص أو أفارق دينكم!

– لربما عزّ عليه أن يكون في القصاص؟

– بل أخذته العزة بالإثم ، ثم ما على الرجل أن يكون في القصاص لشيء فعل ، أهو خيرٌ أم رسول الله صلى الله عليه؟!

- بل رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي

- فقد كان رسول الله ﷺ يوم بدر يمرُّ على صفوفنا قبل المعركة يُسوينا، وكان بيده الشريفة قضيب من أراك يعدل به الصفوف، فمرَّ بسواد بن غزية وهو خارجٌ عن الصف قليلاً، فوكزه رسول الله ﷺ في بطنه

وقال له: استوِ يا سواد بن غزية!

فقال سواد: أَوجعتني يا رسول الله، وقد بعثك الله بالحق، فأقْدِني!

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه

وقال له: استقِدْ يا سواد!

عندها انكب سواد على بطن رسول الله ﷺ وقبّله!

فقال له رسول الله ﷺ: ما حملكَ على هذا يا سواد؟

فقال سواد: يا رسول الله، حضرَ ما ترى، فلم آمن القتل، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك، أن يمسَّ جلدي جلدك!

فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا!

نحن أمة يرفع نبيها عن بطنه لرجل من المسلمين ليقتصَّ منه، رغم أنه وكزه عن غير قصد، وما أراد إلا أن يسوي الصفوف، أفنرضى بعد ذلكَ أن يُهشم أحدٌ أنف أحد، ثم نتركه لأنه عزيز قومه، لو كان يُرفع هذا عن أحد لعزه وشرفه ونسبه، لرفعه رسول الله ﷺ عن نفسه، وهو أعز الناس شرفًا ونسبًا!

- صدقتَ يا أمير المؤمنين

- بل وأزيدكَ من هذا إن شئت!

- ومن يرغب عن حديث أمير المؤمنين، تتفضَّل عليَّ إذ تفعل!

– فاسمع إذًا

– على أمر أمير المؤمنين

– جاء الأحنف بن قيس ومعه جماعة من المسلمين بفتحٍ عظيم ، فسألتهم أين نزلتم؟

فقال الأحنف : في مكان كذا

فقمتُ معهم إلى مناخ رواحلهم ، وجعلتُ أتخللها ببصري وأقول : ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه؟ أما علمتم أن لها عليكم حقًا؟ ألا خليتم عنها فأكلت من نبتِ الأرض؟

فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ، إنَّا قدمنا بفتحٍ عظيم ، فأحببنا التعجل إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بما يسرهم!

فانصرفتُ ، والقوم معي ، فلقيني رجل

فقال : يا أمير المؤمنين ، انطلق معي فأعدني على فلان فإنه ظلمني!

فرفعتُ الدرة وخفقتُ بها رأسه

وقلتُ : تتركون عمر وهو مقبلٌ عليكم ، حتى إذا اشتغل بأمرٍ من أمور المسلمين أتيتموه ، أعدني ، أعدني!

– فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– سأخبرك يا بنيَّ ، فلا تكن عجولاً!

انصرفَ الرجل وهو يتذمر ، فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم ، وقلتُ : عليَّ بالرجل!

فلما جاء ، ألقيتُ إليه بالدرة وقلتُ : اخفقني كما خفقتكَ!

فقال : لا ، ولكن أدعها لله ولكَ

فقلتُ : ليس كذلك ، إمّا أن تدعها للهِ وإرادة ما عنده ، أو تخفقني كما خفقتكَ!

فقال : أدعها لله

فانصرف الرجل ، ومضينا إلى المسجد جميعًا ، فصلينا ركعتين ، ثم قلتُ مخاطبًا نفسي : يا ابنَ الخطاب ، كنتَ وضيعًا فرفعك الله ، وكنتَ ضالاً فهداك الله ، وكنتَ ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملكَ على رقاب المسلمين ، فجاءك رجل يستعديك ، فضربته! فما تقول لربكَ غدًا إذا أتيته؟!

– الآن فهمتُ مرادك يا أمير المؤمنين ، أردتَ أن تقول أن الحقوق يجب أن تُردَّ ولو كانت وكزة كما فعل رسول الله ﷺ مع سواد بن غزية ، ولو كانت خفقةً كما فعلت أنت مع صاحبكَ هذا .

– أجل ، هذا الذي أردتُ أن أقوله لكَ

– ولكنكَ خفقتَ الرجل لأنه أشغلكَ بأمره الخاص عن أمر المسلمين العام!

– وإن يكن ، ألم يكن رسول الله ﷺ يقيم سواءً في الصف يوم بدر لأمر المسلمين لا لأمر نفسه

– بلى

– فهل منعه ذلك أن يكشف عن بطنه ليقتص منه سواء؟

– لا ، ما منعه هذا

– وما لعمر أن لا يكون في القصاص ، وقد رضيَ أن يكون فيه من هو خير منه!

– فلِمَ حاسبتهم بشأن رواحلهم يا أمير المؤمنين ، وقد حملوا عليها ليبشروك والمسلمين بالنصر؟

– هذه الدواب خلقٌ من خلق الله ، وقد تجاوز الله عن بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل بسقيا كلب ، رأته يلهث ، فعلمت ما فيه من العطش ، فخلعتْ موقهاً ، فغرفتْ له به حتى شرب ،

وامرأة دخلت النار في هرة ، حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض

– ولكن ألم يبح الله لنا استخدام هذه الدواب ، وقد سخرها لنا .

– بلى ، من رحمته بنا أنه سخرها لنا ، وأباح استخدامها ، ولكنه جعل هذا الاستخدام مشروطًا أن يكون بالمعروف! وقد رأيتُ أن إرهاق هذه الدواب بالمسير الطويل السريع ، ثم ربطها بعد الوصول ، وحصرها عن الكلأ والماء من الاستخدام الجائر لها

– ألهذا الحد بلغ بك العدل يا أمير المؤمنين ، أن لا يشغلك خبر النصر عن الالتفات لأمر البهائم؟

– يا بنيَّ إن القيام بأمر على أكمل وجه لا يُسقط وزر إهمال غيره ، وإني واقف بين يدي الله ومسؤول عما كان تحت يدي ، الإنس والدواب على السواء!

– لم تُتعب من بعدكَ يا أمير المؤمنين فقط ، وإنما أتعبتَ كل حاكم في أصقاع الأرض إلى يوم القيامة!

– ما كنتُ أسأل ربي إلا أن أخرج من الدنيا كفافًا ، لا لي ولا عليَّ!

– فماذا نقول نحن؟! والآن أخبرني يا أمير المؤمنين ، لِمَ قلتَ للرجل أنه لا يستقيم أن يدعها لله ولكَ ، فإما أن يدعها لله ، وأما أن يقتص؟

– ذلك أنه لا شيء له عندي إلا أن يخفقني كما خفقته ، فتكون واحدة بواحدة ، ويكون قد اقتص لنفسه ، أو أن يعفو ، فيكون عفوه لوجه الله وابتغاء الأجر عنده ، أما لله ولي فلا يستقيم ، فلا يُطلب الأجر من الله ومن العبد معًا ، ثم إني خليفة المسلمين ،

ولا يستقيم أن يُبقي أحد من رعيتي له شيئًا عندي ، إما أن يأخذه مني أو يدعه لله ، فلا يأتيني مرةً أخرى ، وقد خاصم أحدًا ، فأجد في قلبي نزوعًا له على خصمه لما تركه عندي!

– والله إنك لعبقري ، وقد صدق رسول الله ﷺ يوم قال عنكَ : فما رأيتُ عبقريًا يفري فريه!

– ﷺ ، والآن أخبرني أنتَ ، أأزيدكَ من هذا؟

– مثلك لا يسأل مثلي يا أمير المؤمنين ، وكلامكَ لا يُشبع منه ، وإن زدتني فأنا لكَ من الشاكرين

– اسمع إذًا

– على السمع يا أمير المؤمنين

– مررتُ يومًا بالسوق لحاجةٍ لي ، والدرّة بيدي وكانت لا تفارقني ، فإذا بإياس بن سلمة قد اعترض الطريق في تجارة له ، فخفقته بالدرّة خفقةً ما أصابت إلا طرف ثوبه ، ثم قلتُ : هكذا أمِطْ عن الطريق يا إياس!

ومضيتُ في طريقي ، وعاد إياس إلى تجارته ، ولما انقضى عام على هذا ، جئتُ السوق ، فرأيتُ إياسًا هناك

فقلتُ له : أردتَ الحج هذا العام يا إياس؟

فقال : نعم يا أمير المؤمنين

فأخذتُ بيده ، وسرتُ به ، وما فارقتْ يدي يده حتى أدخلته بيتي ، وأخرجتُ كيسًا فيه ستمئة درهم

وقلتُ : يا إياس ، استعن بهذه ، واعلمْ أنها من الخفقة التي خفقتك هي عام أوّل!

فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما ذكرتها حتى ذكرتنيها!

فقلتُ : واللهِ ما نسيتها بعد!

- الله ، الله ، يا أمير المؤمنين ، كل هذا لأجل خفقةٍ ما أصابت إلا طرف ثوبه؟

- «وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم»

- ولكنك ما خفقته غضبًا لنفسك ، وإنما أردتَ ألا يُضيّق الطريق على المسلمين ، وما أرى في الأمر شيئًا عليك ، كنتَ تحافظ على المرافق العامة أن لا تكون مأثرة لشخص دون غيره ، والمسلمون شركاء في الطريق ، وليس لأحد أن يجعل له فيها نصيبًا دون الناس!

- يا بُنيّ إن الأمر بالمعروف يجب أن يكون بالمعروف!

وإن الغايات النبيلة لا تُبرر الوسائل غير النبيلة!

أما ترى أني لو ترفقتُ به ، فقلتُ له : يا إياس إن الطريق للمسلمين ، وليس لكَ أن تضيّق عليهم طريقهم ، ارجع يرحمك الله! لكان هذا أفضل؟

- بلى ، واللهِ ، ولكني ما زلتُ أرى أن الأمر بسيط

- لم أشأ أن أترك عليَّ بسيطًا عند أحد ، وإنّ الاهتمام بأمر الجماعة لا يُبرر إهمال حق الفرد ، وما الناس إلا كرامات ومشاعر ، فأردتُ بهذا أن أدفع عني وزر ما كان مني ، وأطيّب خاطره مخافة أن يكون قد حمل عليَّ

- فإني لا أدري الآن ما أقول ، تذهلني دومًا ، تذهلني إلى الحدِّ الذي يَخرسُ في حضرتك الكلام!

- فإني سأزيدك من هذا القبيل قصصًا ثلاثًا ، فاسمعْ

- كلي آذان صاغية يا أمير المؤمنين

- قِلْتُ ذات ظهيرة تحت شجرة في طريق مكة ، فلما اشتدتْ عليَّ الشَمس ، أخذتُ علَيّ ثوبي . .

فقام رجلٌ غير بعيد مني فنادى : يا أمير المؤمنين ، هل لكَ في رجلٍ قد ربدتْ حاجته ، وطال انتظاره؟

فقلتُ : من ربدها؟

قال : أنتَ!

فقمتُ إليه فخفقته بالدرّة

فقال :عجلتَ عليّ قبل أن تنظرني ، فإن كنتُ مظلومًا رددتَ إليّ حقي ، وإن كنتُ ظالمًا رددتني!

فأخذتُ بطرفِ ثوبه ، وأعطيته الدرّة ، وقلتُ : اقتصَّ!

فقال :ما أنا بفاعل!

قلتُ : واللهِ لتفعلنَّ كما يفعل المقتص من خصمه

فقال : فإني أغفرها

فقلتُ : أنصفكم من نفسي راضيًا ، أصلحُ لي من أن ينتصف مني أحدكم وأنا كاره

فقال : غفر الله لأمير المؤمنين

فنظرتُ في أمره ، وقضيتُ حاجته

– أرى يا أمير المؤمنين أنه لو جاءك طالبًا حاجته برفق ، لما كان منك الذي كان ، وما زاد أن رفع صوته ، وقطع عليك قيلولتك

– لئن رفع صوته ، ربما هذا طبعه ، ولئن قطع عليّ قيلولتي فلعله علم أن الخليفة موظف عند الناس ليقضي حوائجها ، وما طلب مني أكثر مما يطلب ربُّ العمل ممن يعمل عنده .

– مرة أخرى يضيع مني الكلام ، فما الثانية يا أمير المؤمنين؟

– أما الثانية ، فأني نظرتُ إلى رجلٍ قد أذنب ذنبًا ، فتناولته بالدرة

فقال : يا عمر ، إن كنتُ أحسنتُ فقد ظلمتني ، وإن كنتُ أسأتُ فما علمتني!

فقلتُ : صدقتَ

واستغفرتُ ربي ، وناولتُ الرجل الدرة

وقلتُ : اقتصَّ من عمر

فقال : أهبها لله ، غفر الله لي ولكَ

– مرة أخرى تضع نفسكَ في القصاص يا أمير المؤمنين

– رجل ضربته دون وجه حق ، فلِمَ لا أسلم له نفسي ليقتص مني؟

– ولكنك رأيته على ذنب!

– ولكن ليس لي على الناس في ذنوبهم إلا ما أوجبه الله من حدّ ، وما دون ذلك فأمرهم إلى الله ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذّب ، أو كلما اقترفَ رجلٌ ذنبًا جاء به عمر فضربه؟

– ولكنكَ غضبتَ لله

– غضبتُ لله بغير ما أراد الله ، لو علمته خطأه ، ودللته على الطريق ، لكان خيرًا لي وله

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، فما القصة الثالثة؟

– قدم يحيى المكيّ المدينة بامرأته ، ثم افترقا ، فذهبتْ هي لبعض حاجتها ، وذهب يحيى إلى المسجد ، فصلى ركعتين ، ثم مرَّ على قبر رسول الله ﷺ ، وسلّم عليه ، ثم مضى ، فلقي امرأته في الطريق ، فأقام معها يسألها عن بعض أمرها ، كما يكون بين الرجل وامرأته ، فبينما هو يكلمها ، وقد كنتُ رأيته من قبل كيف استوقفها ، فما ظننتْ أنها زوجته ، فخفقته بالدرة!

فقال : يا أمير المؤمنين ، ظلمتني ، هذه واللهِ امرأتي!

فقلتُ : فهلا كلمتها خلف بابٍ أو ستر؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، لقيتها فسألتها عن بعض الأمر!

فألقيتُ إليه الدرة ، وقلتُ : اقتصّ

قال : لا

قلتُ : فاعفُ

قال : لا

فأخذتُ بيده ، فانطلقتُ به إلى بيت أبيّ بن كعب ، فناديتُ ، فخرج إليّ ابنه ،

فقال : حاجتك يا أمير المؤمنين!

فقلتُ له : قل لأبيك يخرج

فخرج أبيّ بن كعب ، فقلتُ : يا أُبيّ ، اقرأ عليّ من الأحزاب «الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات»

فقرأ أُبي : «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا»!

فقلتُ : أفيّ نزلت؟

فقال : لا

فقلتُ : فإني أضرب المؤمنين ولا يضربونني ، وأشتمهم ولا يشتمونني ، وأوذيهم ولا يؤذونني!

فقال : لا ، ولكن أحدّثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ : «إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ من قبل الله : ألا لا يرفعنّ أحدٌ كتابه حتى يرفع عمر بن الخطابِ ، فيُجاء بك ، مبيّض وجهك ، تُزف إلى ربكَ وكتابك بيمينك»!

قلتُ : أنشدتكَ الله ، أأنتَ سمعتَ هذا من رسول الله؟

فقال : أجل ، وما كان لي أن أكذب على رسول الله

فبكيتُ بكاءً شديدًا ، وبكى لبكائي يحيى المكي ، وقال : أغفرها لأمير المؤمنين!

– رحمك الله ، ما أتقاك ، وما أخشاك لله

– والآن ، بعد كل ما قلتُ لكَ ، عن الضرب في سورة الغضب ، والنزول في القصاص ، أنغلق حديثنا عن جبلة بن الأيهم ، فما أحسبنا إلا أكثرنا

– قليلك كثير يا أمير المؤمنين ، وكثيرك لا يُشبع منه ، ولكن الأمر على ما قلتَ ، أعطينا المسألة ما تستحق ، وجرّ الكلام كلامًا ، فما زال باب العدل مفتوحًا!

– فعمَّ أنتَ سائلي الآن فيه؟

– وددتُ لو يحدثني أمير المؤمنين ببعض ما حدث معه ولقيَ وهو يعسُّ الناس ليلاً ويتفقّد أحوال الرعية؟

– سأفعل إن شاء الله

– فبأي شيء يرى أن يبدأ أمير المؤمنين؟

– بخبر الصبيّ الرضيع وأمه!

– فما خبرهما يا أمير المؤمنين؟

جاء جماعة من التجار إلى المدينة ، وأناخوا مطاياهم في مكانٍ ليس ببعيد عن المسجد ، وعليها تجارتهم ومتاعهم ، ثم أتوا المسجد ، يُصلون ، ويريحون أجسادهم مما لقوا من وعثاء السفر ومشقة الطريق ، فلما رأيتهم على هذا الحال ، عرفتُ أن مكثهم في المسجد سيطول ، وكان معي عبدالرحمن بن عوف

فقلتُ له : هل لكَ أن تحرسهم الليلة معي من السرقة؟

فقال : أفعل يا أمير المؤمنين

فذهبتُ وعبد الرحمن بن عوف حيث أناخ القوم مطاياهم ، وصرنا نحرس ونصلي ، فسمعتُ بكاء صبيّ يأتي من مكان قريب ، فقصدتُ الصوت ، فإذا امرأة ورضيع لها يبكي . .

فقلتُ لها : اتقي الله ، وأحسني إلى صبيك!

ثم عدتُ إلى حيثُ عبدالرحمن ، ورواحل القوم ، وعدنا نحرس ونصلي ، فلم نلبث مليًا حتى عاود الصبيّ بكاءه ، فتوجهتُ صوبها مرة أخرى ، وقلتُ لها مثل ما قلتُ في الأولى ، ثم عدتُ أدراجي إلى عبدالرحمن ، فصنعنا ما كنا نصنعه من الحراسة والصلاة . .

ولما كان آخر الليل ، والصبي على حاله ، اتجهتُ إلى المرأة

وقلتُ لها : ويحكِ ، إني أراكِ أم سوء ، أرى ابنكِ لا يقرُّ منذ الليلة!

فقالت : يا عبد الله ، قد أبرمتني منذ الليلة! فإني أحمله على الفطام!

قلتُ : ولِمَ ، ما أراه قد بلغ سنّ الفطام بعد!

فقالت : لأن عمر لا يفرض مالاً إلا للفطيم

فقلتُ : ويحكِ ، لا تعجليه على الفطام ، وسيكون من عمر ما يكفيك مؤونة هذا!

والمرأة لا تعرفني . . .

– فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– لما كان الفجر ، عدنا أدراجنا إلى المسجد ، فصليتُ بالناس ، وما كانوا يستبينون قراءتي من شدة ما كنتُ أبكي!

فلما فرغنا من الصلاة ، قلتُ أمام الناس مخاطبًا نفسي : يا بؤس عمر ، كم قتل من أولاد المسلمين!

ثم أمـــرتُ مناديًا فنادى : لا تعـــجلوا أولادكم عن الرضـــاع والفطام ، فإن عمر يفرض عطاءً لكل مولود في الإسلام!

وكتبتُ بذلك إلى الولاة

– رحيم أنتَ يا أمير المؤمنين ، ولكن ما كان يجب على المرأة أن تُسارع إلى فطام ابنها لأجل المال!

– ماذا لو كان بها عوز وحاجة ، وقد ألجأتها الحاجة إلى أن تسارع في فطامه ، ليكون له ما يكون للفطيم

– أما كان يكفي أن تنظر في أمرها ، فترى إن كانت محتاجة ، ساعدتها في حاجتها؟

– كلا لا يكفي!

– ولِمَ يا أمير المؤمنين؟

– لأنها ليست إلا امرأة واحدة ، فماذا عن بقية الأمهات اللائي هُنّ في مثل حالها وما دريتُ عنهنَّ؟ بئس الوالي إن كان لا يُعطي إلا من رأى حاجته ، يا بُنيّ ، إن العدل يقتضي أن لا نسدَّ حاجات الناس فقط ، وإنما أن لا نوقعهم في الحاجة أصلاً ، فنحفظ ماء وجوههم عن السؤال!

– ماذا لو كتبتَ إلى الولاة أن يتتبعوا من كانت ذات حاجة ، فيعطونها كي لا تسارع إلى فطام وليدها ، بدل أن تلغي قرارًا قد اتخذته!

– وماذا لو غاب عن الولاة أمر امرأة محتاجة؟

فهذه امرأة كانت في المدينة وما دريتُ عنها حتى كان من خبرها الذي رويت لك ، ثم إني لا أعطي من مال عمر ، ولا من مال الخطاب ، هذا مال المسلمين ، وهو إليهم وما أنا إلا خازن له ، أحفظه لهم من التلف ، وأقسمه بينهم ، بما فرضَ الله لهم ، وبما رأيتُ أن الحاجة تستدعي أفعل

- فأين هيبة الدولة أن ترجع عن قرار كانت اتخذته؟

- إن الرجوع إلى الحقّ أفضل من التمادي في الباطل ، وإن هيبة الدولة تتأتى من العدل ، والرجوع إليه ،لا من العناد في أمرٍ رأت فيه جورًا أن تستمر فيه ، ثم من قال أن عمر بن الخطاب كانَ يريد الناس أن تهاب الدولة أو تهابه ، واللهِ ما كنتُ أريد لهم إلا أن يطمئنوا ، فالأصل في المسلمين الخير ما لم يقوموا بما يثبت العكس ، وإن العدل هو الذي يجعل الضعيف يأنس بك ، والقويّ يخشاك ، وهو ما أردتُ ، أن لا يخاف ضعيفٌ على حقه لأنه ضعيف ، وأن لا يغتر قوي بقوته لأنه قوي! وأن يقول الناس رجع عمر إلى حقّ رآه ، خير من أن يقولوا مشى في باطل بعد ما تبين له! وأن ينادى يوم القيامة أين عمر الذي رجع عن خطئه ، أفضل من أن يُنادى أين عمر الذي منعه الكبر أن يرجع للحق!

- صدقتَ يا أمير المؤمنين ، إن هذا لخير

- أعندكَ شيءٌ في هذا تسألنيه بعد؟

- لا يا أمير المؤمنين ، سألتكُ ما أردتُ أن أستفهم منكَ ، فعن أي خبر من أخبار تفقد الرعية ليلاً تخبرني به الآن؟

- عن الأعرابي وامرأته ساعة المخاض!

- وما خبرهما؟

- خرجتُ ذات ليلةٍ أتفقدُ أحوال الناس ، فإذا بي أسمع أنين امرأة ينبعث من خيمةِ شعرٍ لم تكن هنا بالأمس! فدنوتُ فإذا برجلٍ عند باب الخيمة يجلسُ القرفصاء ، فسلمتُ عليه ، فردّ السلام

ثم قلتُ : من الرجل؟

قال : رجل من أهل البادية ، جئتُ أمير المؤمنين أصيبُ من فضله!

فقلتُ : ما هذا الصوتُ الذي أسمعه في الخيمة؟

قال : انطلق لحاجتك ، يرحمك الله!

فقلتُ : على ذلك . . ما هذا الصوت؟

فقال : امرأة تلد!

فقلتُ : أعندها أحد؟

قال : لا

فذهبتُ مسرعًا حتى أتيتُ بيتي فإذا أم كلثوم بنت عليّ قائمة

فقلتُ لها : هل لكِ في أجرٍ ساقه الله إليك؟

قال : وما هو؟

قلتُ : امرأة غريبة تلد وليس عندها أحد

فقالت : نعم إن شئتَ

فقلتُ : فخذي معكِ ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن ، وجيئي بقدر شحم ودقيق

فجاءت به ، وانطلقنا . . ً

ولما وصلنا ، قلتُ لها : ادخلي

وجئتُ حتى قعدتُ إلى الرجل ، وجعلتُ أُشعل النار تحت القِدر ، وأنفخُ فيها ، وأطبخ ، فما لبثنا إلا أن سمعنا صوت طفلٍ يصيح من داخل الخيمة

فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين ، بشِّر صاحبك بغلام!

فلما سمع الأعرابي ما نادتني أم كلثوم به ، شهق ، وتنحى هيبة مني!

فقلتُ له : مكانكَ كما كنتَ

ثم حملتُ القِدر ووضعتها عند الباب

وقلتُ لأم كلثوم : أشبعي صاحبتكِ ، فلقد لقيتْ الليلة جهدًا!

ففعلتْ ، ثم أخرجتْ إليَّ القدر ، فقمتُ ، فأخذتها ، ووضعتها بين يدي الرجل

وقلتُ : كُلْ ، فأنكَ قد سهرتَ من الليل

ثم جئتُ الخيمة وقلتُ لأم كلثوم : اخرجي

ونحن ذاهبان عنهم ، قلتُ للرجل : فإذا كان الغد ، فأتنا نأمر لكَ بما يصلح أمرك!

– والله لو كانت الرحمة رجُلاً ، لكنتَ أنتَ يا أمير المؤمنين

– ليتني أخرجُ منها كفافًا لا لي ولا عليّ

– لكَ والله ، لكَ! ولكن أخبرني يا أمير المؤمنين أما كان يكفي أنكَ كنتَ تفني نهارك في شأن الناس ، حتى تفني ليلكَ في سبيلهم!

– أوليتُ أمرهم نهارًا فقط؟

– لا ، ولكن ما قصدته أنك لو ترفقتَ بنفسك

– كنتُ أترفق بنفسي بتفقد أحوالهم ، وقضاء حوائجهم ، فإن فعلتُ لقيتُ حظًا عظيمًا عند الله ، وإن لم أفعل أهلكتُ نفسي

– لا مراء في هذا ، ولكن أليس لبدنكَ عليكَ حقًا؟

– يا بُنيّ ، إن النعيم لا يُدركَ بالنعيم! من أراد الجنة شمّر عن ساقيه ومشى ولا مستراح إلا هناك .

– يا لقلبك ، ويا لفقهك ، ويا لإيمانك ، جبل أشمُّ راسخ ، من النُبل تنسى حظ نفسك ، وفرقًا من الآخرة تجعل نهارك وليلك للناس

– «ولمن خاف مقام ربه جنتان»!

– جعلك الله فيها مع صاحبيك

– اللهم آمين ، ولكَ مثله يا بُنيّ ، فهل من شيء تراجعني فيه من قصتنا هذه أم أنك انتهيت؟

- ما زال هناك شيء!

- وما هو؟

- بعد أن وقفتَ على حال الرجل وامرأته ،لِمَ أشغلتَ نفسكَ وأهلكَ بهما ، لو أنكَ عهدتَ بأمرهما لغيركما من الناس!

- أفي الأمر خير أم شر؟

- خير والله

- أفي الأمر أجر أم وزر؟

- بل أجر

- أفيسبقني الناس إلى خير ، وأحرمُ نفسي وأهلي أجرًا ساقه الله إلينا؟

- أقصد أنكَ تلقى في يومكَ ما يكفيك

- ما خرجتُ ليلاً إلا أبحثُ عما ألقى في نهاري ، يا بُنيّ إن الناس رعيتي ، وأنا أحقُّ أن أقوم بأمرها ، فإن فترتُ فتر الناس ، وإن اجتهدتُ اجتهد الناس ، وما كان لعمر أن يضيع نفسه ورعيته

- حاشاك أن تفعل يا أمير المؤمنين

- فهل انتهيتَ؟

- أجل انتهيتُ يا أمير المؤمنين ، فما عندكَ بعد هذا من خبر الليل؟

- خبر الذي تسوّرتُ عليه داره

- وما خبره يا أمير المؤمنين؟

- خرجتُ في الليل أتفقدُ الناس كما كنتُ أفعل ، ومعي عبدالله بن مسعود ، فإذا نحن بضوء نار

فقلتُ لابن مسعود : امكث هنا!

فتتبعتُ الضوء حتى دخلتُ فناء دار ، فإذا شيخٌ جالس وبين يديه خمر ومغنية تُغني له!

فلم أشعر حتى هجمتُ عليه وقلتُ : ما رأيتُ كالليلة منكرًا أقبح من شيخ ينتظر أجله!

فرفع إليَّ رأسه وقال : بلى يا أمير المؤمنين ، ما صنعتَ أنتَ أقبح!

قلتُ : وما ذاك؟

فقال : إنك قد تجسستَ وقد نهى الله عن التجسس! ودخلتَ من غير استئذان ، وقد قال الله : «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها»!

فقلتُ له : صدقتَ

– فما فعلتَ بعد ذلكَ يا أمير المؤمنين؟

– خرجتُ عاضًا يدي ندمًا ، وقلتُ : ثكلت عمر أمه إن لم يغفر له ربه! يجد رجلاً كان يستخفي بهذا من أهله ، فيقول الآن رأى عمر ما أفعل فيتتابع فيه!

– وماذا حصل بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– هجر الشيخ مجلسي حينًا من الزمن ، فبينما أنا بعد ذلك في المسجد ، فإذا قد جاء كالمستخفي حتى جلس في أُخريات الناس!

فقلتُ : عليّ بهذا الشيخ

فقيل له : أجب أمير المؤمنين

فقام يمشي إليّ وأغلب ظنه أني سأراجعه أمام الناس بما كان منه

– أولم تفعل هذا؟

– لا يا بُنيّ!

– فماذا فعلتَ إذًا؟

- قلتُ له : ادنُ مني!

وما زلتُ أدنيه حتى أجلسته جنبي

ثم قلتُ له : هاتِ أذنك!

فلما أعطانيها ، قلتُ له : أما والذي بعث محمدًا بالحق رسولاً ، ما أخبرتُ أحدًا من الناس بما رأيتُ منكرًا ، ولا ابن مسعود ، فإنه كان معي!

- فما صنع الشيخ؟

- قال لي : يا أمير المؤمنين ، هاتِ أذنك!

فلما أعطيته

قال لي : ولا أنا ، والذي بعث محمدًا بالحق رسولاً ، ما عدتُ إليه حتى جلستُ مجلسي

فرفعتُ صوتي وكبَّرتُ ، وما يدري الناس من أي شيءٍ أُكبِّر!

- فمن أي شيء كبّرتَ يا أمير المؤمنين؟

- سبحان الله ، أما ترى الشيخَ قد تابَ عن الذي كان منه؟

- رجلٌ تاب لنفسه يا أمير المؤمنين

- أفتزعجنا معصيته ولا تُفرحنا توبته؟ إنما نكره المعصية لا العاصي ، وإن كنا نحب الطاعة والطائع! وإن كنا في معصية العاصي نغضب لله ، فكيف لا نفرح لله في طاعة الطائع؟

- صدقتَ يا أمير المؤمنين ، ولكن لمَ أفلته يومَ قبضتَ عليه متلبسًا؟

- لأنه ما كان لي أن أدخل داره لأجده على الحال التي وجدته فيها

- ولكنك وجدته!

– رجلٌ استتر بمعصيته في بيته ، وإن كان جاء بواحدة فقد جئتُ باثنتين ، إذ تجسستُ ، ودخلتُ دون استئذان ، وللبيوت حرمات!

– فلمَ لمْ تخبر ابن مسعود ما كان من خبركَ وخبر الشيخ؟

– يا بُنيّ إن الله ستير يحبُّ الستر ، رجل غلبته نفسه ، وزين له الشيطان عمله ، فانتحى لما هو فيه في داره خجلاً من نفسه ومن الناس ، فيستره الله ، فكيف أفضحه أنا

– ولكنه استتر خوفًا من أن يناله العقاب ، ولو شرب خمرًا على الملأ لقمت بجلده يا أمير المؤمنين!

– ومن قال أن كل من عمل معصية في خفاء يعملها خوفًا من العقاب ، لربما يخجل المرء من نفسه ومن الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرجل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه!

– ما أفقهك يا أمير المؤمنين ، وما أحضرَ بديهتك!

– أنتهينا من هذه؟

– أجل يا أمير المؤمنين ، فعمّ ستخبرني الآن؟

– عن المرأة التي كانت تحمل الماء على رأسها ليلاً!

– وما خبرها؟

– خرجتُ ذات ليلةٍ أعسُّ كما كانت عادتي ، فإذا بي بامرأةٍ تحمل على كتفها قربة ماءٍ ، فتقدمتُ إليها

وقلتُ : يرحمكِ الله ، ما أخرجكِ من بيتكِ الساعة؟

فقالت : إني صاحبة عيال ، وليس عندي خادم ، فأخرجُ بالليل لأجلب لهم الماء ، فإني لا آمن أن أتركهم نهارًا!

- فماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين؟

- رققتُ لحالها

وقلتُ لها : هاتي قربة الماء أحملها عنكِ حتى دارك ، فأعطتنيها ، فمشيتُ حاملاً قربة الماء حتى أوصلتها بيت المرأة . .

ثم قلتُ : فإذا كان الغد ، فاقصدي عمر بن الخطاب يأمر لكِ بخادم!

قالت : لا أصلُ إليه

قلتُ : إنكِ ستجدينه إن شاء الله

- فهل جاءت يا أمير المؤمنين؟

- لما كان الغد جاءت ، فاستأذنت ، فأذنتُ لها ، فلما رأتني عرفتني ، فولتْ هاربة!

فأمرتُ لها بخادم ونفقة ، وأرسلتها في إثرها

- كفيتَ ووفيتَ يا أميرَ المؤمنين

- الحمد لله ، ولكن كان أحبّ إليّ لو تقصيتُ أمرها ، وأمر أشباهها ، فقضيتُ لها ، ولهنَّ حوائجهنّ ، دون أن يتكلفنّ الذي رأيتَ

- وما على المرأة أن تحضر الماء لأولادها؟

- لا شيء عليها

- فلِمَ أعطيتها ما أعطيتَ؟ أمن واجب الدولة أن تؤمن الخدم للرعية أيضًا؟

- واجب الدولة أن لا تمنع الناس مما تملك ويحتاجونّ ، ثم إن المال كثير ، ومآله إلى المسلمين في نهاية الأمر ، وما صرفتُ خادمًا لكل امرأة من المسلمين ، ولكن المرأة ذات حاجة ، أما ترى كيف تركت أولادها ، وخرجت تحت جنح الظلام تحضر لهم الماء؟

- بلى رأيتُ
- فعلامَ يبقى المال في بيت المال والناسُ في حاجة إليه ، فإنما أنا خازنه وحافظه لا مالكه ، ومن علمتُ حاجته ، أعطيته ما لا أعطي غيره ممن لا حاجة له .
- ألا يتنافى هذا مع العدل يا أمير المؤمنين؟
- ماذا تقصد؟
- أقصد أن يُعطى البعض شيئًا دون غيرهم من الناس
- الأمر ليس على إطلاقه ، هناك مالٌ للجميع ولا حقّ لأحدٍ فيه فوق أحد ، إلا ما أخبرتك سابقًا كيف أدرجتُ الناس فيه على سابقتهم في الإسلام ، وقربهم من رسول الله ﷺ ، وهو أمر تحدثنا فيه طويلاً وما أريد أن أعود إليه! وهناك مال يستحقه البعض لحاجتهم ويُمنع منه البعض لاكتفائهم ، ولأقرّب لك الأمر ، لو كنتُ أعطيتُ لعبد الرحمن بن عوف خادمًا من دون الناس ، لتنافى هذا مع العدل ، إذ أن عبدالرحمن كان ثريًا ، ولم يكن الخادم من مال عمر ، أما هذه المرأة فذات حاجة ، فإننا أعطيناها ما يسدُّ حاجتها ، ولو كانت أخرى ذات حاجة لفرضنا لها مثل الذي فرضنا لصاحبتها ، وهذا العدل ، ولكن ما كل ما أعطيتُ محتاجًا درهمًا قمتُ وأعطيتُ مثله للناس جميعًا!
- حسنًا ، فهمتُ يا أمير المؤمنين ، فلِم حملتَ القربة عنها ، لو ذهبتْ بها بنفسها إلى بيتها كما كانت تفعل كل ليلة ، ثم أعطيتها في الغد ما أعطيتها
- وما يمنعني أن أحمل عنها
- ألستَ أمير المؤمنين؟
- بلى

– أقصد ، أنك حاكم دولة من أكبر الدول على ظهر الأرض يومذاك ، وتسير في الليل حاملاً قربة امرأة؟

– أصلحكَ الله ، أكبرتُ بها أم صغرتُ؟

– بل كبرتَ!

– فإذًا كيف تراجعني في أمرٍ فيه خير لنفسي؟

– أقصد هيبتك يا أمير المؤمنين

– هيبتي أن تكون رعيتي بخير!

– نِعم الرجل أنتَ يا أمير المؤمنين ، واللهِ نعم الرجل!

– أَفي هذه عندك شيء بعد؟

– لا يا أمير المؤمنين

– نتابع إذًا ما نحن فيه

– نتابع على أمر أمير المؤمنين ، فأي خبر لديه الآن؟

– عن المرأة التي كانت تطبخ الحجارة لأولادها!

– امرأة تطبخ الحجارة!

– أجل ، امرأة تطبخ الحجارة

– فما خبرها يا أمير المؤمنين؟

– خرجتُ مع مولاي أسلم إلى حرَّةِ واقم ، فرأينا من بعيد نارًا

فقلتُ لأسلم : يا أسلم إني أرى ها هنا ركبًا قصُر بهم البرد والليل ، فانطلق بنا ننظر في أمرهم

فخرجنا نهرول إلى أن دنونا منهم ، فإذا بامرأةٍ ، ومعها صبيان ، وقِدرٌ منصوبة على النار ، وأولادها يتضاغون من الجوع

فقلتُ : السلام عليكم يا أهل الضوء ، وقد كرهتُ أن أقول يا أهل النار!

– يا لفقهك يا أمير المؤمنين كيف تنتقي عباراتك ، أما أنكَ لو لم تخبرني لمَ قلتَ لهم يا أهل الضوء ، لسألتكُ عنها ، فلم أفهم العلة من كلامك حتى بادرتَ بها شارحًا

– يا بُنيّ ، أما أننا لو انتقينا كلامنا ، لاسترحنا وأرحنا!

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، فما حصل بعد أن ألقيتَ سلامك عليهم؟

– قالت المرأة : وعليكم السلام

فقلتُ : أأدنو؟

فقالتْ : ادنُ بخير

فدنوتُ ، وسألتها : ما خبركم يا خالة؟

فقالتْ : قصُر بنا البرد والليل!

فقلتُ : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟

فقالت : من الجوع!

قلتُ : وما في القِدر؟

قالت : ماء وحجارة أُسكتهم به حتى يناموا! والله بيننا وبين عمر!

فقلتُ : يرحمكِ الله ، وما يدري عمر بكِ؟

فقالتْ : أيتولى أَمرنا ويغفل عنا!

– فما قلتَ لها يا أمير المؤمنين؟

– لم أقل شيئًا ، وما زدتُ على أن قلتُ لأسلمَ : انطلقْ بنا

– إلى أين يا أمير المؤمنين؟

– خرجنا نُهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرجتُ كبةَ من شحم ، وعدلاً من دقيق

وقلتُ لأسلم : احمله عليَّ

فقال : أنا أحمله عنكَ يا أمير المؤمنين

فقلتُ : أأنتَ تحمل عني وزري يوم القيامة؟ احمله عليّ لا أمَّ لك!

– فما كان بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– حمل عليَّ أسلم الشحم والدقيق ، وانطلقنا نهرول نحوها ، حتى إذا كنا عندها ألقيتُ ذلك عندها

وقلتُ لها : ذريّ عليّ وأنا أُحرك لكِ

فجعلتْ المرأة تذرُّ وأنا أحرك ، وجعلتُ أنفخ في النار ، فكان الدخان يخرج من تحت لحيتي! وما زلتُ على ذلك ، حتى طبختُ لهم ، ثم أنزلتُ القدر ، وجعلتُ أفرغُ في صحفةٍ وأقول للمرأةِ : أطعميهم وأنا أبرده لهم! ولم أزل على ذلك حتى شبعوا

فقالت لي : واللهِ لأنتَ أحقُّ بهذا الأمر من عمر بن الخطاب!

فقلتُ لها : فإذا كان الغد ، فأتي عمر فإني سأكلمه لأجلك!

– فما فعلتَ بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– ابتعدتُ أنا وأسلم إلى حيثُ أراهم ولا يروني ، وأخذتُ أنظر إليهم

فقال أسلمُ : امضِ بنا يا أمير المؤمنين ، فقد اشتد البرد

فقلتُ : لا ، حتى أَراهم يضحكون كما رأيتهم يبكون!

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– لما رقد الصغار ، مضيتُ وأسلمُ راجعين

– ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟

– ثم صليتُ الفجر بالناس ، وجعلتُ أبكي بكاءً شديدًا ، لما لا يغيب عني من قولها : أيتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟!

– فهل جاءتكَ كما طلبتَ منها؟

– أجل جاءتْ ، فاستأذنتْ في الدخول عليّ ، فأذنتُ لها ، ولما دخلتْ كانت لا تزال تحسبني الرجل الذي ساعدها بالأمس ولم تعرف بأني عمر بن الخطاب ، فبينما نحن كذلك ، إذ أقبل علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود

فقالا : السلام عليكَ يا أمير المؤمنين!

– فما فعلت المرأة عندها؟

– وضعت يدها على رأسها وقالت : واسوأتاه ، أشتمتُ أمير المؤمنين في وجهه؟!

فقلتُ لها : لا بأس عليكِ يرحمكِ الله ، فبكم تبيعيني ظلامتك؟

فقالَت : وهل ظلمتني قط؟! لمّا علمتَ حاجتي ما زلتَ عليّ حتى قضيتها ، وقد وجدتني وصغاري يتضاغون ، وما غادرتنا إلا وقد شبعوا!

فقلتُ : أبدًا ، حتى أشتريها منكِ

فطلبتُ رقعة فكتبتُ فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها ، بخمسةٍ وعشرين دينارًا ، فما تدّعي عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى فعمر منه بريء ، وشهد على ذلك علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود!

ثم أعطيتُ الكتاب إلى ابني عبدالله بن عمر

فقلتُ له : إذا أنا متُّ فاجعله في كفني ، ألقى به ربي!

– والله ما يعرف المرء ما يقول في حضرتك يا أمير المؤمنين ، وما أرى منكَ كل مرةٍ إلا عجبًا ، وإن خبرك لبعضه أعجب من بعض ، كأنكَ خُلقت من عدل لا من طين!

- أبعد أن رأيتَ مني تُزينُ لي نفسي؟
- ما رأيتُ منكِ إلا خيرًا
- وكيف ذاكَ؟
- يا أمير المؤمنين أنت تقسو على نفسكَ ، وتُحمّلها فوق طاقتها ، وما أنتَ نهاية المطاف إلا رجل من الناس ، تعلم أشياء وتغيب عنك أخرى ، وإنّ رعيتكَ قد انتشرت في البلاد ، وعددها قد زاد ، وما لرجل أن يحيط بكلّ شيءٍ علمًا ، وما عرفتَ قضيتَ ، وما غاب عنكَ ، فهذا حال الناس ، وما شأنكَ بما قد غاب عنكَ ، ولم تألُ جهدًا لتعلمه!
- وما تقول في قولها : أيتولى أمرنا ثم يغفل عنّا؟
- امرأة محتاجة ، وصاحب الحاجة أرعن يا أمير المؤمنين ، وكل امرئ يريد الخليفة لنفسه ، والخليفة للناس جميعًا
- ألمْ تكُنْ من الناس؟
- بلى قد كانت ، ولكنها كالجميع الذين قضيتَ حوائجهم لما علمتَ بها ، أو كالذين كتبتَ في أمرهم إلى الولاة ليقضوا حوائجهم ، دون أن تعلم حالهم!
- واللهِ لولا أني قصّرتُ ما قالت فيّ الذي قالتْ
- كلٌ ينظر للأمر من عين نفسه يا أمير المؤمنين ، هي تنظر إليكَ أنكَ قد قصرتَ لفرط حاجتها ، وأنتَ تصدقها في الذي قالت لفرط عدلك ، وقد اشتريت ظلامتها ، وما أراكَ أساسًا ظلمتها
- ما تزيدُ على أن تهوِّن عليّ الأمر
- واللهِ بل أصدُقك ، والأمر على ما قلتُ ، وما حدث كان لكَ لا عليكَ يا أمير المؤمنين!
- وكيف ذاك؟

- ألم تخرج في طلب ذي الحاجة؟
- بلى
- إذاً قصدت قضاء الحاجة قبل أن تدرك صاحبها ، فإذاً وليتَ ولم تغفل ، وإنما الغافل من لزم داره ، والتحف فراشه ، وقال ما لي وللناس ، ولكنك خرجتَ في البرد الذي كان ، تبحثُ عنها وعن أمثالها
- واللهِ ما لغير هذا خرجتُ
- ألم تَأتها إذ رأيتها وتسألها عما هي فيه
- بلى قد فعلتُ
- فإذاً ما غفلتَ ، ولو أن أمرها لم يعنكِ ما كنتَ لتقصدها وتنظر في أمرها ، فضلاً على أن تكون خرجتَ من داركَ أساسًا! ثم ألمْ تحملْ على نفسك طعامهم وكان مولاك أسلم معك ، ورفضتَ أن يحمل عنك

وقلتَ له زاجرًا : أأنتَ تحمل عني وزري يوم القيامة

- بلى ، فعلتُ هذا
- فأين الغفلة في رجلٍ تولى أمر قوم ، فيرى فيهم صاحب حاجة ، فيذهب بنفسه ليقضيها له ، وكانً في مساعديه من يقوم بهذا ، ولو أنكَ أوكلتَ أسلمَ للقيام به لقضيتَ ما عليك من أمرهم ، فكيف وقد قمت به بنفسك؟
- هذا لأنها من رعيتي لا من رعية أسلم!
- أما طهوتَ لهم بنفسك ، وكنتَ تبردُّ طعامهم؟
- بلى ، قد فعلتُ
- فما تريد الرعية أكثر من حاكم يطهو لجائعها بيده ، ويبرد له طعامه

- تريدُ أن لا تجوع أساسًا!

- سُنة الله في الناس يا أمير المؤمنين ، وما زال الناس في كل عصر منهم الصحيح والعليل ، والغني والفقير .

- صدقتَ يا بُنيّ

- وعلى افتراض أنكَ ظلمتها ، وما أراكَ فعلتَ ، ألمْ تشترِ منها ظلامتها وتجعل على هذا شهودًا

- كان مني هذا

- فلا تحمل نفسك فوق طاقتها يا أمير المؤمنين ، وارفقْ بها

- والله لقد سريّتَ عني يرحمك الله

- ما قلَتُ إلا ما رأيتُ يا أمير المؤمنين ، ولو رأيتُ غيره لقلته ، وحاشا مثلي أن يرى شرًا في مثلك

- هذا من حسن ظنك

- وأنتَ والله لحسن الظن أهل ، بوركتَ ما أعدلك وما أفقهكَ ، وما أنبلكَ

- بارك الله بكَ يا بنيّ

- انتهينا من هذه إذًا؟

- انتهينا يا أمير المؤمنين ، فهل عندكَ شيء من خبر الليل بعد تتكرم عليّ به؟

- هذا كل شيء

- إذًا نغلق باب تجوال الليل ونتابع مع أمير المؤمنين إن تكرّم في باب العدل الذي كنا قد بدأنا فيه

- نتابع على بركة الله ، فعن أي شيء أنتَ سائلي الآن؟

- عن خبر سمعته في ثوبٍ أعطيته أم سُليط رضي الله عنها

- فأيُّ شيء فيه أردتَ؟

- أردتُ لو تخبرني ما حدث يا أمير المؤمنين
- أما قلتَ أنكَ سمعته؟
- بلى ، قلتُ ، ولكني أحبُّ أن أسـمعـه منك على الشكل الذي كان
- قسمتُ مروطًا/أثواباً بين نساء أهل المدينة ، فبقي منها مرط جيّد

فسألتُ من حولي : لمن أعطي هذا؟

فقال بعضهم : أعطه بنت رسول الله ﷺ التي عندك! يريدون أم كلثوم بنت علي ، زوجتي .

فقلتُ : أم سُليط أحقُّ به

فقالوا : ولِمَ

قلتُ : فإنها كانت تُزفرُ/تملأ القربَ لنا يوم أُحد!

- إذًا أعطيته أم سليط!
- أجل فعلتُ
- ولِمَ لـمْ تأخـذ بقـول من قـال : أعطه بنت رسـول الله ﷺ التي عندك؟
- للسبب الذي قلتُ : أم سليط أحق به ، فإنها كـانت تزفـرُ القرب لنا يوم أحد
- أما قلتَ لي آنفًا يا أمير المؤمنين أنك فضّلتَ آل رسول الله ﷺ في العطاء على بقية الناس لقربهم منه؟
- بلى قد قلتُ هذا آنفًا
- فما لي أراكَ تُفضل الناس عليهم الآن؟
- ذاك أنّ أم كلثوم بنت عليٍّ الآن زوجتي ، ونفقتها وكسوتها عليّ ، فلو أعطيتها فإنما أعطيها ما كان يجب أن أحضره لها بنفسي ، فأكون أنا الذي أخذتُ حقيقة لا هي

– ولكنها زوجتك ، وكان هذا المرط ليفرحها

– أفرحها من مالي لا من مال المسلمين ، ثم ما لِيَ أراكَ تستصغر أم سليط رضي الله عنها؟

– معاذ الله يا أمير المؤمنين ، ولكني أستفسر منكَ عن السبب الذي جعلكَ تفضلها على زوجتك .

– لأنها من أهل السابقة ، بايعتْ رسول الله ﷺ ، ويومَ كانتْ تزفرُ لنا القرب في أُحد لم تكن أم كلثوم قد وُلدت بعد! فأي عدل هذا أن أمنع أهل السابقة لأعطي أهل بيتي ، الذين نفقتهم وكسوتهم عليَّ

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، واغفر لي بما راجعتك فيه ، فكلُّ همي كان هذه المرة ، ككل مرّة راجعتكُ فيها أيضًا ، إلا أن أعلم الذي جعلكَ تفعلُ ما فعلتَ ، فأفهم منك كيف تنظر للأمر وكيف تقدّره ، ثم تقضي فيه!

– لا تثريب عليك يا بُنيّ ، والآن أخبرني انتهينا من هذا ، أم ما زال عندك شيء؟

– انتهينا يا أمير المؤمنين ، وقد بان لي ما أردتُ

– فإذاً أحدثكَ أنا شيئًا قريبًا من هذا ، لتعرف طريقتي في الحكم ، وإنزال أهل السابقة منازلهم ، وإكرام أهلهم من بعدهم ، وفاءً لما كان من ذويهم فيما مضى

– حبذا لو تفعل يا أمير المؤمنين

– فإني قائل فاسمع

– قُل تجد سامعًا مصغيًا

– خرجتُ ومولاي أسلم إلى السوق ، فلحقتني امرأة شابة

وقالت : يا أمير المؤمنين ، هلكَ زوجي ، وترك صبية صغارًا ، ووالله ما يُنضجون كراعًا ، ولا لهم زرع ولا ضرع ، وخشيتُ أن تأكلهم الضبع ، وأنا بنتُ خفاف بن إيماء الغفاريّ ، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ

فقلتُ : مرحبًا بنسب قريب ، انتظريني هنا

- فإلى أين ذهبتَ يا أمير المؤمنين؟

- إلى داري

- فما فعلتَ هناك؟

- أخذتُ بعيرًا كان مربوطًا هناك ، وحملتُ عليه طعامًا وثيابًا ، وجعلتُ مع الطعام والثياب نفقةً ، ثم اقتدتُ البعير إليها ، حتى إذا جئتها ناولتها خطام البعير

وقلتُ : اقتاديه ، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير

فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، أكثرتَ لها!

فقلتُ له : ثكلتك أمك ، واللهِ إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه ، ثم أصبحنا نستفيء سُهمًا لهما فيه!

- يا للوفاء يا أمير المؤمنين ، يا للوفاء

- أعرفتَ الآن كيف ينظر عمر للأمر؟

- عرفتُ يا أمير المؤمنين ، وقد كنتَ في عيني كبيرًا قبل هذا ، فما ازددتُ لكَ إلا أجلالاً وتوقيرًا

- بارك الله بك وما أريد أن تعلم إلا إني ما حرمتُ أهلي شيئًا إلا بالعدل ، وما أعطيتهم إلا بالعدل .

- والله ما علمتُ عنكَ غير هذا يا أمير المؤمنين

- فما دام حديثٌ قد فُتح ، وكلام قد جرى ، فاسمع مني شيئًا من هذا

– ما من شيء أحبُّ إليّ من قولك : اسمع مني ، فهاتِ ما عندكَ يا أمير المؤمنين .

– بينما أمشي في طريق من طرق المدينة ، فإذا بي بصبيّة تطيش على وجه الأرض ، تقوم مرة وتقع أخرى!

فقلتُ : يا حوبتها ، يا بؤسها ، من يعرف هذه منكم؟

فقال لي ابني عبدالله : أما تعرفها يا أمير المؤمنين؟

قلتُ : لا ، فمن هي؟

قال : هذه إحدى بناتك!

قلتُ : وأيُّ بناتي هذه؟

فقال : هذه فلانة بنت عبدالله بن عمر!

فقلتُ له : ويحكَ ما صيّرها إلى ما أرى؟

فقال : منعكَ لنا ما عندك!

فقلتُ : ومنعي ما عندي يمنعك أن تطلب لبناتك ما يكسب القوم لبناتهم؟

والله ما لكَ عندي غير سهمكَ من فيء المسلمين ، وسعكَ أو عجزكَ وهذا كتاب الله بيني وبينكم!

– ولكنها حفيدتك يا أمير المؤمنين!

– حفيدتي نفقتها من مال أبيها ، وإن شئتُ فمن مالي ، أما مال المسلمين فقد أصاب أبوها منه ما له فيه ، ولستُ أزيده على ما أعطي الناس ، ولو كان ابن أمير المؤمنين!

– ألم تكن تعطي المحتاج؟

– بلى كنتُ أفعل

– فقد كان ابنكَ وقتذاك محتاجًا

- ولكنه كان قادرًا على أن يكسب لأهله ، أكلما جاءني رجل صحيح سليم ، لا مانع له من الكسب ، وقال أغثني ، أعطيناه من مال المسلمين ، وما فيه غير أنه لم يشأ أن يعمل كما يعمل الناس؟

- صدقتَ يا أمير المؤمنين

- انتهينا من هذا؟

- انتهينا منه ، وما زال عندي غيره

- فما هو؟

- ما خبرك مع النعمان بن نضلة؟

- أي خبر تريد؟

- خبر عزلك إياه لشعره

- حسنًا ، سأخبركَ بما كان مني ومنه

- يمن عليَّ أمير المؤمنين إذ يفعل

- استعملتُ النعمان بن نضلة على ميسان ، وكان يقول الشعر ، وكان مما قال يومًا :

ألا هل أتى الحسناءَ أنَّ حليلها
بميسان يُسقى في زجاجٍ وحنتمِ
إذا شئتُ غنتني دهاقين قرية
ورقاصة تجثو على كلِّ منسمِ
فإن كنتَ ندماني فبالأكبرِ اسقني
ولا تسقني بالأصغرِ المتثلِّمِ
لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوؤه
تنادمنا بالجوسقِ المتهدمِ

فلما بلغني شعره ، قلتُ : نعم ، إنه والله ليسوؤني ، فمن لقيه منكم فليخبره أني قد عزلته! وإني باعثٌ إليه بكتابٍ يصله

– فما حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– قدِمَ عليه رجلٌ من قومه فأخبره بعزله ، ثم ما لبثَ مليًا حتى وصله كتابي في عزله

– فما كتبتَ له فيه يا أمير المؤمنين؟

– كتبتُ له أقول :

بسم الله الرحمن الرحيم : «حم ، تنزيل الكتاب من العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذي الطول ، لا إله إلا هو وإليه المصير»

أما بعد :

فقد بلغني قولك :

لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوؤه
تنادمنا بالجوسقِ المتهدمِ

وأيمُ اللهِ إنه ليسوؤني! وقد عزلتُك

– فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– قدمَ عليَّ وقال : يا أمير المؤمنين ما شربتُ الخمر قط ، وما ذاك الشعر إلا شيءٌ فطحَ على اللسان

فقلتُ : أظنُّ ذلك ، ولكن لا تلي لي عملاً أبدًا!

– فلمَ يا أمير المؤمنين ، وقد غلب على ظنك أنه ما شربها أبدًا؟

– ما أحبُّ أن يكون في ولايتي من يمدح الخمر شعرًا!

– ولكنه كلام شعراء ليس إلا

– وإن يكن ، ثم إن الناس تنظر في ولاتها ، فإن رتعوا ، رتعوا معهم ، وإن كفّوا ، كفوا معهم ، أفيشربها أحد من الناس حتى إذا جاؤوا به إليّ ، قال : هذا واليك يقول كذا وكذا . . لا واللهِ لا يلي لي عملاً أبدًا ، وقد قال ما قال

– صدقتَ يا أمير المؤمنين

– فعن أي شيء أنتَ سائلي الآن؟

– عن قولكَ : لا تلي لي عملاً أبداً

– وما به؟

– أكان لكَ شيء مثله مع غير النعمان بن نضلة؟

– أجل كان

– فما الخبر يا أمير المؤمنين؟

– بعثتُ جيشًا وجعلتُ على الجيش أميرًا ، فانتهوا إلى نهرٍ ليس عليه جسر ، فقال أمير ذلك الجيش لرجل من أصحابه : انزلْ وانظر في مخاضةٍ نجوز فيها!

وكان البرد في ذلك اليوم شديدًا

فقال الرجل لأميره : إني أخاف إن دخلتُ الماء أن أموت

فأكرهه الأمير على الدخول فيه

فدخل وهو يقول : واعمراه ، واعمراه

ثم ما لبثَ أن مات ، فبلغني ذلكَ وأنا في سوق المدينة

فقلتُ : يا لبيكاه!

ثم بعثتُ إلى أمير ذلك الجيش فعزلته

وقلتُ له : لولا أن يكون سنة بعدي لقتلتك به ، ولكن لا تعمل لي عملاً أبدًا!

- ولكن الأمير ما قصد إلا ما فيه صلاح المسلمين ، وما أكره الرجل على النزول إلا لمصلحة الجيش ، وهو يريد أن يرى طريقًا يسيرًا حتى لا يهلكَ الجيش .

- هذا صحيح ، ولكن ليس له أن يُلقي بالمسلمين إلى التهلكة ، وإن حفظ حياة المسلمين أحبُّ إليَّ من فتح البلدان

- فلمَ هممتَ أن تقتله به ، هل قتله بسيفه؟

- لم يقتله بسيفه ، وإنما قتله بأمره المتسرع ذاك ، ووالله لولا أن تكون سنّة ، كلما أعطى أميرٌ أمرًا لأحد كان فيه هلاكه ، أو شبهة هلاك

لقال الناس : اقتلوا الأمير فهكذا فعل عمر!

لقتلته ، ولكن الحرب مخاطر وأهوال ، وما أردتُ أن يتوسع الناس في هذا ، فينشأ الأمراء على الجبن والحذر ، فأكون قد قيدتهم ، ويعتاد الجنود على التمرد ورفض الأوامر

- سبحان من فقّهك وعلّمكَ يا أمير المؤمنين ، لا تنظر للحاضر فقط وإنما للمستقبل أيضًا

- لا يكون الأمير أميرًا إذا قضى للحاضر ونسيَ الغائب

- صدقتَ يا أمير المؤمنين

- فهل انتهينا من هذه؟

- أجل انتهينا

- فما عندك بعدها؟

- وددتُ لو يحدثني أمير المؤمنين عن المرأة التي جاءت شاكية عامله على الولاة محمد بن سلمة؟

- لكَ هذا ، فاسمع مني أُبيّن لك الذي كان

- كلي سمع يا أمير المؤمنين

- كنتُ أقيلُ في ظل شجرة ، إذ جاءني جماعة من الناس ، يسألني بعضهم ، ويشكو لي بعضهم الآخر ، على ما يكون بين الراعي والرعية ، فبينما نحن كذلك ، إذ جاءت أعرابية تريدني في أمر لها ، فتوسمتْ الناس ، فعرفت من اجتماعهم أنهم عندي ، فجاءتني

وقالت : إني امرأة مسكينة ، ولي بنون ، وأنَّ أمير المؤمنين كان بعثَ محمد بن سلمة ساعيًا ، فلم يعطنا ، فلعلكَ يرحمك الله ، أن تشفع لنا عنده!

- تطلبُ منكَ أن تشفع لها عند عاملك؟! فما كان منكَ يا أمير المؤمنين؟

- صحتُ : يا يرفأ ، ادعُ لي محمد بن سلمة

فقالت الأعرابية : إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه

قلتُ إنه سيفعل إن شاء الله

- فما حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- جاءه يرفأ ، وقال له : أجب أمير المؤمنين

فجاء ، حتى وقف عندي وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين

فاستحيت المرأة

فقلتُ له : واللهِ ما آلو أن أختار خياركم ، فكيف أنتَ قائل إذا سألكَ الله عن هذه؟

- فماذا كان جواب محمد بن سلمة؟

- لم يقل شيئًا ، وإنما ذرفت عيناه ، ولقد كان واللهِ نعمَ العامل الذي وليتُ

- فما قلت أنت يا أمير المؤمنين؟

– قلتُ : إن الله بعثَ إلينا نبيه محمدًا ﷺ فصدّقناه ، واتّبعناه ، ثم استخلف الله أبا بكر ، فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آلُ أن أختار خياركم ، فأدِّ إليها صدقة العام ، وعام الأول ، وما أدري لعلي لا أبعثك!

ثم دعوتُ لها بجملٍ ، وأعطيتها دقيقًا ، وزيتًا

وقلتُ : خذي هذا حتّى تلحقينا بخيبر ، فإنا نريدها

– فهل لحقتْ بكَ إلى خيبر؟

– أجل ، أتت خيبرًا ، فدعوتُ لها بجملين آخرين

وقلتُ : خذي هذا ، فإنّ فيه بلاغًا حتى يأتيكم محمد ، فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام ، وعام أوّل

– إذًا قررتَ أن تُبقَي على محمد بن سلمة في منصبه؟

– أجل ، فعلتُ هذا ، فقد كان أمينًا صادقًا ، وندر في الناس أن يكون مثله كما أخبرتك!

– إذًا لمَ قلتَ له : لعلي لا أبعثكُ؟

– هذا من محاسبتي ولاتي ، وإن كنتَ رأيتَ مني شدة عليه ، فوالله لقد كنتُ على نفسي أشد ، أما رأيتني كيف كنتُ أحاسبُ نفسي فيما أخبرتكُ آنفًا من حديث الليل وتفقد الرعية؟

– بلى رأيتُ ، وحسنًا فعلتَ إذ أبقيته في منصبه

– وما ليَ لا أفعل ، جزاه الله خيرًا على ما كان منه

– وجزاكَ الله خيرًا يا أمير المؤمنين

– اللهم آمين ، ولك مثله يا بُنيّ ، أنتهينا من هذه؟

– أجل يا أمير المؤمنين ، انتهينا

– فما عندك في العدل بعد؟

– ما خبر الناقة التي ذبحتها لأصحابك ، فسُرَّ العباس بن عبدالمطلب منكَ لأجلها؟

- كانت ناقة من إبل الصدقة ، فانكسرتْ ، ولم يكن إلى علاجها سبيل ، فما كان مني إلا أن نحرتها ، ودعوتُ الناس إليها

فقال لي العباس : لو كنتَ تصنعُ بنا هكذا!

فقلتُ : إنا والله ما وجدنا إلى هذا المالِ سبيلاً إلا أن يؤخذ من حق ، فيوضع في حقٍّ ، ولا يُمنع لحق!

- فما قصدتَ بقولك يا أمير المؤمنين؟

- قصدتُ به أنه ليس من حقي أن أذبح من إبل الصدقة لخاصتي وصحبي من دون الناس ، فما كان لهم أعطيتهم إياه دون مكرمة ، وما لم يكن لهم منعتهم إياه كما منعتُ نفسي وأهلي منه

- ولكنه ليس سوى بعير يا أمير المؤمنين

- ولو كانت تمرة لا تحل لهم ما أعطيتهم هي ، ولو كان عندي قنطار لهم لما منعتهم إياه

- أمير المؤمنين أعلم بهذا منّي

- ليس الأمر كله للعلم يا بُني ، فكل الناس يعلم ، وإنما الورع والخشية ، وهذا الذي رأيتُ أن أكون عليه ما كنتُ في الناس ، ولعلكَ نظرتَ في البعير فاستصغرتَ شأنه ، ولربما قلتَ : يحفلُ أمير المؤمنين ببعير ، فيمنع منه أصحابه وخاصته ، ولو لا أن الناقة كُسرتْ ما ذبحها وأولم عليها ، وإني لأقول لك : واللهِ لولا أنها كُسرتْ ما فعلتُ الذي فعلتُ! ولقد كان مني في شأن بعير أعجب من هذا!

- وما ذاك يا أمير المؤمنين؟

- في يوم صائف ، اشتدت فيه وطأة الحرّ ، وأخذ لهيب الشمس يصبُّ سعيره على الرمال ، جاء وفدٌ من العراق يتقدمهم الأحنف بن قيسٍ يطلبونني ، فوجدوني قد طرحتُ عمامتي ،

وطوقتُ وسطي بعباءتي أُطبب بعيرًا من إبل الصدقة ، فلما رأيتُ الأحنف ، قلت : يا أحنف ، ضع ثيابك ، وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإن فيه حقَّ اليتيم والأرملة والمسكين!

فقال رجلٌ من القوم ، وقد أذهله ما رأى : يغفرُ الله لكَ يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبدًا من عبيد الصدقة فيكفيكَ هذا؟

قلتُ : وأيُّ عبدٍ هو أعبد مني ومن الأحنف؟! إنه من وليَّ أمر المسلمين فهو عبدٌ المسلمين ، يجب عليه لهم مثل ما يجب على العبد لسيده من النصح وأداء الأمانة!

- ما كذبَ الرجلُ واللهِ يا أمير المؤمنين

- ما كذب ، ولكنه ما نصح ، فقال : مدّ الله أمير المؤمنين بالقوة ليقوم بأمر رعيته ، إنسهم ودوابهم

- ولكن لو أوكلتَ أمر البعير إلى رجلٍ من أهل الصدقة ، وانشغلتَ أنتَ بأمر الناس ، فأمر البعير يقوم به من دونك ، ولكن أمر الناس لا يقوم به إلا أنتَ!

- وهل بلغكَ أني تركتُ أمر الناس وانشغلتُ بأمر البعير؟

- لا والله

- فعلامَ قلتَ الذي قلت؟

- إنما قلتُ رأيًا يا أمير المؤمنين ، فلا تؤاخذني

- لا عليكَ يا بُنيّ ، ولكن اعلم أني ساعتها وجدتُ في نفسي نشاطًا ، وفي وقتي فراغًا ، فقمتُ بحق البعير لحقّ الناس الذين لهم حق فيه

- ولِمَ لمْ تذبحه كما فعلتَ من قبل؟

- إنما فعلتُ من قبل لأنه لم يكن من سبيل للعلاج ، أما الآن فهناك سبيل ، فلمَ أذبحه لمن يغشون مجلسي ، بدل أن أداويه فيبقى للأرملة والفقير والمسكين؟

- صدقتَ يا أمير المؤمنين
- وكان مني في شأن إبل الصدقة غير هذا!
- وما ذاك يا أمير المؤمنين؟
- أفلتَ بعير من إبل الصدقة ، فخرجتُ أعدو خلفه في طرقات المدينة ، فلقيني علي بن أبي طالب
فقال : إلى أين يا أمير المؤمنين؟
فقلتُ : بعيرٌ أفلتَ من إبل الصدقة ، وأنا أريده!
فقلّب عليٌّ يديه وقال : أتعبتَ من بعدكَ يا أمير المؤمنين
فقلتُ : والذي بعث محمدًا بالحق ، لو أن عنزًا ذهبتْ بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة!
- أمير المؤمنين يعدو خلف بعير أفلتَ!
- وما عليه ألا يفعل ، ألستُ حافظ مال الناس للناس؟
- بلى ، لكن لو فعله غيرك!
- حارس الشيء أولى باللحاق به إذا أفلتَ منه!
- ما أعجبَ أمركَ يا أمير المؤمنين
- وما ذاك؟
- أقصدُ ما تحمّلُ نفسك من أعباءٍ فوق ما تطيق
- يا بُنيّ إن الله أوكل إليَّ أمرًا ، وهو ليس بتاركي فردًا إلا أن يُعينني عليه ، وقد علم خشيتي فيه ، وحرصي عليه
- قد كنتَ والله حريصًا أن لا يفلت منك أمر ولا تضيع رعية
- أفرغنا من هذا؟
- ما لم يكن عند أمير المؤمنين شيء بعد ، فقد فرغنا
- ليس عندي فيه شيء ، فما عندكَ أنتَ بعد؟

– وددتُ لو تحدثني بخبرك مع سلمان الفارسيّ يوم استوقفكَ على المنبر في شأن ثوب!

– أفعلُ إن شاء الله ، فاسمع مني أخبرك بالذي كان

– قُل تجد سامعًا مصغيًا يا أمير المؤمنين

– جاءني أثوابٌ كثيرة جديدة ، فقسمتها بين الناس ، فأصاب كل رجلٍ ثوبًا ، وأخذتُ ثوبًا كما أعطيتُ المسلمين ، فما أنا إلا رجلٌ منهم

– الحمد لله أنكَ لم تحرم نفسكَ منه أيضًا يا أمير المؤمنين

– يا لكثرة ما تُزين لعمر نفسه

– ما أقول إلا الحق ، والله لو أنكَ فعلتَ ما استغربتُ

– لا لم أفعل ، ولكن لو قصرت الثياب على رجل واحد ، ثق تمامًا أنه لكان أنا!

– لهذا بالضبط قلتُ الذي قلتُ

– دعنا نكمل ما كنا فيه

– على أمر أمير المؤمنين

– فلما كانت الجمعة ، صعدتُ المنبر ، وعليَّ حُلّة ، والحلة ثوبان

فقلتُ : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا

فقال سلمان : لا نسمعُ ولا نطيع!

فقلتُ مستغربًا : ولمَ يا أبا عبدالله؟

فقال : إنكَ قسمتَ علينا ثوبًا ، وأخذتَ ثوبين!

فقلتُ : لا تعجل يا أبا عبدالله

ثم ناديتُ في المسجد : يا عبدالله بن عمر

فقال : لبيك يا أمير المؤمنين

فقلتُ : نشدتكُ الله ، الثوب الذي ائتزرتُ به أهو ثوبك؟

قال : اللهم نعم

فقال سلمان : الآن قُل نسمع ، وأمُرْ نطعْ!

– وما شأن سلمان أن يُراجع أمير المؤمنين في ثوب؟

– ولم لا يفعل ، أليس رجلاً من المسلمين؟

– بلى

– أليس مال المسلمين للمسلمين ، وكلهم فيه شركاء ، وليس لأمير المؤمنين منه غير سهمه في المسلمين؟

– بلى

– إذًا وجبَ أن تقول : يا لسلمان ما أحرصه على مال المسلمين ، بدل أن تقول كيف له أن يراجع أمير المؤمنين

– أقصد ، إن كان الذي وقف إليه حقًا ، وهو كذلك ، فكان أولى أن يُراجع أمير المؤمنين على غير مرأى من النّاس ، فما يستحق الأمر أن يُساءل فيه أمير المؤمنين وهو على المنبر

– واللهِ إن مساءلته لي على المنبر أحبّ إليّ من مساءلته لي بيني وبينه!

– ولِمَ يا أمير المؤمنين؟

– كي يتعلم الناس أن يطلبوا حقوقهم ، ويحاسبوا ولاتهم ، هذا أولاً ، ولربما وقع في قلب رجل آخر ما وقع في قلب سلمان ، هذا ثانيًا ، فيكون هذا جلاء لما في قلوب الجميع ، ولو راجعني بيني وبينه ، وبينتُ له الأمر ، فما استبان لمن كان في قلبه كالذي في قلب سلمان ، ولمضى يتهم أمير المؤمنين في ثوب لم يجرؤ أن يسأله عنه!

– ما يذهلني فيك يا أمير المؤمنين أنكَ تقبل الحق على نفسك ، كأن ليس لنفسكَ حظ منك!

- أخطأتَ يا بُنيّ ، وما كنتُ أحسبكُ تقولها
- وما ذاك يا أمير المؤمنين؟
- إنما أنزلُ على الحق لحظ نفسي ، فلأنها عزيزة عليَّ أُنزلها منزل الحق ، وأحملها عليه حملاً ، صدقني لا يحمل نفسه على الباطل إلا من هانت نفسه عنده وإن حَسِبَ أنه بالغَيِّ يكرمها ، فما تُكرمُ النفسُ بغير موضع الحق ، وإن أصغر الناس من استكبر ، وما أنزل إبليسُ من السماء إلا الكبر!
- صدقتَ يا أمير المؤمنين ، وما أردتُ في قولي الأول إلا التعبير عن إعجابي بك
- وما أردتُ بجوابي إلا أن تفهم أن العزة في موطن الحق ولو غُلبتَ ، وأن الذّلة في موضع الباطل ولو غَلَبَت!
- حفظتُ هذا من أمير المؤمنين ، ولن يغيب عن بالي إن شاء الله
- فهل فرغنا من هذه
- فرغنا يا أمير المؤمنين
- فما عندكَ بعد؟
- وددتُ لو تخبرني بخبركَ مع الهرمزان!
- فأي شيء في خبره تريد
- ما حدث من لحظة اقتياده حتى إعماله الحيلة للنجاة ، فهذا ما قرأته ، وإني أطمع أن أسمع الخبر من صاحبه ، فلعل شيئًا آخر كان!
- حسنًا سأخبرك بالذي كان ، فاسمع مني يرحمك الله
- سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين
- كان الهرمزان قائدًا بارزًا في جيوش فارس ، فحاصره المسلمون ، ولمّا رأى أن لا خلاص ، طلب منهم عهدًا بالأمان فأعطوه ، وما كان طلبه ذاك إلا خدعة حرب ، فما لبث أن غدر ،

وقتل خلقًا كثيراً من المسلمين ، هنا أجمع المسلمون أمرهم ، واستعانوا بالله عليه ، فصبرهم الله تعالى وثبتهم ، ومنّ عليهم بهزيمة الفرس وأسر الهرمزان!

ثم إن قادة الجيش هناك رأوا أن يسيروا به إليَّ في المدينة ، لأرى رأيي فيه ، وكان ممن اقتاده أنس بن مالك ، والمغيرة بن شعبة ، والأحنف بن قيس .

فلما اقتربوا به من المدينة ألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ، وتاجه ، وكان مكللاً بالياقوت ، وأساوره وعقوده الذهبية ، وسيفه المذهب ، ليدخل المدينة في هذه الهيئة فيرى الناس هذا العزّ وهذه العظمة كيف سقطت في أيدي المسلمين ، وكيف أعزّ الله المؤمنين وأذلّ هؤلاء!

- فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- لما دخلوا به المدينة وهو على الحال الذي أخبرتكَ ، طلبوني في بيتي فلم يجدوني ، فسألوا عني فقيل لهم : هو في المسجد قد جلس لوفدٍ جاء من الكوفة! وبينما هم يسيرون ناحية المسجد إذ لقيهم بعضُ الصبيان في الطريق

فقالوا لهم : تريدون أمير المؤمنين؟

قالوا : نعم نريده

فقالوا لهم : هو نائم في المسجد

فأكمل الوفد طريقه إلى المسجد ، وتجمع الناس لما رأوا الهرمزان في هذه الهيئة ليشهدوا لقائي به .

ولما دخلوا المسجد ، بحثوا عني يمينًا ويسارًا ، فرأوني نائمًا في زاوية من زوايا المسجد ، والدرة معلقة بيدي ، ولا حارس ولا حاجب عندي كما تعلم

- فما حدث بعدها يا أمير المؤمنين؟

- دخل الهرمزان المسجد ، وتأهب لمقابلة الرجل الذي أسقط عروش قيصر ، والذي أرسلَ جيوشًا مخرتْ فارس من أدناها إلى أعلاها! كان يريد أن يرى الرجل الذي يضع خططًا للحرب وهو في المدينة لا يستطيع أمراء وقادة الفرس وضعها ، ولا مجابهتها وهم في أرض المعركة ، وعقر دارهم ، وقد كنتُ أطلب من المسلمين أن يصفوا لي فارس كأني أراها رأي العين ، لهذا سددني الله في الذي دبرتُ لهم

فقال الهرمزان : أين عمر؟

قالوا : هو ذا

فذُهل مما رأى ، لباسي متواضع ، وليس عندي حارس ولا حاجب ، وعهده بيزدجرد ملك فارس إذا أراد الرجل أن يدخل عليه يجب أن يُبقي على مسافة بينه وبين ملكه فلا يتخطاها ، وكان أقرب من يقف من يزردجرد يقف على بعد خمسة أذرع ، وكانوا هؤلاء هم كبار الأساورة والأمراء ، وعلى بعد عشرة أذرع يقف كبار قادة الجيش والعلماء ، وعلى بعد خمسة عشر ذراعًا يقف المهرجون والمطربون وأصحاب اللهو! وإذا أراد أحد مقابلته فليس له أن يتجاوز هذه المسافة ، وكان الداخل على يزردجرد يرتمي على الأرض ولا يتكلم حتى يأذن له كسرى بالكلام ، وإذا تكلم أحد مع يزرجرد لا يذكر اسمه أبدًا من التعظيم ، وإذا دخل الرجل منهم عليه وضع على فمه غلالة من القماش الأبيض حتى لا تُلوث أنفاسه مجلس يزدجر!

- فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- جعل الناس يخفضون أصواتهم كي لا أستيقظ

وجعل الهرمزان يقول : أين حُجّابه ، وأين حرسه

فقالوا له : ليس له حُجّاب ولا حرس

فقال : ليس له حارس ولا حاجب ، ينبغي أن يكون نبيًا!

فقالوا : لا ، بل يعمل عمل الأنبياء!

ثم استيقظتُ من هذه الجلبة ، واستويتُ جالسًا ، فلما رأيته

قلت : الهرمزان؟

قالوا : نعم

قلتُ : أعوذ بالله من النار! الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وأتباعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدي نبيكم ، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غدارة

فقالوا : هذا ملك الأهواز فكلمه

قلتُ : لا ، حتى لا يبقى عليه من حليته شيء

ففعلوا ، وألبسوه ثوبًا صفيقًا ، وعادوا به

فقلت : يا هرمزان ، كيف رأيتَ وبال الغدر ، وعاقبة أمر الله؟!

فقال : يا عمر ، إنّا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم ، إذ لم يكن الله معنا ولا معكم ، فلما كان الله معكم غلبتمونا!

فقلتُ : إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا!

ثم قلتُ مجددًا : ما عذرك وما حجتك في انتقاضك العهد مرةً بعد مرة؟

فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك

فقلتُ : لا تخف ذلك

فقال : فإني أريدُ الماء

فقلتُ : اسقوه

فلما أخذ الكأس ، جعلت يده ترتعش

ثم قال : أخافُ أن أُقتل وأنا أشرب

فقلتُ : لا بأس عليكَ حتى تشربه

فما كان منه إلا أن أكفأه/سكبه على الأرض

فقلتُ : أعيدوه عليه ، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش!

فقال : لا حاجة لي في الماء ، إنما أردتُ أن أستأمن به

فقلتُ : إني قاتلك!

فقال : إنكَ قد أمنتني

فقلتُ له : كذبتَ

فقال أنس : بل صدقَ يا أمير المؤمنين

فقلتُ لأنس : ويحكَ يا أنس! أنا أؤمن من قتل مجزأة والبراء؟ والله لتأتينَّ بمخرجٍ أو لأعاقبنّك!

فقال : قلتَ له لا بأس عليك حتى تخبرني ، ولا بأس عليكَ حتى تشربه!

وقال جماعة من الحاضرين كما قال أنس

فقلتُ للهرمزان : خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم

فأسلمَ الهرمزان ، وسكنَ المدينة

– أتمنع عنه القتل لكلمة قلتها له ، وما في بالك إلا أن لا يشرب وهو خائف ، ألهذه الدرجة تحفظ كلمتك وعهدك؟

– إن كنتَ تعجب من أمر نزولي عند عهدي ، فلتكن من أمر أنس أشدَّ عجبًا

– وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟

– إن الهرمزان كان قد قتل أخاه ، وإنه لأولى مني أن يُطالب بقتل الهرمزان ، ولكنه لما رأى الذي كان بيني وبين الهرمزان آثر أن يُوفى بالعهد ، ولو في هذا نجاة قاتل أخيه!

– صدقتَ يا أمير المؤمنين ، ولكن كان بإمكانك أن تقتله وإن اعترض أنس ، فإنَّ رأيَ أنس في معرض المشورة لا في معرض الأمر ، والأمر إليك ، ولكَ أن لا تنزل على رأي ترى خلافه

– بدا لي الصواب فيما قاله أنس وأصحابه

– وما يدريك أن الهرمزان أسلم خوفًا من السيف

– نُهينا أن نشقَّ على قلوب الناس ، أما بلغكَ ما كان من أسامة بن زيد زمن رسول الله ﷺ ؟

– وما الذي كان منه؟

– بعث رسول الله ﷺ بعثًا إلى الحرقة من جهينة ، فصبحوا القوم على مياههم ، فتفرقوا ذعرًا ، فلحق أسامة بن زيد ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشياه قال : لا إله إلا الله!

فكفَّ الأنصاريّ عنه ، وطعنه أسامة برمحه حتى قتله!

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ، بلغه الذي كان من خبر أسامة

فقال له : يا أسامة ، أفقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟

فقال أسامة : يا رسول الله إنما قالها متعوذًا من السيف

فقال رسول الله ﷺ : أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا!

فلم يزل رسول الله ﷺ يردد : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله!

حتى تمنى أسامة أنه لم يكن قد أسلم قبل ذلك اليوم!

– ألهذه الدرجة يا أمير المؤمنين؟

– وأكثر يا بُنيّ

– وما ذاك؟

– قال المقداد بن الأسود لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أرأيتَ إن لقيتُ رجلاً من الكفار فاقتتلنا ، فضربَ إحدى يديّ بالسيف ، فقطعها ، ثم لاذ بشجرة ، فقال : أسلمتُ لله! أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟

فقال له : لا تقتله

فقال : يا رسول الله قطع إحدى يديّ ، ثم قال ذلك بعدما قطعها؟

فقال له : لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلتكَ قبل أن تقتله ، وإنكَ بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال .

– إذًا هو شرع الله يا أمير المؤمنين

– أعهدتني أقضي بغيره؟

– لا ، وإنما أستزيدُ فهمًا من أمير المؤمنين

– ثمَّ إنَّ الرجل قد أسلم ، وحسنُ إسلامه على ما كنتُ أرى ، وما ارتدّ بعد ذلك طرفة عين

– أمير المؤمنين أفقه في هذا مني وأدرى

– فما عندكَ بعد؟

– هذا كل الذي أردتُ أن أسألكَ عنه يا أمير المؤمنين في باب العدل

– انتهينا إذًا؟

– انتهينا بفضل الله ، ثم بكرم أمير المؤمنين أن صبر عليَّ كل هذا .

– دعكَ من هذا الآن ، وأخبرني ماذا عندك بعد وقد أغلقنا للتو بابًا واسعًا في العدل كنا قد فتحناه فأوغلنا فيه؟

– أطمعُ بكرم أمير المؤمنين أن أسأله في بعض أمره

– أي أمري تريدُ السؤال عنه؟

– تعلم يا أمير المؤمنين أنه لا سلامة من النّاس ، وأنّ ألسنتهم كالسياط وأحيانًا كالسيوف ، وأنه لو نجا منهم أحد لكان أنبياء الله عليهم السلام أولى الناس بالنجاة ، ولكنك تعرف كل ما قيل ، وفي اتهام قريش للنبي ﷺ بالسحر والجنون عزاء لكل من أُلصقتْ به تهمة هو بريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما السلام ، وقد نالكَ البعضُ بألسنتهم ، ذاك أنه لا يُرمى بالحجارة إلا الشجر المثمر ، ولأنكَ غابة بلغ ثمرها وظلها أرجاء الأرض لا شجرة واحدة فحسب ، لا أستغربُ بعض الذي قيل عنكَ وفيكَ ، وإني واللهِ لأعلم أن مثلكَ أرفع مما قيل فيه ، وأن نباح الكلاب لا يضرُّ السحَاب ، ولكني أحبُّ أن أسمع منك .

– لا أقول إلا ما قال إبراهيم عليه السلام يوم أُلقي في النار : حسبي الله ونعم الوكيل ، ولكن لا ضير أن أسمع منكَ الذي قالوا ، وأخبركَ بصحته أو كذبه ، فهاتِ ما في جعبتك!

– قالوا أنكَ جلدتَ ابنكَ عبدالرحمن لشربه الخمر فمات من أثر السياط المفرطة التي أنزلتها به! فما الخبر يا أمير المؤمنين ، وإني والله لا أسألكَ سؤال المتهم إياك ، ولكن سؤال طالب الخبر من صاحبه ، وظني بأمير المؤمنين أنه محال أن يفعل ما قيل فيه .

– سأخبركَ بحقيقة ما جرى من أول الأمر حتى آخره ، ثم انظر بنفسك بعدها هل أخطأ عمر أم أصاب ، فإنَّ القوم زادوا على الخبر أخبارًا ، وكانوا كمن دسَّ السمَّ في العسل .

– كلي آذان صاغية يا أمير المؤمنين

– خرج ابناي عبدالله وعبد الرحمن غازيين في سبيل الله في موضع في مصر لم يكن عمرو بن العاص قد فتحه بعد ، فجاءه آتٍ فقال له : قدم عبدالله وعبد الرحمن ابنا عمر غازيين

فقال له عمرو : أين نزلا؟

فقال : في موضع كذا وكذا لأقصى مصر

وكنتُ قد كتبتُ لعمرو بن العاص قبل هذا أقول له : إياكَ أن يقدم عليكَ أحدٌ من بيتي ، فتحبوه بأمرٍ لا تصنعه لغيره ، فأفعل بكَ ما أنتَ أهله إن فعلتَ هذا .

فلزم عمرو بن العاص مجلسه ، وامتنع أن يُهدي إليهما هدية ، أو يأتيهما بنفسه زائرًا للعهد الذي أخذته عليه . .

وبينما هو على هذا ، إذ دخل عليه أحد أعوانه

وقال له : هذا عبدالرحمن بن عمر وأبو سروعة على الباب يستأذنان

فقال عمرو : ليدخلا

فدخلا وهما منكسران

وقالا : أقِمْ علينا حدّ الله ، فإنا قد أصبنا البارحة شرابًا فسكرنا

- فماذا فعل عمرو بن العاص عند ذلك يا أمير المؤمنين؟

- زجرهما وطردهما!

فقال له عبدالرحمن : إن لم تفعل ، أخبرتُ أبي بالذي منك حين أرجعُ إليه!

فعلم عمرو أنه إن لم يُقم عليه الحدَّ غضبتُ منه وعزلته ، فبينما هو يرى ما يفعل في أمره هذا ، إذ دخل عليه عبدالله بن عمر

وقال له : إن أبي قد نهاني أن أدخل عليكَ إلا أن أجد من ذلك بدًا ، إن أخي لا يُحلق على رؤوس الناس أبدًا ، أما الضرب فاصنع ما بدا لكَ!

وكنا يومذاك نحلق شعر الرأس عند الحدِّ

– فما فعل عمرو بن العاص بعد أن قال له ابنكَ عبدالله هذا؟

– أخرجهما إلى صحن الدار وجلدهما هناك ، ثم قام عبدالله وأخذ أخاه عبدالرحمن إلى داخل البيت وحلق له رأسه

– حتى الآن لا أرى شيئًا على أحد ، لا عليكَ ، ولا على عمرو ، ولا على ابنيك ، ولا على أبي سروعة ، فبأي شيءٍ قد قالوا الذي قالوه؟

– لا تكن عجولاً يا بُنيَّ ، فإن للقصة بقية

– اعذرني يا أمير المؤمنين ، فهي عجلة نابعة من حبي لك ، وتضجري بما قد قيل عنك ، فما بقية القصة؟

– لا تثريب عليكَ ، أما بقية القصة ، فقد بلغني خبرهم وأنا في المدينة وهم ما زالوا في مصر عند عمرو بن العاص ، فكتبتُ إليه أقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي! عجبتُ لكَ يا ابن العاصي ولجرأتكَ عليَّ وخلاف عهدي ، أما إني قد خالفتُ فيكَ أصحاب بدر ، ممن هو خير منكَ واخترتك ، لجرأتك عني ، وإنفاذ عهدي ، وأراكَ تلوثتَ بما تلوثت ، فما أراني إلا عازلك ، فمسيء عزلك ، تضربُ عبدالرحمن في بيتك ، وتحلقُ رأسه في بيتك ، وقد عرفتَ أن هذا يخالفني ، إنما عبدالرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين!

ولكنكَ قلتَ : هو ابن أمير المؤمنين . . .

وقد عرفتَ أن لا هوادة لأحدٍ من الناس عندي في حق يجب لله عليه ، فإذا جاءكَ كتابي هذا ، فابعثْ به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنعَ!

– فـمـا فـعـل عـمـرو بن العـاص يا أمـيـر المؤمنين حين وصله كتابك؟

– أقرأ عبدالله وعبدالرحمن كتابي ، وبعث عبدالرحمن إليَّ على الشكل الذي طلبتُ منه ، وكتب إليّ كتاباً يعتذر فيه ، وحمَّله لعبدالله الذي جاء مع أخيه إلى المدينة

– فما حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– دخل عليَّ عبدالرحمن وعليه عباءة خشنة ثقيلة لا يستطيع أن يمشي منها

فقلتُ له : يا عبدالرحمن ، فعلتَ وفعلتَ ، هو الجلدُ والله!

فقال لي عبدالرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين أقمتم عليه الحدَّ مرةً

– صدقَ والله عبدالرحمن بن عوف ، فهل أخذتَ برأيه؟

– لم آخذ برأَيه ، بل جلدتُ عبدالرحمن أمام الناس كما هو الحدُّ الذي أوجبه الله ، ثم خليتُ سبيله ، فلبث بعد ذلك شهرًا صحيحًا معافى ، يروح ويجيء في الناس ، ثم أصابه قدر الله ، إذ مرضَ فماتَ ، وما مات من جلد ولا من سوط

– إن هذا واللهِ يُحسب لكَ لا عليكَ يا أمير المؤمنين ، فقاتلهم الله أيّة فرية افتروها ، وأي كذبٍ قالوه فيك ، ولكن أما ترى معي يا أمير المؤمنين أنكَ قسوتَ على ابنكَ؟ بعيدًا عن فريتهم وكذبهم فقد خرجنا من قضية أنه مات من أثر جلدك له

– ما زدتُ على أن أقمتُ عليه حدّ الله الذي أمر به ، أفترضى لعمر بن الخطاب أن يجلد أبناء الناس الحدَّ أمام الملأ ، ويجلد ابنه في صحن دار عمرو بن العاص؟

– لا ، واللهِ لستُ أرضى ، ولكنه قد جُلد حدّه

- جُلد ، ولكن ليس على الهيئة التي أمر الله!
- بقي أمر أخير في هذا يا أمير المؤمنين
- وما هو؟
- إني أحسنُ الظن بأولادك كما أُحسن الظن بك ، وقد سمعتُ أن عبدالرحمن لم يشرب الخمر ، وإنما شرب النبيذ متأولاً ، يظن أن ما شرب منه لا يُسكر ، وكذلك أبو سروعة ، وهو من أهل بدر كما تعلم ، فلما خرج بهما الأمر إلى السُّكر طلبا التطهير بالحدّ ، وقد كان يكفيهما مجرّد الندم على التفريط ، غير أنهما غضبا لله سبحانه على نفسيهما المفرطة ، وطلبا إقامة الحدّ عليهما
- لا أستبعدُ هذا في عبدالرحمن وأبي سروعة ، وما تحريتُ عن نوع ما شربا ، فقد قدما بنفسيهما على عمرو بن العاص ، وطلبا إقامة الحدّ ، فكان الأمر عندي على ما أقرا به ، وإن كان منهما الذي قلتَ فنعمَ الرجلان هما ، وإن لم يكن فأمر الله قد كان
- صدقتَ يا أمير المؤمنين
- أما زال عندكَ شيء في هذه أم أننا قد انتهينا منها؟
- لم يبقَ عندي شيء فيها
- فما عندكَ من أشباهها؟

- يقولون : نفى عمر بن الخطاب نصر بن حجاج عن المدينة بغير إثم ولا جريرة غير أنه كان وسيمًا جدًا ، فأي عدلٍ هذا أن يُنفى رجلٌ لأنه جميل؟! فما الخبر يا أمير المؤمنين؟ وهل حدثَ هذا فعلاً؟ وإن كان حدثَ فلِمَ؟
- إن هؤلاء لقصر نظرهم وقلة فقههم ينظرون إلى الحكم دون أن ينظروا إلى الباعث عليه ، لا يرون في القضاء والحكم والإمارة أبعد من أنوفهم

– أفهم منك أن ما قالوه قد حدث فعلاً

– أجل قد حدث ، ولكن ليس للسبب الذي قالوه ، لقد خلطوا الحق بالباطل ، وقالوا كلمة حق وأرادوا بها باطلاً ، إما عن جهل أو عن سوء نيّة

– مهما يكن من أمر يا أمير المؤمنين ، فما الخبر؟

– بينما أنا أطوف ليلةً في طرقات المدينة ، أتفقد أحوال الرعية كما اعتدتُ دومًا أن أفعل ، إذ بي أسمعُ امرأة تقول :

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربها
أم من سبيلٍ إلى نصر ابن حجاجِ
إلى فتى ماجد الأعراقً مقتبلُ
سهل المُحيَّا كريم غير ملجاج
تهنيه أعراق صدق حين تنسبه
أخي وفاءٍ عن المكروب فرّاج
انظر إلى السحر يجري في نواظره
وانظر إلى دعج في طرفه الساجي
وانظر إلى شعرات فوقً عارضه
كأنها نمالٍ دبّ في عاجي

فقلتُ : لا أرى معي في المدينة رجلاً تهتفُ به الجواري في خدورهنّ!

ولما كان الصباح ، قلتُ : عليَّ بنصر بن حجاج

فلما أتى فإذا هو من أحسن الناس وجهًا ، ذو طلعةٍ بهية ، وجمال فتّانٍ ، وشعرٍ حسن

فقلتُ له : عزيمة من أمير المؤمنين لنقصنّ شعرك!
فلما قصصنا شعره ، ما ازداد إلا بهاءً
فقلتُ له : والله لا تُساكنني في بلدةٍ واحدة
فقال : يا أمير المؤمنين ، وما ذنبي؟
فقلتُ : هو ما أقول لكَ!
وسيّرته إلى البصرة!
- إذًا نفيته دون ذنبٍ ولا جريرة؟!
- أما بالنسبة للذنب فليس للرجل ذنب ولا جريرة ، أما لماذا فعلتُ هذا ، فاسمع الخبر من أهل الدولة والحكم والسياسة
- على السمع يا أمير المؤمنين
- ما فعلته كان من باب تقديم المصلحة العامة على الخاصة ، فإلحاق الضرر بالمصلحة الخاصة لأجل المصلحة العامة متعين بالجملة! ومن أصول الفقه وتمام فهم الإسلام ، دفعُ الأمر العظيم بارتكاب الصغير الذي لا شيء سواه يحول دون دفع الأمر العظيم! ومن القواعد الكلية للشريعة الإسلامية أن تُدرأ أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما إذا تعين وقوع إحداهما ، وأن يُحصّلُ أعظم المصلحتين بترك أخفهما ، إذا تعيّن عدم إحداهما ، فإذا تعارضت مصلحتان حصلت العليا بتفويت الدنيا!
- كلام جميل يا أمير المؤمنين ولا خلاف فيه ، ولكن أين المصلحة التي تم تحقيقها في هذا النفي؟
- أولاً للحاكم أن ينفي عن طريق المصلحة لا عن طريق الحدّ ، وقد نفى رسول الله ﷺ هِتَ المخنّث عن المدينة ، ونفيتُ أنا نصر بن حجاج للمصلحة ، فالجمال لا يوجب النفي ، ولكن المصلحة تفرضه!

أما المصلحة فهي أن المدينة كانت دار المغازي! أي أن جلَّ رجالها قد خرجوا للغزو والجهاد ، وكثر النساء الغائب عنهن أزواجهنَّ ، وواجب الحاكم أن يزيل من طريق الأمة كل ما يمكن أن يؤدي إلى ارتكاب المعصية ، ومعلوم أنّ المرأة تشتاق لزوجها كما يشتاق الرجل لامرأته ، ووجود رجل بهذا الجمال في هذا الوضع الاجتماعي فيه مفسدة ، والنفي فيه مصلحة الجماعة وإن كان فيه ضرر الفرد ، ولا أتهم النساء ، ومعاذ الله أن أفعل ، إنما لا سبيل لردّ فطرة الله التي فطر عليها الناس ، لهذا رأيتُ من واجبي أن أحفظ الجماعة وهي المصلحة العليا بنفي نصر وهو خلاف مصلحته الشخصية

- هذه واللهِ نظرة ثاقبة ، ورأي سديد يُحسبُ لكَ لا عليكَ ، ولكن عندي سؤال هام

- وما هو؟

- نفيتَ نصر بن حجاج إلى البصرة خوفًا من افتتان نساء المدينة به ، ولكنكَ هنا نقلتَ فتنة من مكان وألقيتها في مكان! فما لو فُتن نساء البصرة به؟ ما الذي فعلناه غير تصدير مشكلة من مكان إلى آخر؟

- سؤال سديد ، ولكن الردُّ عليه يسير

- فما الردّ يا أمير المؤمنين؟

- أولاً : كان الوضع الاجتماعي في البصرة مختلفاً عنه في المدينة ، فكما أخبرتك كانت المدينة دار مغازٍ وكانت البصرة دار إقامة ، وبهذا الاختلاف يقل احتمال الفتنة!

ثانيًا : إن المغترب ليس كالمستوطن! إذ أنه في بلد الغربة ينشغل بحال نفسه ، وبالكسب والعمل ، مما يرفع عنه الترف الذي كان يتمتع به في بلده ، وبين أهله وعشيرته ، وهذا يشغله

عن الاعتناء بهيئته ومظهره ، وإن النظر إلى الأمر من زاوية نصر بن حجاج يريك في الأمر ظلمًا له ، وإجحافًا بحقه ، وهذا صحيح ولكن النظر للأمر ككل ، بما فيها الأهم وهو مصلحة الجماعة ، يقضي الشرع والعقل تقديم مصلحتها على مصلحة الفرد!

- والله إن نظركَ لثاقب ، وإنك ترى في الأمر ما لا يراه سواك ، وصدق القائل : كلنا نملك نفس العين ، ولكننا لا نملك نفس النظرة!

- انتهينا من هذه؟
- أجل يا أمير المؤمنين ، انتهينا منها
- فهل من أشباهها شيء بعد؟
- ما زال هناك الكثير
- إذًا ، هاتِ ما عندك

- على أمر أمير المؤمنين ، يقولون هجمَ عُمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق على بيتِ علي بن أبي طالب ، وكان غائبًا ، فهجما على فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وحشراها وراء الباب وكسرا ضلعها ، وأسقطا جنينها ، فماتت من جرّاء هذا! فما قولك؟

- لا أقول إلا حسبي الله ونعم الوكيل ، ثم أزيد بعد ذلك قولاً : حين سألتني عن قصة جلد عبدالرحمن بينتُ لك الأمر كما حدث ، وشرحتُ وجهة نظري ، وحين سألتني عن نصر بن حجاج ، أريتكَ المصلحة التي جعلتني أنفيه ، فما عسايَ أقول في شيء لم أسمع به إلا الآن منكَ ، أأنا الذي أهجمُ على بنت رسول الله ﷺ ، ومع من؟ مع أبي بكر ، صدِّيق هذه الأمة ، وخيرها بعد نبيها؟

– واللهِ أعرفُ أنكَ لا تفعل ، ولكن هذا الذي قالوه

– لستُ أدري ما الذي يريده من قال هذا ، أن يُسيء إليَّ وإلى أبي بكر أم يسيء لعلي بن أبي طالب؟

– وما شأن عليّ هنا ، إن كان هو المُعتدى على زوجته بزعمهم؟

– واللهِ إنها الإساءة التي ما بعدها إساءة

– وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟

– يا بُنيّ ، كان العرب في جاهليتهم أهل مروءة ونخوة ، لا يقبل أحدٌ أن يُعتدى على ماله وعرضه ويقف مكتوف الأيدي لا يُحركُ ساكنًا ، وكانت الحروب الطوال تستعر سنينًا لأجل إهانة أُهينها رجلٌ من العرب في سباق بين فرسين ، فكيف وقد أُعتديَ على عرض أحدهم ، أكان يسكتٍ؟

– لا واللهِ لا يسكتُ!

– فإذا كان هذا في الجاهلية ، فكيف به في الإسلام وهو دين المروءة والنجدة والحفاظ على الأعراض ، فكيف يقبل عليٌّ بن أبي طالب سيد الشجعان والفرسان ، الفدائي الأول في الإسلام يوم نام في فراش رسول الله ﷺ ، والمبارز الصلب يوم بدر ، والمقدام يوم قتل عمرو بن ود في الخندق ، والأسد الهصور الذي أُعطيَ الراية لفتح خيبر؟!

يا بنيَّ إن الله قال عن الزواج : «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» فأين الإمساك بالمعروف من علي بن أبي طالب أن يُكسر ضلع زوجته ، ويُسقط حملها ، ثم تموت ، ويبقى متفرجًا ، أليست هذه إساءة له قبل أن تكون إساءة لنا؟

– بلى واللهِ هي كذلك!

– ثم هي واللهِ ليستْ إساءة لعلي بن أبي طالب وحده ، وإنما هي إساءة لآل بيتَ النبوة كلهم ، فلو سلمنا جدلاً أن يجبن عليٌّ ، وحاشاه أن يكون جبانًا ، وقد كان واللهِ أشجع الناس! فأين الفرسان والشجعان غيره من بني هاشم ، أين العباس الذي وقف في وجهي يوم أردتُ أن أشتري منه بيته لتوسعة المسجد كما أخبرتك؟ أيقف في وجهي يوم أردتُ أن أشتري دارًا من تراب وحجارة وسعف النخل ، ويسكت عني وأنا أقتل ابنة رسول الله ﷺ ؟! أين عقيل والعباس ، أين الحسن والحسين وكان آخر عهدي بالخلافة وهما في العشرين من العمر ، عزّ العنفوان والبأس ، أليست هذه إساءة لهم قبل أن تكون لنا؟!

– بلى واللهِ هي كذلك

– وإنّ الأمر يتخطى مجرد الإساءة ، والجبن عن الدفاع عن الأهل ، إلى الاتهام بالدياثة والعياذ بالله ، بالله عليكَ ما تقول في رجل أحضرُ إلى بيته ، وأقتل زوجته ، فلا يدافع عنها ، ثم ما ألبثُ أن أخطب منه ابنته ، فيوافق ويزوجني إياها؟

إن هذا التصرف يأنف منه الملحد وعابد الصنم لتعارضه مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فكيف يفعلها عليّ بن أبي طالب ، العفيف الشريف ، المؤمن التقي النقيّ؟

– والله لا يفعل عليٌّ هذا

– حاشاه أن يفعل ، وحاشاني وأبو بكر أن نفعل ، إنما هو كلام شياطين عششتْ في رؤوس بعض الإنس فأملتْ عليهم ما يقولون ، فدعك منهم ، ولنخرج من هذا الحديث ، فإنه ماء آسن

– على أمر أمير المؤمنين

– فما عندكَ بعد في هذا؟

– يقولون أن عمر بن الخطاب خالف القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، عندما جعل سواد العراق وقفًا بين المسلمين ولم يقسمها بين المجاهدين ، كما قال الله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾

فقد دلت الآية أن خمسًا يوزع على الأصناف المذكورة في الآية ، والأربعة أخماس الباقية تُقسم على الغانمين ، وهو ما بينته سنة رسول الله ﷺ وفعله ، حيث قسم خيبر بين المقاتلين بعد أن فتحها عنوة ، فكان فعل الرسول ﷺ دليلاً على وجوب قسمة الغنيمة ، أربع أخماسها على الغانمين ، ولكن عمر بن الخطاب خالف النصوص الصريحة القطعية الثبوت والدلالة وعمل برأيه ، فما قولك يا أمير المؤمنين؟

– أولاً قولهم أن عمر بن الخطاب خالف صريح القرآن ، فهذا لجهلهم بالقرآن! فالقرآن لم ينص على وجوب توزيع الغنائم الحربية المنقولة أو غير المنقولة على المجاهدين ، وإنما نصتْ آية الأنفال التي استشهدوا بها على مصارف محددة لخمس الغنائم! أما توزيع الأربعة أخماس الباقية على المقاتلين فإنما جاءت به السنة الشريفة في تقسيم النبي ﷺ لأراضي خيبر ، فالآية دلت بالالتزام على مصرف الأربعة أخماس الباقية ، كدلالة قول الله تعالى ، «فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث»! إذاً نصيب الأب من تركه ابنه المتوفى الذي ليس له ولد هو الثلثان! والفائدة هنا أن هذه الدلالة ليست قطعية بذاتها ، بل ظنيّة! فمن أصول التفسير أن دلالة النص المجمل ليست في قوة النص الصريح! وليست دلالة المفهوم في قوة دلالة المنطوق! وليست دلالة إشارة النص في قوة دلالة عباراته! فإن قيل أن نصيب الأب هو الثلثان قطعًا ، فإنما أوصله إلى القطع اجتماع الأفهام لا دلالة الآية وحدها!

أما بالنسبة لاستدلالهم بفعل رسول الله ﷺ ، وقسمته أرض خيبر فليس في ذلك دليل على وجوب قسمة الأراضي المفتوحة عنوة على المقاتلين ، لأن فعل النبي عليه الصلاة والسلام هذا إنما يفيد الاستحباب ، وفعله بين الإباحة والجواز والاستحباب ، فإنه ﷺ كان يحبُّ الحلوى ، فهل من خلاف سنته عدم حب الحلوى؟!

– قطعًا لا يا أمير المؤمنين

– إذًا من أين جاء هؤلاء بالوجوب؟! ثم ليس القول بالاستحباب أولى من القول بالجواز ، لأن الفعل متردد بين الأمرين ، وترجيح أحدهما على الآخر إنما هو ترجيح بلا مُرجّح ، لهذا فإن حكم الأرض المفتوحة عنوة للإمام ، يفعل فيها ما يراه الأصلح ، كما أن رسول الله ﷺ فتح مكة عنوة ولم يقسمها بين الغانمين ، فعُلم من هذا أن الأرض المفتوحة يجوز قسمتها ويجوز ترك قسمتها ، وفعل النبي ﷺ في خيبر دلالة على الجواز لا الوجوب ، وإلا لقسّم مكة أيضًا .

كذلك فإن أفعال النبي ﷺ لا تدل بنفسها على الوجوب ، ولا على الندب ، وإنما تدل على الإباحة ، فإنه كان يفعل المندوب والمباح والواجب ، إلا إذا دلتْ قرينة على أنه فعل للوجوب أو الندب ، كان فعله ﷺ واجبًا ومندوبًا ، ولا قرينة هنا!

– إلى هنا كلام جميل وردّ صافع يا أمير المؤمنين ، ولكنك قلت الغنائم الحربية المنقولة وغير المنقولة ، فما الفرق؟

– هنا يكمن بيت القصيد!

– وكيف ذاك؟

– إن منشأ الخطأ في الاستدلال والاستنتاج الذي وصل إليه هؤلاء هو التسوية بين الغنائم المنقولة وغير المنقولة ، وتعميم حكم وجوب القسمة على الأراضي وهي غير منقولة وجعلها هي والغنائم المنقولة كالذهب والفضة والمتاع واحدًا! وكأن الإجماع قد انعقد على عدم التفريق بينهما ، مما جعلني في نظرهم مخالفًا لنص قطعي الدلالة انعقد الإجماع على وجوبه!

وليس الأمر كما توهموا ، فإنه لا خلاف على قسمة الأموال المنقولة من الذهب والفضة والمتاع ، أما الأموال غير المنقولة فهذا لم ينعقد فيه إجماع الصحابة ، فإنّ الزبير بن العوام وبلال بن رباح وغيرهما دعوا إلى قسمة الأرض ، بينما كنتُ وعليّ بن أبي طالب وأبو عبيدة ومعاذ بن جبل نرى عدم قسمتها ، وسبب رأينا هذا أننا كنا نعرف أن قسمة الأرض ستجعلها بأيدي فئة قليلة من الناس ، ثم يأتي من بعدهم قوم لا يجدون شيئًا ، فلما طال بيننا الجدال والرأي شرح الله صدري ، ووجدتُ حجة في كتاب الله ، جعل الجميع يوافقون على رأيي بعدم قسمة الأرض!

– وما هي يا أمير المؤمنين؟

– ذلك قول الله تعالى في آخر سورة الحشر : «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»

ثم قال : «للفقراء المهاجرين» إلى أن قال : والذين تبوؤوا الدار والإيمان» يعني الأنصار ، ثم قال : «والذين جاؤوا من بعدهم»!

يريد ربنا كل المسلمين إلى آخر الدهر ، وما أرى هذه الآية إلا قد عمّت المسلمين كلهم

ثم قلت لهم : تريدون أن يأتي آخر الناس ولا يجدون لهم شيئًا؟ فما لمن بعدكم؟ ولولا آخر الناس ما فتحتُ قرية إلا قسمتها كما فعل رسول الله ﷺ بخيبر! ولكن تبقى الأرض لبيت المال ، ريعها يصير إليه ، وللمسلم الحاضر والغائب واللاحق منه نصيب!

– والله هوَ نعم الرأي يا أمير المؤمنين

– هل انتبهت لأمرٍ هام يا بُنيّ في معرض حديثي؟

– لم أنتبه ،هل أشرتَ لشيء خفي على أن أنتبه له؟

– ما دام قد حصل بيننا نقاش وجدال ، وأخذ ورد ، في قسمة الأرض ، فهذا ينفي أن الآية قطعية الدلالة على وجوب قسمة الأموال غير المنقولة كما هو الحال في الأموال المنقولة! وإلا لكان هذا ذمًا في صحابة رسول الله ﷺ جميعًا وليس عمر وحده! فكيف نختلف في آية هي قطعية الدلالة؟ إذًا ما جرى بيننا دلالة على تفريقنا بين حكم المنقول وغير المنقول من الأموال ، وأن فعل رسول الله ﷺ في خيبر ليس للوجوب وإنما غاية ما يدل عليه الجواز ,وأن حكم الأرض المفتوحة عنوة متروك للإمام يرى فيه رأيه بين جائزين ، قسمته أو رده إلى بيت المال ، وما أبقيته في بيت المال لشيء لي ، فإني لم أكن إلا حافظًا له للناس ، أمينًا عليه ، وما أردتُ الحاضر وإنما المستقبل ، ورفقتُ بالمسلمين الذين لم يولدوا بعد ، أن يأتوا إلى الدنيا فيجدون مال المسلمين في يد فئة قليلة من الناس يتوارثونها ، فهل هذا يُحسب لعمر بن الخطاب أم يُحسب عليه؟

– واللهِ إنكَ لعبقريّ ، وإنه ليُحسب لكَ لا عليكَ ، وإن رجلاً يرحم الذي لم يولد بعد من المسلمين ، لا يظلم من كان حاضرًا منهم ، فسبحان من أيدك وسددك ، وجعل الحق على قلبك ولسانك!

- فما عندك من شبهاتهم بعد؟

- يقولون أنّ عمر بن الخطاب قد خالف كتاب الله وسنة رسوله غير مرةٍ ، فهو قد عطَّل سهم المؤلفة قلوبهم ، ورفض إعطاءهم من الزكاة على الرغم من أن القرآن نصّ على أن لهم سهمًا ومصرفًا من مصارف الزكاة الثمانية ، فما بال عمر يفعل هذا فيخالف نصًا قرآنيًا قطعي الدلالة والثبوت ، ويخالف فعل صاحبيه من قبل رسول الله ﷺ وخليفته أبو بكر! فما قول أمير المؤمنين في هذا؟ وكيف يدفع عن نفسه هذه التهمة؟

- تهمة خاوية ، وشبهة ضعيفة ، ردها سهل يسير

- وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟

- ما فعلته من منع القوم الذين كان يتألفهم رسول الله ﷺ ، وخليفته أبو بكر من بعده ، لا يندرج في باب تعطيل النص القرآني ، ولا تعديًا على الشريعة ، كل ما في الأمر أنني أعلمُ يقينًا أن الله تعالى قد جعل العطاء لهذه الفئة مقيدًا ، كقوم يخشى الإمام شرهم ويرجو منفعتهم ، وإن لم تكن هناك حاجة إلى إعطاء بعض المنتفعين من أموال المسلمين ، فهم أولى بأموالهم ، لأن العطاء مقيد بالحاجة إلى التأليف ، وهذا إنما يكون في ظرف معين ، في الغالب هو ضعف الدولة ، وحاجة الإمام لردِّ شر فئة فيعطيها ليدفع شرها ، أما إذا كانت الدولة قوية ، والجميع بقوة سلطان المسلمين تحت القانون تنعدم الحاجة لتأليفهم!

ووصف التأليف ليس لازمًا لفئة من الناس بأشخاصهم وأعيانهم يسمون فئة المؤلفة قلوبهم ، يُعطون من أموال الزكاة أبد الدهر! بل هو وصف متغير متبدل تمامًا كوصف الفقر والمسكنة ، ولا يقول عاقل لو أننا أعطينا مسكينًا من مال الزكاة مرةً ،

ثم تبدلت أحواله ، وصار غنيًا أن نبقى نعطيه أبد الدهر ، إنما العطاء كان مشروطًا بالمسكنة ، فلما انتفى الشرط سقط واجب العطاء ، وهذا كذاك ، فلما رأى رسول الله ﷺ أن يتألف قومًا ، لظرف كنا نعيشه في تلك الحقبة لا يقتضي أن يبقى العطاء سائرًا فيهم إذا ما تبدلت الظروف ، وعندما رأيتُ الظروف تبدلت فعلاً ، وقويت شوكة الإسلام ، منعتهم مالاً لا غاية من إعطائهم إياه ، إذًا أنا بهذا الفعل لم أعطل النص القرآني ، ولم أقل قد نسختُ كلام ربي ، بل إن الحكم قائم ، والآية سارية ولكن الظرف تبدل ، ولو رأيتُ حاجة أن أتألف قومًا جُددًا لم يتألفهم رسول الله ﷺ لفعلتُ ، فأين يكون التعطيل هنا؟ على العكس تمامًا هو عمل بالنص كما نزل ، فهو مقيد بحاجة الدولة إلى التأليف وانتفاء الحاجة يمنع العطاء .

– والله إن هذا هو الفهم العميق للقرآن والشريعة ، وإن النظر في العلل التي كان من ورائها العطاء أو المنع لهو إنزال النص القرآني منزل التطبيق الفعلي لا منزل التعطيل!

– صدقت يا بنيّ ، والنص كما ترى معلل لا مطلق! وقد نظرتُ إلى علته لا إلى ظاهره ، ووجدتُ أن علة إعطائهم تأليفهم عندما كان الإسلام ضعيفًا ، فلما قويت شوكة الإسلام زالت علة إعطائهم ، والقرآن لم يوجب إعطاء أشخاص بأعيانهم وأسمائهم ، وإنما أشخاص بصفتهم وأحوالهم المرتبطة بحال الدولة وواقعها! وهذا بالضبط ما قلته لعُيينة بن حصن الفزاريُّ وللأقرع بن حابس بعدما أرياني كتابًا من أبي بكر لهما باقتطاعه لهما أرضًا من دون الناس ، فبصقتُ في الكتاب فمحوته ، وقلتُ لهما : أن رسول الله ﷺ كان يتألفكما يومئذ والإسلام ضعيف وأن الله قد أعزّ الإسلام فاذهبا وأجهدا أنفسكماً!

– إذًا هذا رأيك قبل أن تتولى الخلافة؟

– أجل هو رأيي قبل أن أتولى الخلافة كما ترى

– ولكن كيف لأبي بكر أن لا يرى ما رأيتَ؟!

– أبو بكر خير من ملء الأرض من مثلي ، ولستُ أدّعي أني أفقه منه وأعلم ، ولكنه الرأي وتفحص النص القرآني ، وكنتُ أصيبُ وأخطئ ، وكذلك أبو بكر ، فلما رأيتُ أن لا نحارب المرتدين ورأى أبو بكر ذلك ، كان أبو بكر مصيبًا وكنتُ مخطئًا! ذاك أنه رأى علة لم أرها أنا ، وعندما راجعته في منعهما ما أعطاهما فلأني رأيتُ علة لم يرها ، ولما عرضتُ عليه ما رأيتُ أخذ بقولي ، تمامًا كما كنتُ إذا عزمتُ على أمرٍ ورأى أحد من أصحابي خيرًا منه تركتُ رأيي وعملتُ برأيه ، لا منّقصة في الأمر ، والحقُّ أحق أن يُتبع ، ولولا أن أبا بكر اقتنع بما رأيتُ ما عمل به ، وقد أخبرتك كم طلبتُ منه عزل خالد بن الوليد فما استمع إليّ وبقي على رأيه ، أعطاني حقّ إبداء الرأي والنصح ، وأخذ حقه في أن يكون هو صاحب القرار ، ولو أنّ أبا بكر أصرّ على إقطاعهما الأرض لكان الذي أراد!

– فماذا عن فقهاء الصحابة؟

– سبقتني بالسؤال ، ولو انتظرتَ قليلاً لتطرقتُ إلى هذا الأمر ، وحدثتك فيه ، وكان موقفهم المؤيد لي تأكيدًا على صواب ما رأيتُ ، وإجماع فقهاء الصحابة على صحة رأيي إنما هو إجماع على صحة فعلي ، وفهمي للنص ، وليس إجماعًا على نسخ الحكم الشرعي المنصوص عليه في الآية .

فبعد أن كان مني مع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الذي أخبرتك أنه كان ، جاؤوا إلى أبي بكر

وقالوا له : أنتَ الخليفة أم عمر؟

فقال أبو بكر : هو لو كان شاء!

يقصدُ بذلك ما حدث يوم السقيفة حين قال لي : ابسط يدك نبايعكَ يا عمر! فرفضتُ أن أتقدم عليه!

فالصحابة عاصروا نزول الوحي ، وهم أرفع ما يكونون بلاغة وفصاحة وحسن بديهة وفطنة ، ورضي الصحابة بمن فيهم أبو بكر ، وعدم إنكار واحد منهم ذلك مع وجود الداعي للإنكار لو وُجِد ، وانتفاء الموانع ووفرة الصحابة ، لهو أبلغ دليل على صواب رأيي ، وفهمي أن الحكم معلق على الحاجة إلى التأليف ، فإن وُجدت كان ثمة مؤلفة ، وإن لم توجد فليس هناك مؤلفة ، ولا سهم للمؤلفة

– ردّ دامغ ، وكلام قاطع ، تسقط فيه شبهة واهية

– هو كذلك ، فهل عندك شيء في هذه بعد تسألني فيه؟

– كفيتَ ووفيتَ يا أمير المؤمنين ، لا شيء عندي في هذه الشبهة

– فهل ثمة غيرها؟

– ما زال هناك غيرها

– فقل إذًا

– على أمر أمير المؤمنين ، يقولون : مرة أخرى يُخالف الخطاب نصًا قرآنيًا قطعي الثبوت ، قطعي الدلالة! فإن الله تعالى يقول : «اليوم أُحلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن»! فبعد أن ثبتَ بالنص إباحة الزواج من الكتابيات وانعقاد الإجماع عليه إذ بعمر بن الخطاب يقوم بتحريمه ، ومنع الصحابة منه ، ولم يكتفِ بذلك بل أمر من تزوج كتابية من الصحابة أن يُطلق زوجته! فكيف له أن يفعل هذا؟ وكيف لخليفة المسلمين أن يجعل الحلال الذي في القرآن حرامًا في الحياة؟ فما قولكَ يا أمير المؤمنين؟

– هناك فرق شاسع بين أن يُقال نهى عمر بن الخطاب عن الزواج من الكتابيات وبين أن يُقال حرم هذا!

– إذاً منعتَ الزواج من الكتابيات؟

– أجل فعلتُ ، ولكني لم أحرِّمه!

– أليس المنعُ تحريمًا يا أمير المؤمنين ، شيء أحلّه الله تمنع الناس منه ، أليس المحظور بمنزلة المحرّم؟

– قطعًا لا ، وسأشرح لكَ بالتفصيل حتى ترضى فلا تكن متسرعًا

– على أمر أمير المؤمنين ، فقل ما تشفي به صدري

– فأما تهمة التحريم فتسقط بالحوار الذي جرى بيني وبين حذيفة بن اليمان

– ما خبر ذاك الحوار؟

– تزوج حذيفة بن اليمان يهودية في خلافتي

فقلتُ له : طلقها فإنها جمرة!

فقال لي : أحرام؟

قلتُ : لا

فأبى أن يُطلقها ، ثم ما لبثَ حينًا أن طلقها

فقيل له : ألا طلقتها حين أمرك عمر؟

فقال : كرهتُ أن يرى الناسُ أني ركبتُ أمرًا لا ينبغي لي!

هذه الحادثة تثبتُ أني قد نهيتُ ولم أُحرِّم ، وما كان لي أن أُحرّم شيئًا قد أحله الله تعالى .

ولكن لو نظرتَ في الآية لعلمتَ أنها لم توجب زواج المسلم من الكتابية حتى يكون أمري تعطيلاً للعمل بحكم واجب! بل غاية ما تفيده الآية هو الجواز والإباحة المقتضية للاختيار ،

وذلك غير موجب إثمًا لأحد ، وعليه فإن قراري ذاك كان في دائرة المباح ، والإمام له حق أن يمنع من أراد من الرعية أن يتصرف بالمباحات ، إذا كان تصرفه يؤدي في اجتهاد الإمام إلى إلحاق مضرة بالرعية ، ولا يختلف اثنان من أهل الإسلام أن للإمام أن يقيّد العمل بالمباح لمصلحة يراها!

– أليس هذا استبداد يا أمير المؤمنين؟

– أبدًا يا بُنيّ ، ليس ذلك بمحض التشهي والتحكم والاستبداد ، بل إنّ قواعد الشريعة دلت على أن المصلحة العامة الحقيقية مقدمة على المصلحة الخاصة لبعض الناس ، وهو أمر معلوم بفطرة العقل وليس مختصًا بملة الإسلام!

وإنّ ما حدث بيني وبين حذيفة بن اليمان ينفي قولي بتحريم الفعل ، وإنما بمنعه وهو مباح ، وإذا لم يكن للإمام أن يتصرّف في المباحات أمرًا ونهيًا ففيمَ إمامته؟! ومتى تجب طاعته؟ أفي تحريم الحلال وتحليل الحرام ، وفرق كبير بين القول بتحريم أمر هو حلال ، وبين المنع منه في مكان ما أو زمان ما أو حالٍ ما أو لشخص ما مع اعتقاد جوازه .

– فما المصلحة التي جعلتكَ تمنعُ الزّواج من الكتابيات في تلك الفترة؟

– هذا كان لأكثر من علة

– فما هي هذه العلل يا أمير المؤمنين؟

– لم يكن حذيفة وحده الذي منعته ، وإنما منعتُ غيره كذلك ، وكل شخص منعته إنما كان لعلة تختلفُ عن الآخر

فلما منعتُ حذيفة قلتُ له إنها جمرة ، والجمرة تحرق البيت ، وعنيتُ أن حذيفة كان من أهل المغازي ، وبقاء الأم الكتابية وحدها في البيت مع الأولاد دون والدهم فيه الخطر الكبير على عقيدتهم ،

وعادة الأطفال شدة الولع والتعلق بالأمهات ، وخصوصًا البنات ، وحفظ عقائد المسلمين فرض على الإمام ، فماذا يبقى لهم بعد عقيدتهم ، وكفى بالإمام تضييعًا لرعيته أن يترك عقيدتهم في مهبّ الخطر!

وكذلك خشيتُ إن توسّع كبار الصحابة بالزواج من الكتابيات أن يقلدهم عامة المسلمين لجمالهنّ وحسنهنّ فيكسد سوق المسلمات ويبقينَ دون أزواج ، وهذا الذي قلتُ لك عنه إن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد

والأمر الأخير أن أغلب الصحابة الذين منعتهم تزوجوا من كتابيات وهم في أرض المجوس ، وبين قوم حديثي عهد بالكفر ، ولم ينضج علمهم بعد بالدين وأحكامه وشرائعه ، فخشيتُ أن يظنّ هؤلاء الداخلون في الإسلام حديثًا جواز نكاح المجوسيات قياسًا على الكتابيات بجامع أنهن كلهن كافرات!

– علل منطقيّة يا أمير المؤمنين ، واللهِ إنك لرجل دولة من الطراز الرفيع الذي لا يأتي كل يوم ، وإن خوفك على عقائد المسلمين ، ومن ثم على المسلمات أن يبقين بلا أزواج لفقه ما بعده فقه قلّ من ينظر إليه نظرتكَ ، ويرى فيه رأيك!

– هذا فضل الله يؤتيه من يشاء

– وقد آتاك الله كثيرًا يا أمير المؤمنين

– هذا من حسن ظنك يا بُنيّ

– وإنك لأهل بهذا الظن يا أمير المؤمنين

– أطريتَ فبالغتَ ، وما أحبُّ هذا ، فدعكَ منه ، وأخبرني أما زال هناك شبهة بعد؟

– أجل ما زال هناك شبهات وليس شبهة واحدة

– فهاتِ إحداها ، نردُّ على القوم شبهاتهم

– على أمر أمير المؤمنين

– يقولون إن الله تعالى فرض الجزية على أهل الكتاب بصريح قوله : «حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» وقد كانت تغلب على دين النصارى في خلافتك ، فرفضتْ أن تدفع الجزية بهذا الاسم ، وطلبتْ من عمر أن يُضاعف عليهم المبلغ وتسمى صدقة بدل جزية لأنهم أنفوا أن يكونوا عربًا وعليهم جزية ، فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن قبل بهذا ، فكيف يفعل ، كيف يُسقط أمرًا أمر الله به ، كيف يُغير المسميات الشرعية النازلة من عند الله ، أليس هذا اجتراء على الله وشريعته؟! فما قولك يا أمير المؤمنين؟

– هذا كلام لا يقوله من له أدنى دراية بما كان مني ، فضلاً عن أن يكون له دراية بدين الإسلام ، وكلياته ومقاصده ، وطرق استدلاله وسيره في الناس

– وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟

– صحيح أن تغلبَ طلبت إسقاط اسم الجزية وإبدالها باسم الصدقة ، وصحيح أيضًا أني أذنتُ أن يسموها كما شاؤوا على أن تبقى عندي جزية معلومة لا سبيل إلا بأدائها ، فلو أني أنزلتها منزلة الصدقة ما أرسلتُ عمالي ليجبونها منهم عن يدٍ وهم صاغرون ، وكما تعلم فإن الصدقة يدفعها المرء من تلقاء نفسه ولا يرسل الخليفة في طلبها كما في الزكاة ، أو الجزية التي لا سبيل دون دفعها ، وقد كنتُ أقول : هؤلاء حمقى رضوا بالمعنى وأبوا الاسم!

ولما عرضت تغلب هذا الأمر عليّ ، استشرتُ الصحابة فيه ، ولم أقضِ به من تلقاء نفسي ، وقال لي النعمان بن زرعة : خذ منهم الجزية باسم الصدقة!

فقلتُ لهم : سموها أنتم ما شئتم فهي عندنا جزية ، ولم يُخالف هذا الرأي أحد من الصحابة ، وبهذا انعقد الإجماع ، وإن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة ، ولا ينعقد إجماع الصحابة على جواز أمر جاءت الشريعة بتحريمه ، ومن علم هذا ، فإنه لا يذم عمر بن الخطابٍ وإنما يذم أصحاب رسول الله ﷺ جميعًا .

أضف أن الضرورة الشرعية المعتبرة تحتم هذا الرأي

– ماذا تقصد يا أمير المؤمنين؟

– كانت تغلب كثيرة العدد ، تسكن قريبًا من الروم وتدين بدينهم ، وكانوا ذوي بأس مما قد يشكل خطرًا عسكريًا على المسلمين فرأيتُ أن لا نعين عدونا على أنفسنا بهم ، فلا ضرر إذًا على المسلمين من إسقاط ذلك الاسم عنهم من جهتهم فقط مع استيفاء حقيقتها ومقدارها ، وقد بقينا نأخذها منهم جزية كاملة فلم نأخذها من الصبيان والنساء والمرضى لأن الجزية لا تؤخذ من هؤلاء!

وقد قامت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة والإجماع على اعتبار الضرورة الشرعية سببًا لإباحة المحرم ، أو رفع الإثم عن فاعله ، مما يبيح للإمام في ظروف معينة الأخذ بأحكام ما كان عليه أن يأخذ بها في الأحوال العادية الطبيعية ، وإمام المسلمين هنا لا يُعتبر مخالفًا للنصوص حقيقة ، بل هو متبع للنصوص القطعية القاضية بأن الضرورات تبيح المحرمات ، فالضرورة قيد يرد على كل المنهيات .

فإن كل ما فعلته ، ووافقني عليه الصحابة من إسقاط لاسم شرعي يُعد محرمًا أو تنازلاً ، فإنما كان للضرورة الشرعية المعتبرة ، وهذا ما فعله النبي ﷺ إذ عرض على بعض قادة الأحزاب يوم الخندق ثلث الثمار التي كانت تنضح بها المدينة على أن يرجعوا ، أو يُخذِّلوا بين الأحزاب ، وعلل ذلك لنا بأن العرب قد رمتنا عن قوس واحدة ، وكالبونا من كل جانب وأراد أن يكسر شوكتهم!

وهذا الفعل الذي هو إعطاء المشركين غير جائز في الأصل لما فيه من الذل والصغار للإسلام وأهله ، ورسول الله ﷺ أول من يعلم ذلك ، ولكنه فعله للضرورة الحربية! فدلَّ ذلك على أنه يجوز لإمام المسلمين عند الضرورة أو الحاجة النزول عند شروط الكفار سواء ببذل المال لهم كما فعل عليه الصلاة والسلام ، أو بمجاراتهم بإسقاط اسم الجزية عن أنفسهم وإبقاء استيفائها على حقيقتها كما فعلتُ أنا

- واللهِ إنّ هذا لهو الفقه والفهم والشريعة والسياسة ، وما تُحسب عليك وإنما تُحسبُ لكَ ، وما السياسة الشرعية إلا إسقاط النصوص على الحياة ، والعمل بمجموع الشريعة في أمر شرعي واحد ، فإن الأمر في الظروف العادية له حكم واحد ، أما في الظروف الاستثنائية فهذه الشريعة مرنة سمحة ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها

- صدقتَ يا بُنيّ ، إن الأمر على ما قلت

- ما هو إلا كلام أمير المؤمنين ، وفقهه ، أعدتُ صياغته مؤكدًا على رجاحة عقله وسداد رأيه

- بارك الله بكَ يا بُني

- وبارك الله أمير المؤمنين الفقيه المسدد

- والآن أخبرني ، أخرجنا من هذه؟

- أجل يا أمير المؤمنين

- فهل ما زال من شبهاتهم شيء؟

- أجل ما زال هنالك أشياء قالوها

- فقل إذًا ، نرد شبهاتهم ، ونفند مزاعمهم

- على أمر أمير المؤمنين

يقولون : كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ ، وخلافة أبي بكر لا يكون طلاقًا بائنًا إذا قاله الزوج ثلاثًا دفعة واحدة ، وإنما تُحسب عليه طلقة واحدة ، فلما جاء عمر بن الخطاب غيّر هذا ، وجعل من طلق زوجته ثلاثًا في موضع واحد طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه ، فكيف لعمر أن يخالف رسول الله ﷺ ، وخليفته من بعده ، أليس هذا اجتراءً منه على الإسلام ، وتضييقًا على المسلمين؟ فماذا يقول أمير المؤمنين في هذا؟

– إن فعلي هذا لم يكن مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ ، ولا سنة خليفته من بعده ، وإنما كان من قبيل العقوبة التعزيرية ، إذ أنني لم أغير الحكم باجتهادي ، ولم أنسخه ، بل الحكم باق على أصله من وقوع الطلاق الثلاث واحدة ، وكل ما فعلته هو إيقاعه ثلاثًا عقوبة لمن استهان به وأوقعه على غير ما شرع الله عز وجل ، إذ أنه سبحانه شرعه مفرقًا ، فلما خالفوا أمره ، واستهانوا بحكمه ، رأيتُ ، ووافقني الصحابة دون خلاف من أحد ، أن أعاقبهم بإيقاعه ثلاثًا ردعًا وزجرًا لهم على الاستهانة والاستخفاف برباط الزوجية وعظة لغيرهم ، وذلك لأن المُطلّق كانت له فسحة في التفريق فرغب عما فسحه الله تعالى إلى الشدة والتغليظ!

وإن هذه القضية لا تندرج تحت باب تحليل الحرام ، أو تحريم الحلال ، وإنما هو اجتهاد جاء في باب التعزير

– وما التعزير يا أمير المؤمنين؟

– التعزير هو تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ، وقد نصت الشريعة السمحاء على أن كل معصية لا حدّ فيها ولا كفارة فيها التعزير ، كتقبيل المرأة الأجنبية مثلاً! والتعزير مَوْكُول إلى رأي الإمام واجتهاده ، يفعل ما يرى فيه مصلحة للناس وإقامة لهم على الحق ، وأنها تتراوح بين الوعظ والتهديد والجلد والضرب والحبس والتوبيخ .

- إذاً لم تكن هنا مشرِّعًا من تلقاء نفسك ، وإنما عامل بصلاحياتك الشرعية التي منحتك إياها الشريعة بصفتك رئيس الدولة وإمام المسلمين .

- هذا بالضبط ما فعلته ، وإن لم ينظر الإمام في أحوال الناس ، في الحلال الذي زهدوا فيه ، وفي الحرام الذي أقبلوا عليه ، وفي المسكوت عنه الذي جعلوه دينًا ، وفي العادة التي جعلوها عبادة ، والعبادة التي جعلوها عادة ، ففيمَ إمامته للناس إذاً ، وكيف تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان وإن لم يُنظر في التغييرات التي تطرأ على المكان بفعل الزمان وضبط هذه التغييرات بميزان الشرع .

- إن لم يفعل لن يلبث طويلاً حتى تكون الشريعة في وادٍ والناس في وادٍ ، وإن الثوب أول ما يهترئ منه بقعة ، وإن الحبلَ أولَ ما ينفك منه عقدة ، فإن لم نتداركه صار الحبلُ على الغارب .

- وما فعلتُ إلا كي لا يصير الحبل على الغارب

- ونعمَ الذي فعلتَ وقضيتَ يا أمير المؤمنين

- انتهينا من هذه؟

- أجل انتهينا يا أمير المؤمنين

- فهل ما زال هناك من شبهاتهم شيء

- أجل ما زال هناك

- فقل إذاً

- على أمر أمير المؤمنين

يقولون : منعَ عمر بن الخطاب الناس من كتابة حديث رسول الله ﷺ ، أليس هذا استخفافًا بالسنة الشريفة ، وعدم الخوف على ضياعها ، وكيف لرجل افتتح الدواوين ، وسجل فيه الناس صغيرهم وكبيرهم أن يزهد في تدوين حديث رسول الله ﷺ ، ألا يندرج هذا في باب عدم الاكتراث؟!

فما قولك يا أمير المؤمنين إزاء ما قالوا ، وكيف ترد عليهم؟!

- إن فكرة تدوين الدولة للسنة الشريفة قد طُرحت في عهدي من قبل بعض الصحابة ، فقلتُ لهم : سأستخير في الأمر!

فلزمتُ الاستخارة شهرًا ، ثم أصبحتُ يومًا فقلتُ للناس : إني كنتُ أريد أن أكتبَ السنن ، وإني ذكرتُ قومًا كانوا قبلكم قد كتبوا كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا أثوبُ كتاب الله بشيءٍ أبدًا!

فلَم ندوّن السُّنة كراهة أن يتخذها الناس مصاحف يضاهون بها صحف القرآن! وهذا الرأي مني كان متناسبًا مع حالة الناس في ذلك الوقت ، فإن عهدهم بالقرآن لا يزال حديثًا ، وخصوصًا من دخل في الإسلام من أهل البلاد المفتوحة ولو أنّ السُّنة دُوِّنتْ ووُزعت على الأمصار ، وتناولها الناس بالحفظ والدراسة لزاحمت القرآن ، ولم يُؤْمَنْ أن تلتبس به على كثير منهم ، ولم يكن هذا الرأي تضييعًا للأحاديث ، فقد كان الناس لا يزالون بخير ، ولا تزال ملكاتهم قوية ، وحوافظهم قادرة على حفظ السنن وأدائها أداءً أمينًا ، ولم يكن هذا رأي عمر بن الخطاب وحده ، بل شاركني فيه كثير من الصحابة وإن لم ينعقد الإجماع في هذا .

فقد قال أبو نظرة لأبي سعيد الخدري : ألا تكتبنا فإنا لا نحفظ؟

فقال أبو سعيد : لا ، إنّا لن نكتبكم ، ولن نجعله قرآنًا ، ولكن احفظوا عنا كما حفظنا نحن عن رسول الله ﷺ !

- إذًا ، كان الباعث على رفضك تدوين السُّنة خوفًا من أن تختلط بالقرآن ، فيشكل على الناس دينهم ، وليس استخفافًا بها كما زعموا؟

– يا بُنيّ ، إني كثيرًا ما كنتُ أقول : إياكم والرأي ، فإن أصحاب الرأي أعداء السُنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها!

وكثيرًا ما كنتُ أقول : سيأتي قوم يجادلونكم بشبهات القرآن ، فخذوهم بالسنن فإنّ أصحاب السُنن أعلم بكتاب الله!

بربك أخبرني ، أيمكن أن تصدر هذه الأقوال من رجل يستخف بالسنة ، ولا يلقي بحديث رسول الله ﷺ بالاً ، أم أن كل مراده تقنين هذه الرواية فقط ، ومنعها من الاختلاط بالقرآن

– بل هو الإجلال لها والله ، ومن إجلالها حفظها من أن يظنها الناس قرآنًا ، وإن كانت شريعة النبي ﷺ وصنو القرآن الذي جاء به

– انتهينا من هذه؟

– لا ، لم ننته منها يا أمير المؤمنين!

– فما عندكَ بعد فيها؟

– يقولون : إنّ عمر بن الخطاب قد منع الناس من رواية الحديث والرجوع إلى القرآن وحده ، فما قولك في هذا يا أمير المؤمنين؟

– سبحان ربي إن يقولون إلا بهتانًا وزورًا ، وافتراءً من عند أنفسهم بلا حجة ولا دليل ، إنما هو من إلقاء الكلام على عواهنه ، وما منعتُ الناس من رواية الحديث وإنما كنتُ أدعو إلى التثبت فيها ، ولا شيء على الخليفة إن أراد أن يتثبت من الرواية ليقضي بها ، فيكون قضاؤه على بينة ، بل هذا واجبه ، وإلا لادَّعى الناس حقوقًا لهم بأحاديث اختلقوها ، وطلب التثبت ليس من باب التهمة وإنما من باب الاستبانة ، والقضاء على حجة بيضاء ، كما حدث يوم حدثني أبو موسى الأشعري حديثًا ، فطلبتُ منه أن يأتيني بمن يشهدُ معه أنه سمعه من رسول الله ﷺ ، فشهد معه أبيٌّ بن كعب

فقلتُ : سبحان الله ، إنما سمعتُ شيئًا فأحببتُ أن أتثبت!

ثم أردفتُ قائلاً : يا أبا موسى ، أما إني لم أتهمكَ ، ولكني خشيتُ أن يتقوَّل الناس على رسول الله ﷺ .

فهل في هذا ما يثبتُ أني كنتُ أدعو إلى تقليل الرواية؟

- لا والله

- أما قولهم أراد عمر بن الخطاب أن يأخذ القرآن ويدع السُّنة ، فزور وبهتان ، ومعاذ الله أن أكتفي بالقرآن عن السنن والأحاديث ، إذا لم أجد في القرآن حكمًا لما عرضَ لي من الأمر . . .

وقد أردتُ الشام يومًا فسمعتُ أن الوباء قد فشا فيها ، فاستشرتُ الناس ، فقال بعضهم بالمضي قدمًا ، وكان منهم أبو عبيدة بن الجراح ، وأشار بعضهم بالرجوع وكنتُ أميل إلى هذا الرأي ، فلم أقضِ بأي الرأيين إلا عندما حضر عبدالرحمن بن عوف وحدثنا بحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إذا وقع الوباء بأرض فلا تُقدموا عليها ، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»!

بل وأزيدك من الشعر بيتًا ، أني إذا لم أجد فيما عرض لي من الأمر قرآنًا ولا سنة نظرتُ في قضاء أبي بكر بأشباه ما عرض لي!

فأين الاستغناء عن السُّنة إذًا؟

- لا يوجد استغناء ، إنما هي فرية افتراها القوم ، وحسبوا أنهم بها ينالوا منك ، وما عرفوا أن مثلك لا يُنال منه ، فقد سبقتَ الناس ، أتعبتَ من قبلكَ وأتعبتَ من بعدك

- هذا من حسن ظنك يا بُني

- هذا الظن في محله والله

- دع عنكَ هذا ، وأخبرني الآن ، أما زال في شبهاتهم شيء؟

- أجل ما زال هناك شيء

– فقل إذًا

– على أمر أمير المؤمنين . . .

يقولون : بقي عمر بن الخطاب جريئًا على الله ورسوله حتى آخر عهده بالدنيا ، فلما طُعن ونام على فراش الموت ، أوصى أن تكون الخلافة في أحد ستة رجال ، ثم إنه بحجة حفظ أمر المسلمين أمر بلال بن رباح قائلاً له : إذا اختلف أهل الشورى من الستة فاقتل الأقل! يقصدون بذلك أنكَ أردتَ أن تقول له : إذا اتفق أربعة ضد ثلاثة ، اقتل الثلاثة ، وإذا اتفق خمسة ضد اثنين اقتل الاثنين ، وإذا اتفق ستة ضد واحد اقتل الواحد! فلما راجعك بلال مستغربًا قائلاً : أقتله يا أمير المؤمنين؟

قلت له : اقتله ، لا أريد خلافًا بين المسلمين!

فما قولكَ يا أمير المؤمنين؟

– لا أقول إلا : حسبي الله ونعم الوكيل ، ما حدث شيء من هذا قط ، وما قالوه قد اختلقوه ، ولا علم لي به ، ما كان مني منه شيء ، وما قلته وما علمته ، غير أنهم خلطوا حقًا كان مني فعلاً بكذبٍ أملته عليهم شياطينهم ، وقلوبهم السوداء وعقولهم العفنة!

– فما الذي حدث يا أمير المؤمنين بالضبط؟

– ذاك أني يوم طُعنتُ ، ورأى الناس أني في إدبار من الدنيا وإقبال على الآخرة جاؤوني

فقالوا : أوصِ يا أمير المؤمنين ، استخلفْ علينا من بعدك!

فقلتُ : ما أَجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر ، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ!

فسميتُ عليًا ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن ، وسعدًا . . .

ثم قلتُ : يشهدكم عبدالله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء!

– فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– قلتُ للناس : نادوا هؤلاء إليَّ

فلم يكن منهم حاضرًا إلا عليًا وعثمان

فقلتُ لعلي : يا علي ، لعلّ هؤلاء يعرفون قرابتك ، وما آتاك الله من العلم والفقه ، فاتقِ الله إن وليتَ هذا الأمر ، ولا ترفعنَّ قومك على رقاب الناس!

وقلتُ لعثمان : يا عثمان ، لعلَّ هؤلاء القوم يعرفون لكَ صهركَ من رسول الله ﷺ ، وسنّك وشرفك ، فإن أنتَ وليتَ هذا الأمر ، فاتقِ الله ، ولا ترفعنَّ قومكَ على رقاب الناس!

ثم قلتُ : ادعوا لي صهيبًا

فلما جاء أمرته أن يصلي بالناس

– فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– أمرتُ هؤلاء الستة الذين سيكون منهم الخليفة من بعدي ، وعبد الله بن عمر الذي ليس له إلا الرأي والمشورة ، أن يجتمعوا في دارٍ ، وينظروا أمرهم ، ويختاروا واحدًا منهم

ثم قلتُ : فإن اجتمعوا على رجلٍ فاضربوا رأس من خالفهم

– إذًا كانت وصيتك بضرب رأسٍ من رفض بيعة الخليفة الذي يتفق عليه الستة ويبايعه الناس ، ولم تأمر بضرب أعناق السبعة الذين جعلتَ فصل الأمر عندهم؟

– هذا الذي كان مني ، وما أمرتُ إلا بقتل من يشق صفَّ المسلمين ، ويكسر عصاهم ، بعد أن اتفق القوم على أمير منهم

– فلماذا أمرتَ بقتل من يرفض بيعة الإمام الذي اجتمع عليه الناس

– لأن هذا هو دين الله تعالى ، وشرع نبيه ، وقد كنتُ حاضرًا يومًا إذ قال رسول الله ﷺ : من أتاكم وأمركم جميعًا على رجل واحد ، يريد أن يشقّ عصاكم ، أو يفرق جماعتكم ، فاقتلوه

– هو أمر رسول الله ﷺ إذًا؟

– أجل هو واللهِ كذلك ، فأول وهن الأمة مخالفة بعضها لإجماعها ، وإن منازَعة أمير أجمع عليه المسلمون ، واتفقوا أن يولوه أمرهم ، وعاهدوه على السمع والطاعة بالمعروف ، هي منازعة شرع الله لا شخص الخليفة ، فإن هذا الأمر لا يستقيم كما أراد الله له أن يستقيم وفي المسلمين من أظهر التمرد وأعلن العصيان ، لا لشيء غير ما زين له الشيطان وأملى عليه هواه .

– فلماذا جعلت الأمر في الستة الذين ذكرتهم؟

– لقد بيّنتُ سبب حصري هذا الأمر في الستة الذين سميتهم ، فجميعهم من أهل السابقة ، والفضل والعلم والتقوى ، وقد مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ!

– فلماذا لم تسمِّ واحدًا بعينه؟

– قلتُ في نفسي ، إذا أوصيتُ لواحد فقد أوصى أبو بكر ، وإن لم أوصِ فلم يوصِ رسول الله ﷺ ، وإن كان أشار في غير موضع بأن يكون الأمر لأبي بكر ولكنه لم يصرِّح ، وقد كرهتُ أن أحمل هذا الأمر حيًا وميتًا ، فتركتُ الأمر للناس .

– رحمكَ الله ما كان أشدّ ورعك ، مع أنكَ إن سميتَ واحدًا فحاشاك إلا أن تسمي من يرضي الله ورسوله ، وكلهم كفؤ وجدير بها ، ولكنك بلغتَ من الورع مبلغًا يصيب المرء بالذهول .

– واللهِ ما كنتُ أريد إلا أن أخرجَ منها كفافًا لا لي ولا عليَّ

– لقد خرجتَ منها جبلاً راسخًا ، وكلها لكَ

– هذا لحسن ظنك بي يا بُنيّ

– وأنتَ واللهِ أحسن من ظنّ الناس بك

– دعكَ من هذا الآن ، وأخبرني ، أبان لك الأمر ، وانجلى الحق بعد الذي قلتُ لكَ مما كان

– أجل واللهِ بان الأمرُ وانجلى الحقّ

– أعندكَ شيء في هذا بعد

– لا يا أمير المؤمنين

– فهل من تقولهم عليّ ثمّ شيءٌ بعد؟

– أجل يا أمير المؤمنين

– فما ذاك؟

– يقولون :

كان عمر بن الخطاب يومًا جالسًا مع بعض أصحابه ، إذ ضحكَ قليلاً ، ثم بكى!

فقال له من حوله : رأيناك ضحكتَ وبكيتَ ، فلمَ ذاك؟!

فقال : كنا في الجاهلية نصنعُ صنمًا من التمر ، فنعبده ، ثم نأكله ، وهذا الذي أضحكني ، أما الذي أبكاني ، فقد كانت لي ابنة ، فأردتُ وأدها ، فأخذتها معي ، وحفرتُ لها حفرة ، فصارت تنفضُ التراب عن لحيتي ، فدفنتها حية!

فهل حدث هذا فعلاً يا أمير المؤمنين؟

– أما خبر عبادة الأصنام فقد كنا أهل جاهلية ، وإنّ الله بعث لنا رسولاً يدعونا إلى ترك عبادتها إلى عبادة الله الواحد ، فمنا من آمن ، ومنا من كفر ، ومنّ الله عليّ بالإسلام ، والإسلام يجبُّ ما قبله!

أما خبر وأدي لابنتي فلم أسمع به إلا منكَ الآن!

– ألم تفعل يا أمير المؤمنين؟

– لا والله لم أفعل ، وإن كنتُ فعلتُ فتلك كانت جاهلية العرب التي تعرفها ، وقد جاء الإسلام ليحطّ عنا إثمها ، ولا يؤاخذ امرؤ في الإسلام بما صنع في الجاهلية ، ولكني ما وأدتُ ابنتي حتى يوم كنتُ في الجاهلية ، فإن أول امرأة تزوجتها هي زينب بنت مظعون ، فولدت لي حفصة وعبد الله ، وعبد الرحمن الأكبر ، وكان ميلاد حفصة قبل البعثة بخمس سنين ، يوم كانت قريش تبني البيت ، ولهذا فهي أكبر بناتي ، وبها تكنيتُ أبا حفص! فلما لم أقم بوأد ابنتي الكبرى ، ولماذا أدعُ الكبرى تعيش وأقوم بدفن الصغرى حيّة؟!

وأزيدك من الشعر بيتًا ، أن الوأد وإن عرفه العرب في جاهليتهم ، فإن قومي بني عديّ لم يكونوا يفعلونه ، ولا أدلّ على ذلك أن أختي فاطمة التي أسلمت قبلي ، وكانت وزوجها سببًا في إسلامي بعد ذلك ، قد بقيت حية حتى تزوجت سعيد بن زيد!

– رد مفحم يا أمير المؤمنين ، موثق بالفهم في أوله ، وبالوثائق والحقائق التاريخية في آخره

– أخرجنا من هذه؟

– أجل خرجنا منها يا أمير المؤمنين ، ولا تستحق أن نقف عندها أكثر

– وهو كذلك ، والآن أخبرني بما عندك بعد إن كان ثمة ما قيل غير هذا .

– يقولون :

لما مرضَ رسول الله ﷺ ، طلبَ من الناس أن يحضروا كتابًا يوصي به للخليفة من بعده ، كي لا يضل الناس بعد وفاته ، ولكن عمر بن الخطاب قال : دعكم منه فإنه يهذي! ويكفينا كتاب الله الذي بين أيدينا ، فما قولك يا أمير المؤمنين؟

– كذب وافتراء ، وخلط الحق بالباطل مجددًا ، وما كان لعمر بن الخطاب أن يسيء إلى رسول الله ﷺ فيقول : دعكم منه فإنه يهذي! ولكن الأمر الذي حدث غير هذا

– فما الذي حدث يا أمير المؤمنين؟

– لما مرض رسول الله ﷺ ، قال : هلمّ أكتبْ لكم كتابًا لن تضلوا بعده!

فنظرتُ إلى رسول الله ﷺ ، فإذا هو يوعك وعكًا شديدًا ، فأشفقتُ عليه من الذي هو فيه ، فقلتُ : إن النبيّ ﷺ قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، فحسبنا كتاب الله

– فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– اختلف الحاضرون ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابًا لن تضلوا بعده!

ومنهم من يقول بقولي . .

فلما كثر اللغط والاختلاف ، قال رسول الله ﷺ : قوموا عني!

– جميل أن تشفق على رسول الله ﷺ من مرضه الذي نزل به ، ولكن لعله أراد أن يخبر الناس بوحي جاءه يا أمير المؤمنين

– إن أمر النبي ﷺ بإحضار ورقة وقلم لم يكن يتعلق بوحي جديد لم يُبلغه للناس ، ولا بأمر شرعي يحتاجه الناس في دينهم ، ثم ترك إعلامهم به لأجل ما حصل

– وما أدراك يا أمير المؤمنين؟

– الدليل على هذا عدة أمور :

أولاً : إنّ هذه الحادثة كانت يوم الخميس ، وقد توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين ، أي بعده بأربعة أيام ، وكان يمكنه أن يطلب من آخرين كتابة ذلك الكتاب ، فلما لم يفعل ، علمتُ أنه لم يكن وحيًا فيكتمه .

ثانيًا : أن الله تعالى قد أثنى على نبيه ﷺ بأنه قد بلّغ ما أُنزل إليه ، وقد منّ الله تعالى على هذه الأمة بإكمال الدين ، وإتمام النعمة ، والقول بأن ما لم يكتبه النبي ﷺ هو من الدين الذي تحتاجه الأمة عامة ، فيه اتهام للنبي ﷺ بعدم تبليغ الرسالة ، وفيه تكذيب للرب تعالى في خبره بإكمال الدين وإتمام النعمة على العباد!

ثالثًا : اختلافنا في فهم أمره ﷺ ، والوقوف على حقيقة معناه ، وإلا لسارعنا جميعًا إلى تنفيذه ، وقد خلعنا نعالنا في الصلاة من قبل لمجرد أن رأيناه ﷺ قد خلع نعليه ورمى بهما دون أن يأمرنا بذلك ، فهل مثلنا وهم في هذا الاقتداء أن نخالف أمرًا نجزم يقينًا أنه من الوحي؟!

– كلام جميل حتى الآن يا أمير المؤمنين ، ولكن يبقى السؤال : هل جاز الاختلاف في حضرته ﷺ ؟

– الاختلاف في حضرته خصوصًا في أمر أمرَ به ﷺ في حالة طبيعية هو فيها معافى ، لا يشكو بأسًا ، ولًا يئنُّ من وجع ، مهلكة ما بعدها مهلكة ، ولكن لا يمكن قياس حالة عادية بالظرف الذي كان فيه ﷺ ، وما أردتُ إلا أن لا أزيد عليه الذي هو فيه ، لما ظهر لي أن هذا الأمر ليس على الوجوب وأنه من باب الإرشاد إلى الأصلح ، وقد بينتُ لك بالحجة والدليل أنه فعلاً كان كذلك!

وقد جاز الاختلاف في هذا الكتاب ، لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها إلى الوجوب ، ولم أرَ والذين معي أنه على الوجوب ، والدليل عزمه ﷺ على الكتابة ثم ترك ذلك ، أن الترك كان أولى ، لأنه ﷺ لا يفعل إلا الأولى ، فالكتاب لم يُترك لقول عمر لا تقرّبوا له كتابًا فقد غلبه الوجع ، وإنما لاقتناعه ﷺ بعد ما كان ألا يكتب ، ولو طلب ثانية ، ما عصيته ، وحاشاني أن أفعل ، وما وجدتُ إن فعلتُ من يطيعني ويعصي رسول الله ﷺ .

– ولكن بعضهم يقول أن رسول الله ﷺ أراد أن يعهد بهذا الكتاب لتكون الخلافة لعلي بن أبي طالب!

– وكيف علموا مضمون كتاب لم يُكتب؟ اطلعوا الغيب ، أم شقوا عن صدر رسول الله ﷺ؟ ثم لماذا يعهد بالخلافة لعلي؟ لماذا لا يفترضون أنه أراد أن يوصي لأبي بكر ، أو لغيره ، هذا على التسليم بجزمهم الخاطئ أنه ما أراد الكتاب إلا ليوصي من يكون خليفة على الناس بعده؟

– الذين قالوا بهذا ، هم من قالوا أن رسول الله ﷺ قد أوصى لعلي بن أبي طالب بالخلافة يوم الغدير بنص قاطع ، فما قولك؟

– ما دام قد أوصى لعليّ بن أبي طالب بنص قاطع من قبل ، فما الحاجة له أن يكتب ما قد سبق وقطع به؟

– لستُ أدري

– ولا أنا ، ولكن كما ترى هو رجم بالغيب ، ثم القول بنص قاطع بخلافة عليّ يعني اتهام المسلمين جميعًا بمخالفة النبي ﷺ ، فكيف يبايع المسلمون أبا بكر ، بل وكيف يجتمع الأنصار في السقيفة لاختيار خليفة والأمر مبتوت فيه؟ ثم لو كان ما زعموا قد حدث فعلاً لتساوى عليٌّ بالإثم معنا جميعًا ، فكيف يخالف هو الآخر أمر رسول الله ﷺ بأن تكون له الخلافة من بعده ويبايع أبا بكر ، ثم يبايعني؟ كيف نلقي جرمًا على شخص ، ونبرئ منه آخر ، وقد قاما بنفس الفعل؟ فإن أخطأ عمر فقد أخطأ عليٌّ أيضًا ، وإن أصبتُ فقد أصاب!

– صدقت يا أمير المؤمنين

– أخرجنا من هذه؟

– أجل خرجنا

- فما عندك من أشباهها بعد؟

- يقولون :

كـــان عـمــر بـــن الخطـــاب يتـقـاعس عـن تنفـيـذ أوامـــــر رسول الله ﷺ ، فقد طلب منه يوم الحديبية أن يذهب إلى قريش ليبلغها رسالته أنه ما جاء لقتالهم ولكنه جبن ، واقترح إرسال عثمان بن عفان مكانه ، وهكذا كان! ونفس الموقف قد تكرر تقريبًا في غزوة الأحزاب ، عندما انتدب رسول الله ﷺ رجالاً ثلاثًا ، فلم يقم أحد من الصحابة ، فأين عمر الذي تصفونه بالبأس والقوة في الحق ، أليس هو الذي هاجر جهرًا ، فما به يشتد تارة ويجبنُ أخرى؟! فما قولك في هذا يا أمير المؤمنين؟

- مشكلة هؤلاء أنهم أحيانًا يذكرون حدثًا قد كان فعلاً ، ولكنهم يُعملون فيه عقولاً عوجاء ، واستدلالاً فاسدًا ، تحسب أول الأمر شيئًا ، ثم إذا نظرتَ في الأمر ، وجدته كالسراب يحسبه الظمآن ماءً!

- وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟

- أراد رسول الله ﷺ أن يرسلني يوم الحديبية إلى قريش فعلاً ، لأبلغهم رسالته

فقلتُ له : يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي! وقد عرفتَ عداوتي لها ، وليس بها من بني عديّ من يمنعني ، وإن أحببتَ يا رسول الله دخلتُ عليهم! ولكن أدلكَ على رجل أعزّ بمكة مني ، وأكثر عشيرة وأمنع ، عثمان بن عفان .

- فماذا فعل رسول الله ﷺ عندها؟

- أخذ برأيي ، ونادى على عثمان . . .

وقال له : اذهب إلى قريش فأخبرهم أننا لم نأتِ لقتالٍ ، وإنما جئنا زوارًا لهذا البيت ، معظمين لحرمته ، معنا الهَدْي ، ننحره وننصرف!

– إذًا ما أرى في الأمر جبنًا ولا تقاعسًا ، وما هي إلا الحربُ والرأي والمشورة ، يرى رسول الله ﷺ رأيًا ، فيسمع لرأي المسلمين ، فإن شاء مضى على رأيه ، وإن شاء نزل على رأيهم ، تمامًا كيوم بدر ، يوم نزل رسول الله ﷺ بالجيش منزلاً للقتال . . .

فقال له الحباب بن المنذر : أهذا منزل أنزلك الله إياه يا رسول الله فنسمع ونطيع ، أم هي الحرب والرأي والمشورة؟

فقال رسول الله ﷺ : بل هي الحرب والرأي والمشورة

فقال الحباب : ما أرى إذًا أن هذا منزل حرب ، فلنجعل آبار بدر خلفنا فنشرب ولا يشربون!

فأخذ رسول الله ﷺ برأيه

– صدقتَ يا بُنيّ ، ما بقي إلا أن يقولوا خالف الحباب بن المنذر أمر رسول الله ﷺ ، وجبن عن المنزل الذي اتخذه رسول الله ﷺ للقتال ، كما قالوا عني!

– لو قالوا هذا فلا أستغرب!

– كما رأيتَ يا بنيَّ ، فإني لم أرفض ، لأن المقام كان مقام سياسة ومفاوضة ، فبينتُ له الرأي الذي رأيته مدعومًا بالأدلة والبراهين والحجج ، لهذا أخذ برأيي بعدما بدا له صوابه ، ما بقي إلا أن يفحشوا ويقولوا كيف لرسول الله ﷺ أن يأخذ برأي جبان تقاعس عن تنفيذ أمره! ثم إني بعد أن قلتُ رأيي ، وضعتُ نفسي رهنٍ أمره

وقلتُ : إن شئتَ بعد هذا دخلتُ عليهم .

– هذا رأس الشجاعة والله ، فقد جمعتَ في هذا الموقف ما يجب أن يجتمع في الجندي المخلص لقائده ورسالته ، وهما النصح والطاعة ، فأما النصح فكان إبداء رأي أخذ به القائد ﷺ ، وأما الطاعة فاستعدادك للذهاب إن شاء رغم كل الذي قلته ،

وقد كانت قريش تعتبرك الرجل الثالث في الإسلام ، بعد رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، فيوم أحد ، وقف أبو سفيان وقال : أفيكم محمد؟!

فأشار رسول الله ﷺ أن لا تجيبوه ، فلم يجبه أحد

فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ، أفيكم عمر بن الخطاب؟

فقد كان يعرف أهم الشخصيات في الإسلام ، رسول الله ﷺ ، ووزيره الأول أبو بكر ، ووزيره الثاني أنتَ! وما سأل عن غيركم!

فلم تتمالك نفسكَ حينها من فرط حبكَ لله ورسوله ، وقلتَ له : أي عدو الله ، إن الذين ذكرتَ أحياء ، وقد أبقى الله لكَ ما يسوؤك!

– صدقتَ والله ، فهذا الذي كان!

– فما خبر غزوة الأحزاب يا أمير المؤمنين؟

– ما حدث يوم الأحزاب لستُ أدري واللهِ ما سبب أن يُذم فيه عمر بن الخطاب وحده عن دون الصحابة جميعًا ، ولستُ أقول ذموا صحابة رسول الله ﷺ معي ، ولكني أقول هو أمر اشترك فيه عمر مع ثلاثة آلاف رجل آخر ، فلماذا يحمله عمر وحده؟!

– فأي شيء ذاك؟

– كنا مع رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، وقد أصابتنا ريح شديدة ، وبرد قارس

فقال رسول الله ﷺ : ألا رجلٍ يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا فلم يجبه منا أحد!

ثم قال : ألا رجلٍ يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا فلم يجبه منا أحد!

فقال ثالثة : ألا رجلٍ يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا فلم يجبه منا أحد!

فقال رسول الله ﷺ : قُم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم

فذهب حذيفة ، ويسر الله له ما ذهب إليه ، ولو ناداني ، أو نادى أبا بكر ، أو عليًا ، أو عثمان ، أو سعدًا ، ما تخلف منا رجل واحد ، ولكن الأمر على ما رأيتَ ، فكيف يحمله عمر بن الخطاب وحده؟

– لا واللهِ لا يحمله وحده ، كما أنه لا يحمله غيره ، فأنتم نهاية المطاف بشر ، يصيبكم ما يصيب الناس من الخوف والبرد والجوع والعطش ، وليس للآمن في بيته أن ينال من المجاهد في غزوة قال الله فيها : «وبلغت القلوب الحناجر»! وليس للمستدفئ في فراشه أن ينال ممن باتَ يحرس في سبيل الله ، يلسعه البرد ، وتلطمه الرياح!

– هذا كلام من وعى وأنصف ، ولكن ما تقول في قوم لم يفهموا قول رسول الله ﷺ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئتَ!

– لا أقَول إلا ما قاله إبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار :حسبي الله ونعم الوكيل ، كما علمتني يا أمير المؤمنين

– وأنا أقول مثلها . . والآن أخبرني أما زال عندك من ترهاتهم وشبهاتهم شيء؟

– لا يا أمير المؤمنين ، هذا كل ما بلغني من أمراض قلوبهم وعقولهم ، التي جرت على ألسنتهم أقوالاً ، وما عندي غيره .

– أما أنه يسرني أن نغلق هذا الباب إذًا ، إذ أن المشي بالوحي لعناء للنفس وملوثة للثياب ، ولو كانت الوجهة سليمة ، فحسبنا ما لقينا .

– على أمر أمير المؤمنين ، ما يسره يسرني ، وما يغضبه يغضبني

– فهل ما زال عندك شيء آخر تسألني عنه يا بُنيّ ، أم نفترق فقد أطلنا الكلام

– أعتذر لأمير المؤمنين عن أخذي وردي وأسئلتي وجدالي ، وما كان هذا إلا من حبي له ، وطمعي بحديثه ، فأنتَ واللهِ ماء عذب في صحراء قاحلة ، ولا يُلام من لزم الماء ومكث عنده بعدما وجده .

– لا عليكَ يا بُنيَّ ، ولكنكَ لم تُجبني ، أما زال عندك شيء تسألني عنه؟

– أجل يا أمير المؤمنين ، عندي شيء أخير ، وأعزي نفسي بعدها لفراقك .

– فما هو؟

– أرغب أن يحدثني أمير المؤمنين عن آخر عهده بالدنيا!

– فعن أي شيء تريد أن أحدثك تحديدًا؟

– حدثني عن أول بشرى بشَّرك إياها رسول الله ﷺ بالشهادة .

– كان ذاك منذ أمد بعيد ، بعد أن أضاء الإسلام جزيرة العرب ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، صعدنا وأبو بكر وعثمان بن عفان مع رسول الله ﷺ على جبل أحد ، فارتجف الجبل!

فقال له رسول الله ﷺ : اثبتْ أُحد ، فإنما عليكَ نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان!

والنبي معروف لا نزاع فيه بأبي هو وأمي ، والصدِّيق معروف لا نزاع فيه وهو أبو بكر ، رجلٌ أقل من الأنبياء درجة ، وأعلى من الشهداء درجة! فبقيتُ أنا وعثمان ، فعلمنا أنها الشهادة ، فما ينطقُ عن الهوى ، وكانت هذه أول بشرى

– فما خبر الباب الذي يُكسر؟

– كان حذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله ﷺ ، وكان قدْ أسرَّ له بأمور قد اختصه بها عن دون الناس

فقلتُ يومًا : أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟

فقال حذيفة : أنا

فقلتُ : هاتِ ، إنك لجريء

فقال : قال رسول الله ﷺ : فتنة الرجل في أهله وماله وجاره ، تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فقلتُ : ليست هذه ، ولكن التي تموجُ كموج البحر

فقال : لا بأس عليكَ منها ، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا

فقلتُ : يُفتح الباب أو يُكسر

فقال : بل يُكسر

فقلتُ : ذلك أحرى أن لا يُغلق!

– فماذا حدثَ بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

– أراد الناس أن يسألوا حذيفة عن الباب ، فهابوا أن يفعلوا ، ثم أمروا مسروقًا أن يسأله

فقال له : يا حذيفة : من الباب؟

فقال : عمر

فقيل له : أكان عمر يعلم أنه الباب بين الناس والفتنة ، وأنه يُكسر؟

فقال : أجل كان يعلم!

– فماذا تقصد بقولك : يُفتح الباب أو يُكسر؟

– كنتُ أعلم أني الباب بين الناس والفتنة ، ولم أكن أعلم أألقى ربي على فراشي كما يموت الناس ، أم شهيدًا وقد أصابني القتل ، فلما قال يُكسر ، علمتُ أنه القتل!

– أما علمت من قبل ببشرى رسول الله ﷺ يوم ارتجف بكم جبل أحد؟

– قلتُ لعلها شهادة دون قتل

– أتكون الشهادة دون قتل يا أمير المؤمنين؟

– أجل تكون

– وكيف ذلك؟

– قال لنا رسول الله ﷺ يومًا : ما تعدّون الشهداء فيكم؟

فقلنا : يا رسول الله ، من قُتل في سبيل الله فهو شهيد

فقال : إنّ شهداء أمتي إذًا لقليل

فقلنا : فمن يا رسول الله؟

فقال : المطعون شهيد ، والمبطون شهيد ، والغريق شهيد ، والحريق شهيد ، وصاحب الهدم شهيد

– إذًا الشهداء ستة ، الخمسة الذين ذكرتَ أن رسول الله ﷺ ذكرهم ، بالإضافة لشهيد الجهاد في سبيل الله!

– من رحمة الله بهذه الأمة جعلهم أكثر من ذلك ، وقد ورد ذكرهم في أحاديث أخرى اخبر بها رسول الله ﷺ

– ومن هم يا أمير المؤمنين؟

– من مات بالطاعون فهو شهيد ، وقد قال رسول الله ﷺ : الطاعون شهادة لكل مسلم!

ومن مات دون ماله وعرضه فهو شهيد ، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أريتَ إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟

فقال : لا تعطه مالكَ!

قال : أرأيتَ إنَ قاتلني؟

قال : قاتله!

فقال : أرأيتَ إن قتلني؟

فقال له : فأنت شهيد!

قال : أرأيتَ إن قتلته؟

قال : هو في النار!

- فمن في الشهداء بعد يا أمير المؤمنين؟

- النفساء التي تموت بعد وضعها وليدها ، فقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن النفساء يجرها ولدها بسررها إلى الجنة!

ومن مات بالسل فهو شهيد ، فقد قال رسول الله ﷺ : السل شهادة!

وقال بأبي هو وأمي : من صرعته دابة فهو شهيد!

والمرأة التي تموت وهي حامل بسبب حملها ، لقوله ﷺ : والمرأة تموت بجمع شهيدة!

- فهل كل الذين ذكرتهم لي يا أمير المؤمنين في نفس المرتبة؟

- لا ليسوا سواء ، هناك شهداء دنيا وآخرة ، وهم الذين ماتوا في سبيل الله في ساحات الجهاد ، أو قتلهم العدو في ديارهم بسبب ما نكّلوا فيهم من قبل ، وهناك شهداء آخرة ، وهي الأصناف الباقية ، فهؤلاء في الدنيا حكمهم حكم الميت العادي ، تأكل الأرض أجسادهم ، ويجري عليهم ما يجري على الناس ، ولكنهم يوم القيامة في عداد الشهداء .

– حسنًا فهمتُ يا أمير المؤمنين ، وهنيئًا للباب الذي كُسر فكان له أعلى مراتب الشهادة

– ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

– فهل حدث معكَ شيء أحسست معه بقرب الأجل؟

– عندما بلغتُ الثالثة والستين ، حججتُ بالناس وكان بينهم أمهات المؤمنين ، ثم لما فرغنا ، أحسستُ بثقل هذا الأمر على عاتقي .

– أي أمر يا أمير المؤمنين؟

– أمر الخلافة والرعية والسياسة والحكم ، فرفعتُ يديّ إلى السماء وقلتُ : اللهم كبر سنيّ ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مفرِّط

– أتدعو بالموت على نفسكَ يا أمير المؤمنين؟

– يا بُنيّ ما بعد الحياة إلا الموت ، والموت كأس كل الناس شاربه ، شرب منه رسول الله ﷺ ، والأنبياء من قبل ، فلن يسلم منه عمر بن الخطاب ، وإن خير خاتمة للمرء أن يُقبض على الحق ، غير مُفرط في دينه ولا رعيته ، وقد أحببتُ أن ألقى الله على هذا .

– فما خبر الرؤيا التي رأيتها قبل استشهادك يا أمير المؤمنين؟

– كان ذاك يوم الجمعة التي كانت آخر جمعة لي في الدنيا ، صعدتُ المنبر فحمدتُ الله وأثنيتُ عليه بما هو أهله ، ثم صليتُ على رسول الله ، وترحمتُ على أبي بكر ، ثم قلتُ للناس :

رأيتُ كأن ديكًا نقرني نقرتين

فقالت أسماء بنت عميس : يا أمير المؤمنين ، يقتلك رجل من العجم!

– أقد فعل اللعين؟

– فعل ليمضي قدر الله!

- فما شأنه وشأنكَ يا أمير المؤمنين؟
- سأخبرك بما كان بيننا
- لأول مرة يوجعني حديث يجيء منكَ ، وقد كنتُ واللهِ أخشى أن تأتي هذه اللحظة منذ أول لقائي بك ، ولولا أني أريد أن أسمع منكَ لا عنكَ ، لطلبتُ إليكَ أن تكفَّ عني هذا الوجع ، فنطوي هذه الصفحة قبل أن ننشرها ، ولكنه قدر الله ، فقلْ يا أمير المؤمنين .
- الحمد لله الذي جعل منيتي على يده لا على يد غيره
- ولمَ يا أمير المؤمنين؟
- ستعرف يا بُنيّ ، فلا تكن عجولاً
- على أمر أمير المؤمنين؟
- كنتُ لا آذن لسبيٍّ قد بلغ الحلم أن يدخل المدينة ، حتى كتب إليّ المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة وهو يذكر لي غلامًا عنده صانعًا ، ويستأذنني أن أُدخله المدينة

وقال إن عنده أعمالاً كثيرة فيها نفع للناس ، وإنه حداد ، نقّاش ، نجار

فأذنتُ أن يرسله إلى المدينة

- فما حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟
- بعد أن دخل المدينة ، ضربَ عليه المغيرة مئة درهم كل شهر ، والباقي مما يحصله فهو له

فجاءني يشتكي ما فرضَ عليه المغيرة

فقلتُ له : ماذا تحسنُ من العمل؟

فذكر لي أعمالاً كثيرة يقوم بها ، فعرفتُ أنه يجني مالاً وفيرًا وأن المغيرة ما ظلمه .

فقلتُ له : ما خراجك كثير فيما تعمل

فانصرف ساخطًا يتذمر

فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

لبثتُ بعد ذلك أيامًا ، ثم إن العبدَ مرَّ بي ، فناديته

ثم قلتُ : ألمْ أُحدّثُ عنكَ أنكَ تقول لو أشاء لصنعتُ رحىً تطحنُ بالريح؟

فالتفتَ إليَّ ساخطًا عابسًا ، ومعي رجال من أصحابي

ثم قال : لأصنعنَّ لكَ رحى يتحدثُ الناس بها

فلما ولّى في طريقه

قلتُ للذين معي : هددني العبدُ آنفًا!

- فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- بعدها بيومين ، أتيتُ مسجد رسول الله ﷺ لأصلي الفجر بالناس ، فتقدمتُ ، فقلتُ : استووا ، حتى إذا لم أرَ خللاً ، قلتُ : الله أكبر! وبدأتُ أقرأ بسورة يوسف ، وكنتُ أختار الطوال من السور في أول ركعة لي في صلاة الفجر ، ليلحق بنا من تأخر فلا تفوته ركعة .

- لا يفوتك شيء يا أمير المؤمنين ، تحمل همّ كل صغيرة وكبيرة ، تطيل في صلاتك ليدركك من تأخر عنك ، والله إنك لرحيم فقيه .

- ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

- فما حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين!

- ما كدتُ أُتمُّ الآيات الأولى ، حتى وثب عليّ رجل وطعنني أكثر من طعنة ، كانت أشدها أسفل بطني ، شعرتُ معها أن أمعائي قد خرجت مع الخنجر إذ نزعه .

فقلتُ : قتلني عدو الله!

والمسجد يومئذ مظلم ، لم يرَ ما حدث إلا من كان في الصف الأول ، أما البقية فصاروا يقولون : سبحان الله ، سبحان الله ، لأن صوتي قد انقطع

ثم حاول من طعنني أن يهرب ، وأن لا أرى من هو ، فحاول الناس إمساكه ، فكان لا يمر بأحدٍ إلا طعنه ، حتى قتل يومذاك تسعة ، فألقى عليه رجل من المسلمين عباءة ، فلما شعر أنهم ظفروا به ، طعنَ عدو الله نفسه!

- فما فعلتَ عندها يا أمير المؤمنين؟

- أخذتُ بيد عبدالرحمن بن عوف ، وقدمته ليتم الصلاة بالناس

- يا الله ، لم تنسَ الصلاة وجسدك مثخن بالطعنات الغادرة ، وأمعاؤك قد خرجت؟

- يا بُنيَّ إنها وصية رسول الله ﷺ حيث كان قال آخر ما أوصى : الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم!

- فما حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- أغميَ عليَّ لكثرة الدم الذي فقدته من أثر الطعن ، وما استعدتُ وعيي إلا وأنا في بيتي والناس حولي

- فما كان منكَ أول ما أفقتَ؟

- قلتُ : أصلى الناس؟

قالوا : نعم

فقلتُ : لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة!

ثم دعوتُ بوضوء ، فتوضأتُ ، وصليتُ ، ولما فرغتُ ، نظرتُ في الذين حولي فرأيتُ عبدالله بن عباس

فقلتُ له : اخرج يا ابن عباس فسل من قتلني!

فخرج إلى المسجد ، والناس مجتمعون هناك ، جاهلون بأمري

فقال : من طعن أمير المؤمنين؟

فقالوا : طعنه عدو الله ، أبو لؤلؤة غلام المغيرة ، ثم طعنَ معه رهطًا ، ثم قتل نفسه!

فجاء ابن عباس فقال لي : إنه عدو الله ، فيروز غلام المغيرة

فقلتُ : الصانع؟

قال : أجل

قلتُ : قاتله الله ، واللهِ لقد أمرتُ به معروفًا ، فالحمد لله الذي جعل منيّتي بيد رجل لم يسجد لله سجدة يحاججني بها عنده!

– حديث يفطر القلب يا أمير المؤمنين ، واللهِ إني لفرط حبي لكَ ، لأحسُّ بأثر خنجر عدو الله في بطني ، فداكَ أبي وأمي وأهلي جميعًا

– لكل أجلٍ كتاب يا بُنيّ ، والحمد لله أن منَّ عليَّ بأعلى مراتب الشهادة ، ليتحقق وعد رسول الله ﷺ : اثبتْ أُحد ، فإن عليك نبي وصديق وشهيدين .

– هنيئًا لكَ يا أمير المؤمنين ، ليس غير هذا يخفف ألم فقدك عنا ، نحتسبك عند الله ، ونسأله أن يجبر مصابنا بك ، والله لقد كنتَ بابًا منيعًا في وجه الفتن ، فلما كُسر انقلبت حالنا رأسًا على عقب

– لا يُضيع الله أهله يا بُنيّ ، وإذا عظم مصابك بي فتعزوا بفقد رسول الله ﷺ ، فما بعده من فقيد يُفتقد

– ﷺ ، ولكنك والله تُفتقد!

– ما زاد عدو الله أن نفذ فيّ قدر الله ، فالحمد لله على كل حال

- فماذا حدث بعد ذلك يا أمير المؤمنين؟

- بعد ذلك جاؤوني بماء فشربته ، فخرج من جوفي ، ثم جاؤوني بلبن فشربته فخرج كذلك ، فعلموا أنه الأجل

ثم جاء رجلٌ شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لكَ ، من صحبة رسول الله ﷺ ، وقدمٍ في الإسلام ما قد علمتَ ، ثم وليتَ فعدلتَ ، ثم شهادة

فقلت : وددتُ لو أني خرجتُ منها كفافًا لا لي ، ولا عليَّ

فلما أدبرَ ، إذا إزاره يمسُّ الأرض

فقلتُ : ردوا عليَّ الغلام

فلما عاد قلتُ له : يا ابن أخي ، ارفع ثوبك ، فإنه أنقى لثوبك ، وأتقى لربك!

- وأنتَ في تلك الحال يا أمير المؤمنين لا تشغلكَ نفسك عن نصيحة تبديها في إزار؟

- وأنا في تلك الحال ، فهل تريد أن يكون آخر عهدي بالدنيا منكرًا رأيته فسكتُّ عنه وإن كان صغيرًا؟

- لا والله ، لا أريد لكَ إلا الخير يا أمير المؤمنين

- بارك الله بك يا بُنيّ

- فما فعل الناس يوم خرج الماء واللبن من بطنك وعلموا أنه الأجل

- بكى القوم حتى سمعتُ بكاءهم

فقلتُ : لا تبكوا علينا ، ومن كان باكيًا فليخرج ، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ ؟

قالوا : وما قال؟

قلتُ : يُعذبُّ الميت ببكاء أهله عليه!

- والله إن مثلك ليُبكى عليه دمًا لا دمعًا يا أمير المؤمنين

- لا تجعل آخر عهدي بك هذا القول ، فلقد علمتَ أني ما أحبُّ المديح

- على أمر أمير المؤمنين

- بارك الله بكَ يا بُني

- وبكَ يا أمير المؤمنين ، فما فعلتَ بعد ذلك؟

- ناديتُ ابني عبدالله ، وقلتُ له : انطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقل : يقرأ عليك عمرُ السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإني لستُ اليوم للمؤمنين أميرًا! وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه

فقالت : كنتُ أريده لنفسي ، ولأوثرنه اليوم على نفسي

فلما رجع عبدالله قالوا : هذا عبدالله بن عمر قد جاء

فقلتُ : ارفعوني

فأسندني رجل إليه

فقلتُ : ما لديكَ يا عبدالله؟

قال : الذي تُحبّ يا أمير المؤمنين ، قد أذنتْ!

فقلتُ : الحمد لله ، ما كان من شيء أهمُّ عندي من ذلك ، فإذا أنا قُبضتُ فاحملوني ، ثم سلّم على عائشة ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت فأدخلوني ، وإن ردتني ، فردوني إلى مقابر المسلمين

- فلماذا تستأذن عائشة أن تُدفن بجوار صاحبيك؟

- لأن صاحبيّ في حجرتها ، فالأنبياء عليهم السلام يدفنون حيث يموتون ، وقد مات رسول الله ﷺ في حجرتها فدفن هناك ، ثم دفنّا أبا بكر قرب صاحبه

- فلمَ طلبتَ أن يستأذنوا لكَ وأنتَ ميت ، وقد فعلوا وأنتَ حيّ
- لعلها خجلتْ أن تردني وأنا حي ، فقلتُ أستأذن
- للهِ درك من رجل ، لا ترضى أن تأخذ ما ليس لكَ حيًا أو ميتًا
- الحقُّ أحق أن يُتبع يا بني
- صدقتَ يا أمير المؤمنين ، فما آخر عهدك بالدنيا بعد ذلك؟
- جاءت ابنتي حفصة ، فدخلت عليّ ومكثت عندي ساعة ، فلما اشتد بكاؤها ، طلبتُ منها أن تتقي الله وتصبر ، ولما خرجتْ ، دخل ابن عباس ، فقال لي : يا أمير المؤمنين ، أسلمتَ حين كفر الناس ، وجاهدتَ مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس ، وقُتلت شهيدًا ، ولم يختلف عليكَ اثنان ، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنكَ راضٍ

فقلتُ : أعد مقالك

فأعاده

فقلتُ : المغرور من غررتموه ، واللهِ لو أن لي ما طلعتْ عليه الشمس أو غربت لافتديتُ به من هول المَطلع

وكان رأسي على فخذ عبدالله بن عمر

فقلتُ : ضع رأسي على الأرض

فقال : ما عليكَ ، كان على الأرض أو كان على فخذي؟!

فقلتُ له : لا أُمّ لك ، ضعه على الأرض علّ الله ينظر إليّ فيرحمني ، ثم طُويَ الكتاب!

- كتاب مشرق يا أمير المؤمنين ، لو حملته الجبال لأطّت من كثرة الحسنات التي فيه ، هنيئًا لك ما فعلتَ لدين الله
- دع عنكَ هذا فقد أطلنا المقام ، وما أراه إلا الفراق ، ألكَ حاجة بي بعد؟

- كلنا لك بك حاجة ، رعيتك التي تفتقد عدلك ، الطرقات التي تشتاق خطواتك ، المنبر الذي يحن لصوتك ، الأيتام إذ تتفقدهم ، المظلومون إذ تنصرهم ، الضعفاء إذ تعينهم ، كل شيء هنا يفتقدك يا أمير المؤمنين

- «إنهم إليها لا يرجعون»! فالسلام عليكَ ، إني ماضٍ

ومضى كما أتى . . .
فارع الطول كأنّ بينه وبين النخيل قرابة
صلب كأنه قُدّ من خاصرة جبل
في يده اليسرى عصًا تشعرُ وهو يغرسها في التراب أنه لا يحتاجها للاتكاء
وإنما ليُثبّت الأرض في مدارها!